الإسلام

وقضايا علم النفس الحديث

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

دار الشروق جدة هاتف : ٢٦٦١٠ - ص. ب : ٤١٤٦ - برقياً : مشكاتنا - المملكة العربية السعودية

الإسلام
وقضايا علم النفس الحديث

تأليف
دكتور نبيل محمد توفيق السمالوطي
استاذ علم الاجتماع المشارك
كلية الشريعة واللغة العربية - أبها

تقديم
فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز المصلح
عميد كلية الشريعة واللغة العربية - أبها

دار الشروق جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز المصلح
عميد كلية الشريعة واللغة العربية - أبها

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد ، فإن المكتبة العربية في حاجة الى مراجعة شاملة للقضايا المطروحة في مختلف العلوم الاجتماعية والسلوكية ، ذلك لأن اغلب هذه القضايا - ان لم يكن كلها - قد عوجلت من منطلقات الفكر الغربي التي تتعارض مع أساسيات الفكر الاسلامي القويم الذي يستند الى كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . ومن هنا تأتي حاجتنا الى دراسات متعمقة في مجال العلوم الاجتماعية والسلوكية تعتمد في منطلقاتها واساليب معالجتها للقضايا على المفاهيم والتفسيرات الاسلامية الصحيحة التي تستند الى كتاب الله وما صح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام . وهناك عدة ملاحظات أود أن أوردها في هذا الصدد :

اولاً : أنه لا يوجد دين يحض اتباعه على اعمال الفكر والبصر والبحث في الكون المادي وفي النفس الانسانية ، كما فعل الاسلام لدرجة أنه اعتبر أن طلب العلم فريضة .

ثانياً : إن حضارة الاسلام بعلومها وفنونها التي انطلقت من الكتاب والسنة ، هي التي أنارت الطريق للعالم كله في وقت غاص فيه العالم - بما فيه الغرب - في ظلمات الجهل والاستغلال واستعباد الانسان والخرافات والأوهام .

ثالثاً : أن علوم الغرب الحديثة في المجالات المادية ، هي محصلة العلوم التي أنتجها الفكر الاسلامي في عصر النهضة الاسلامية بعد تطويرها ، فإذا ما

استعنا بها فإننا نكون بمثابة من استرد بضاعته بشرط تنقيتها من كل ما علق بها من مفاهيم زائفة تتعارض مع جوهر قيم الاسلام الحنيف .

رابعاً : تعد العلوم الاجتماعية ، والسلوكية من اكثر العلوم خطراً وأثراً على الناس ، ولهذا فإننا بحاجة الى علوم اجتماعية وسلوكية تنطلق من الكتاب والسنة ومن واقعنا الذي نعيشه في العالم العربي وتستهدف تطويره وتنميته مع رفض الفكر الوافد علينا سواء من المجتمعات الشيوعية أو من المجتمعات الغربية .

والكتاب الذي بين أيدينا والذي قام بإعداده الدكتور نبيل محمد توفيق السمالوطي الأستاذ المشارك للعلوم الاجتماعية بالكلية ، يسد ثغرة كبيرة في المكتبة العربية في هذا الصدد فقد تناول فيه العديد من قضايا علم النفس المعاصر من المنظور الاسلامي الصحيح ، وناقش بعض النظريات الغربية في ضوء حقائق الاسلام الاساسية ، وأوضح رأي الاسلام في العديد من الموضوعات التي تعالجها العلوم السلوكية الحديثة .

والله الموفق وهو الهادي الى سواء السبيل .

عبد الله بن عبد العزيز المصلح
عميد كلية الشريعة واللغة العربية بأبها .

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد، فقد تزايدت أهمية الدراسات النفسية والاجتماعية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية التطبيقية كالتربية والتعليم والدعوة والاعلام والصناعة والجيوش والعلاج الجسمي والنفسي والعقلي . . . الخ . ويحتل علم النفس أهمية خاصة لطالب الشريعة وأصول الدين ، حيث يسهم في إعداده إعداداً مهيئاً لممارسة دوره كداعية ناجح سواء في مجال التعليم أو الوعظ والارشاد أو القضاء . . . ، كما يحتاج المربي إلى فهم الأصول القرآنية الكريمة لقضايا النفس والسلوك والقيم ، حتى ينطلق في ممارسته للدعوة من أساس ثابت راسخ سليم . ويجب على الداعية أن يفهم ما يصدر عن الانسان من سلوك ظاهر وباطن ، ومعرفة محركات السلوك ودوافعه وحوافزه واسبابه ، وهذا هو في جوهره موضوع علم النفس .

وقد راعيت أن ينطلق هذا الكتاب من منطلقات القرآن الكريم وما صح عن رسولنا عليه الصلاة والسلام ، فعند عرض إحدى القضايا ، عمدت الى عرض الآراء المتصارعة حولها ، مع ابراز المنظور الاسلامي الفيصل والحاسم فيها ، هذا مع تحليل وتشريح وجهات النظر الغربية الزائفة وبيان اصولها في الحضارة اليونانية الوثنية (من المنظور الاسلامي) القديمة والنظم والثقافة التي سادت العصور الوسطى ، والتي ظلت آثارها حية في وجدان علماء الغرب المعاصرين .

وقد بدأت الفصل الأول بدراسة عن علم النفس العام ـ موضوعه وأهدافه وفروعه وعلاقته بالعلوم الاخرى ، وخصصت الفصل الثاني لبيان تاريخ الدراسات النفسية ومناهج البحث في الظواهر السلوكية أما الفصل الثالث فقد

ناقشت فيه أهم النظريات النفسية لدى مدارس الغرب ، تلك التي لنا عليها مجموعة من الاعتراضات الدينية على ضوء حقائق الاسلام الاساسية وأباطيل خصومه . وعالجت في الفصل الرابع البناء النفسي للانسان طبقاً لحقائق القرآن الكريم .

وخصصت الفصل الخامس لموضوع دوافع السلوك الانساني مع ابراز التفسير الاسلامي للدوافع . أما الفصول الخمسة التالية من السادس الى العاشر فقد خصصتها لموضوع العمليات العقلية حيث عالجت - بايجاز - موضوعات الانتباه والادراك الحسي والتعلم والتذكر والنسيان والتفكير . وعالجت في الفصل الحادي عشر موضوع الذكاء ومقاييسه ، وعرضت في الفصل الثاني عشر لموضوع الشخصية واساليب الحكم عليها ، اما الفصل الثالث عشر والاخير فقد خصصته لموضوع التنشئة الاجتماعية . وقد حرصت على ابراز المنظور الاسلامي إزاء كل قضية معروضة وقد راعيت عند اعداد مادة هذا الكتاب عدة اعتبارات أساسية أوجزها فيما يلي :

اولاً : توجيه مادة علم النفس بما يخدم الاعداد المهني لطلاب الشريعة الاسلامية ، وذلك بالتركيز على المنظور الاسلامي الصحيح في كل ما يعرض من موضوعات ، مع محاولة مناقشة أهم النظريات الغربية الزائفة وتأصيلها تأصيلا موضوعياً وتاريخياً حتى يكون المعلم والداعية على وعي بجذورها وطبيعتها ، مع وضع التصورات الاسلامية الصحيحة ازاء كل قضية معروضة . هذا الى جانب عرض الموضوعات التي تسهم في زيادة فهم المربي للظواهر السلوكية - مثل دوافع ومحركات السلوك الانساني والعمليات العقلية والذكاء والشخصية . . . الخ .

ثانياً : راعيت ان هذه المادة العلمية تقدم لطلاب غير متخصصين في العلوم الاجتماعية ، يدرسونها لأول مرة ، الامر الذي أوجب التبسيط في غير إخلال بأساسيات المادة .

ثالثاً : السير وفق المنهج الموضوع في لائحة الكلية مع التركيز على بعض الموضوعات التي لا غنى عنها من أجل الاعداد المهني للمربي مثل موضوع التعليم والتنشئة الاجتماعية والبناء النفسي للانسان في القرآن الكريم .

رابعاً : كذلك راعيت ان يكون حجم المادة العلمية المقدمة ملائما لزمن تدريسها اسبوعياً .

هذا وأودّ أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الله ابن عبد العزيز المصلح عميد كلية الشريعة واللغة العربية بأبها لما قدمه من آراء سديدة وملاحظات ذكية وأفكار قيمة تشير الى موسوعية فكره وعمق علمه وحسن خلقه . كما اتقدم بخالص الشكر والتقدير للاساتذة الفضلاء الاجلاء المسئولين عن جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، تلك الجامعة الفتية التي تحمل رسالة الله على الارض ، وذلك لاتاحة الفرصة أمامي لتقديم هذه المادة العلمية الى أبنائي الطلبة علهم يجدون فيها نفعا . كما أتقدم بالشكر الى دارالشروق التي قامت وتقوم بدور هام وأساسي في نشر الثقافة الاصيلة الخالية من الزيف والانحراف في كل أرجاء العالم العربي هذا وبالله التوفيق ـ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك انت الوهاب .

المؤلف

١/ ١٢/ ١٣٩٩

الفصل الأول

عِلمُ النَّفسِ العَامّ

موضوعه وأهدافه وفروعه وعلاقته بالعلوم الأخرى

١ ـ موضوع الدراسة في علم النفس
٢ ـ أهداف علم النفس
٣ ـ فروع علم النفس
أ ـ الفروع النظرية
ب ـ الفروع التطبيقية
٤ ـ العلاقة بين علم النفس والعلوم الأخرى

موضوع الدراسة في علم النفس وتصنيف العلوم

يدرك المتتبع لتاريخ العلوم والفنون أنها اخذت تنفصل تدريجياً عن الفلسفة بظهور موضوعات محددة لكل علم وبروز منهج محدد يتم من خلاله دراسة هذه الموضوعات . فلكل علم ـ من العلوم التجريبية التي تعتمد على اجراء التجارب من اجل الوصول الى القوانين العلمية التي تحكم الظواهر التي تدرسها ـ موضوع محدد هو الذي يميزه عن بقية العلوم الاخرى ، اما عن المنهج في العلوم التجريبية فهو واحد أو مشترك ، ذلك لانه يعتمد على طرح فروض او قضايا تفسر الظواهر وتحقق هذه الفروض ـ أي تختبر مدى صدقها او كذبها ـ من خلال عدة عمليات منهجية كالملاحظة والتجربة والتعميم والمقارنة وتختلف العلوم من حيث اساليب تحقيق هذه الفروض ويمكن تصنيف العلوم الى قسمين اساسيين هما :

اولاً : العلوم التي تعتمد في تحقيق قضاياها على الرجوع للاصول والوثائق والنصوص مثل العلوم الشرعية والتاريخية ، وهنا يكون معيار الصواب والخطأ ، أو ما هو مقبول وما هو مرفوض ، الرجوع للنصوص ، مثلما نحكم على امر ما بأنه متفق أو متعارض مع الدين بالرجوع الى الاصول الاسلامية المعتمدة متمثلة في كتاب الله الكريم وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

ثانياً : العلوم التي تعتمد في تحقيق قضاياها على الرجوع للواقع بملاحظة الظواهر المراد دراستها او اجراء تجارب في ظروف ضبط تجريبي محددة واللجوء الى المقارنة والخروج بالتعميمات . . . وهنا يكون معيار الصواب والخطأ مدى اتفاق القضايا المطروحة مع الواقع .

ويمكن القول انه يجب ـ اسلاميا ـ الا تتعارض نتائج الدراسات التجريبية مع النصوص الدينية في الكتاب والسنة ، لان هذه النصوص الاخيرة صادقة صدقاً مطلقاً ، في حين ان صدق النظريات العلمية صدق نسبي متغير . فإذا

حدث تعارض بين نتائج الدراسات التجريبية والنصوص الدينية حكمنا فوراً بكذب النتائج التجريبية ، وهذا حدث عدة مرات في تاريخ العلوم ، واثبتت الدراسات التجريبية التالية زيف النتائج التجريبية السابقة ، ويجب أن يكون النص الديني حجة على نتائج الدراسات التجريبية وليس العكس .

والواقع ان علم النفس الحديث يجمع بين هذين النوعين من العلوم فالكتاب والسنة يكشفان لنا عن طبيعة الانسان ووظائفه واعماق نفسه ودوافعه وحاجاته وكيفية تحقيقها « الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » فهناك نصوص ثابتة في هذا الصدد . والى جانب هذا فان علماء اليوم يحاولون استخدام اساسيات النهج التجريبي للكشف عن بعض الظواهر السلوكية مما سيأتي بيانه .

واذا ما تساءلنا عن موضوعات الدراسة في علم النفس فسوف نواجه بعده اجابات مطروحة :

- منها : أنه العلم الذي يدرس أوجه التفاعل بين الانسان وبين بيئته الاجتماعية .

- وانه العلم الذي يدرس كافة ألوان نشاط الانسان وسلوكه وما يصدر عنه من افكار ومشاعر واحساسات وميول ورغبات وذكريات وانفعالات . . . الخ .

ولا يهمنا ان ندخل في تفاصيل هذه الاختلافات ونستطيع ان نوجز اهم مباحث علم النفس وموضوعات الدراسة فيه فيما يلي :

اولاً : كل ما يفعله الانسان ويقوله اي كل ما يصدر عنه من سلوك حركي او لفظي كالمشي والجري والاكل والكلام والاعتداء والهرب . . .

ثانياً : كل ما يصدر عن الانسان من نشاط عقلي كالادراك والتذكر والتخيل والتفكير والتعلم والابتكار . .

ثالثاً : كل ما يشعر به الانسان من وجدانات وعواطف وانفعالات كالحب والكره والخوف والضيق . . . الخ .

ويمكن القول ببساطة انه علم النفس يحاول ان يصف ويفسر ما يصدر عن الانسان من سلوك وتتعدد جوانب السلوك فهناك :

أ) **السلوك الظاهر** كالاكل والشرب والمشي وإلقاء محاضرة وقيادة سيارة . . . الخ .

ب) **السلوك الباطن**: كالتفكير والتخيل والتذكر ، فهو سلوك لا يمكن ان ألاحظه مباشرة . ويمكن لهذا السلوك الباطن ان يكون عقليا كالتفكير او وجدانيا كالانفعالات والعواطف . . . الخ .

جـ ـ **السلوك الفطري** :الذي يولد الانسان مزوداً به كتناول الطعام والشراب والأمومة والقتال . . . الخ .

د ـ **السلوك المكتسب**: الذي يتعلمه الانسان من واقعه الاجتماعي الذي يعايشه ويعيش فيه كالتعلم وقيادة سيارة وتكوين اسرة وتحية الآخرين . . . الخ .

هـ ـ **السلوك السوي**: الذي يتفق مع الشريعة الاسلامية داخل المجتمعات الاسلامية ، والذي يتفق مع عادات المجتمع وتقاليده في المجتمعات المختلفة . وهنا يجب التنبيه ان معيار السواء والانحراف تختلف باختلاف المنظورات المختلفة . فمن المنظور الاحصائي يعدسوياً كل ما يتفق مع تقاليد المجتمع أو يتفق مع غالبية سلوك اعضاء المجتمع ، اما من المنظور الاسلامي فان السوي هو فقط ما يتفق مع الشريعة الغراء بقواعدها . وأصولها المستمدة من الكتاب والسنة .

د ـ **السلوك المنحرف** : من المنظور الاحصائي والاسلامي :

ويمكن القول بأن علم النفس شأنه شأن كل العلوم الطبيعية والاجتماعية يحاول ان يصف الظواهر التي يدرسها (وهي الظواهر السلوكية) ويحاول أن يفسر حدوثها في ضوء مبادىء وقوانين عامة فكما وصل علم الطبيعة الى قانون بويل الذي يبين العلاقة بين حجم الغاز وضغطه اذا ظلت درجة الحرارة ثابتة ، وكما توصل علم الاقتصاد الى العلاقة بين العرض والطلب ، فان علم النفس يحاول ان يصل الى قوانين تفسر لنا ظواهر التفكير والتذكر والتخيل والتعلم والانفعال . . . الخ . ويحاول علم النفس ان يصف لنا مختلف ضروب السلوك الانساني ـ السلوك اللفظي والسلوك المكتسب ، والسلوك الذكي والغبي ، السلوك السوي والمنحرف ، السلوك الاسلامي والمنافي للاسلام . . . الخ . مع بيان الشروط والعوامل التي لا يتم هذا السلوك بدونها ، اي عما يقوم وراء هذا

السلوك من استعدادات ودوافع وضغوط وميول . . . الخ .

ويحاول علم النفس طرح مجموعة من التساؤلات بقصد الاجابة عليها شأنه شأن كل علم ، من بينها كيف تحدث عملية التعلم ؟ ولماذا نتعلم ؟ وما هي العوامل التي تسهل التعلم او تعطله ؟ ولماذا يكون التعلم في الصغر اثبت منه في الكبر واسهل ؟ وكيف نفكر ؟ وما هو التفكير ؟ وهل يتوقف التفكير على مناطق خاصة في المخ ؟ وما هو تأثير الانفعالات على التفكير ؟ وهل تقوم الحيوانات بعملية التفكير ؟ . . . الخ . ثم كيف تتم عملية التذكر ؟ وما هي العوامل التي تسهل التذكر ؟ ولماذا ننسى بعض الاشياء دون غيرها ؟ وهل يمكن تقوية الذاكرة ؟ وكيف نسمع ونبصر وندرك العالم الخارجي ؟ وما المقصود بالانتباه ؟ وما هي العوامل الجسيمة والتعيسة والخارجية التي تسهم في تشتيت الانتباه ؟ ولماذا ننفعل ؟ وماذا يحدث اثناء الانفعالات ؟ وما هي اثر الانفعالات على التفكير ؟ وما هي الصلة بين الانفعالات والامراض الجسمية والعقلية وكيف نفسر الجريمة والسلوك الاجرامي ؟ . . . . الخ .

ويحاول علم النفس الاجابة على الاسئلة الثلاثة الآتية :

١ - ما هي ألوان النشاط الانساني الظاهرة والباطنة ؟

٢ - كيف يحدث هذا النشاط ويتم ؟

٣ - لماذا يحدث ؟

فالانسان منذ الميلاد حتى الوفاة وهو في تفاعل دائم مع بيئته الاجتماعية كالاسرة والمدرسة والحي والعمل والجيران والمجتمع والقوانين . . . الخ . والانسان ليس حماراً لكنه يستجيب للمثيرات من حوله (- اوامر ونواه وقوانين وضوابط وتقاليد . . . الخ) بشكل متكامل . فالتلميذ في الفصل يستجيب للموقف الدراسي والعامل في المصنع يستجيب للموقف الصناعي والابن في البيت يستجيب للموقف الاسري بشكل معين والاستجابات متعددة فهناك :

أ) الحركة كتحريك ذراع او انقباض حدقة العين او الهروب من موقف خطر . . . الخ .

ب) الفسيولوجية كارتفاع ضغط الدم او افراز غدة

جـ) اللفظية كالرد على سؤال

د) العقلية كالتفكير والتذكر

هـ) الانفعالية كالغضب والفرح . . .

وقد تشمل الاستجابة هذه الجوانب كلها . وعلم النفس هو العلم الـذي يدرس السلوك الانساني المتكامل في محاولته التكيف مع بيئته الاجتماعية .

اهداف علم النفس :

يستهدف علم النفس ـ شأنه في ذلك شأن كافة العلوم التجريبية الاخرى ـ

اولاً : فهم الظاهرة التي يدرسها وهي السلوك وتفسيرها تفسيراً موضوعيا . وهذا هو الهدف النظري او العلمي لعلم النفس ، فهو يعيننا على فهم أنفسنـا وفهم من نعاشرهم ونتعامـل معهـم ، وذلك من خلال الوقـوف على الدوافـع الحقيقية ـ لا الزائفة او المتوهمة ـ التي تحركنا وتحرك غيرنا من النـاس ، وفهـم جوانب القوة والضعف في شخصياتنا وما لدينا من امكانيات ، ومعرفة اسباب ما يبدو في سلوكنا او سلوك زملائنا او اطفالنا من انحراف وزيغ ـ هذا الى جانب الكشف عن العوامل التي تفسد تفكيرنا أو تعطل عملية التعلم وتسبب تشتـت الانتباه ، وتجعلنا ننسى ما نحصله من معلومات .

ثانياً : التنبؤ بما سيكون عليه السلوك . ففهم الظاهـرة ومعرفـة أسبابهـا وخصائصها يعين على التنبؤ بحدوثها وعلى ضبطها والتحكم فيها وهذان هدفان عمليان من اهداف العلم . فإذا عرفنا اسباب الفيضان مثلاً تسنـى لنـا التنبـؤ بحدوثه ونعد العـدة لاتقـاء مخاطـره ونفس الشيء بالنسبـة للـزلازل والبـراكين والامطار . . . الخ .

كذلك الامر في علم النفس ، فاذا ادركنا علاقة التربية الفاسدة خاصة في مرحلة الطفولة المبكرة والمتأخرة على الاصابة بالامراض النفسية ، استطعنا التنبؤ بمصير طفل لاقى هذا النوع من التربية ، وان نبتعد عنها في تعاملنا مع اطفالنا . واذا عرفنا استعداد فرد لمهنة معينة ، او استعداد طالب لنوع معين من الدراسة تسنى لنا ان نجنبه الفشل المهني او التربوي . واذا عرفنا الدوافع التي تحركنا ازاء

اصدقائنا وزملائنا وأولادنا استطعنا ان نتحكم في سلوكنا وان نحوره ان كان غير رضٍ .

ثالثاً : وقد تبين لنا ان التنبؤ بالسلوك يسهم في امكانية الضغط والتحكم وهذا هو الهدف التطبيقي النهائي للعلم وقد مضى عهد العلم للعلم ونحن نستفيد من شر علم لا ينفع والتنبؤ بالسلوك هو اساس التحكم ، واذا كان التنبؤ أمراً صعباً في مجال العلوم الطبيعية ، فانه صعباً للغاية في مجال السلوك الانساني نتيجة لتعدد العوامل وتشابك الدوافع التي تسيره وتوجهه الينا .

كانت تنبؤات عالم النفس في مجال السلوك مماثلة لتنبؤات عالم الارصاد الجوية ، عرضة لقدر من الخطأ يفوق ما يحدث في العلوم المضبوطة غير ان هذا لا يذهب بفائدتها ، ذلك أن استشفاف العواقب خير من التخبط على اي حال . ولا يمكن القول اننا يمكن ان نستغني عن التنبؤ في عالم الطقس لانه كثيراً ما يخطىء . ويجب ان ندرك ان التنبؤ في العالم البشري كثيراً ما يفوق التنبؤ في العالم المادي دقة . فكثيرا ما نسمع ان شخصا ما تأخر عن عمله لخلل طارىء في سيارة او طيارة ، ولكنه يندر أن نسمع ان احدا تأخر عن عمله لانه توقف اثناء قيادة السيارة للعمل ليحلق ذقنه ، او يشتري حلوى لاولاده .

ويستهدف العلم الحديث ـ بكافة فروعه السيطرة على قوى الكون ـ بأمر الله الذي سخر لنا الكون ومنحنا نعمة العقل ـ وذلك من خلال تطبيق المنهج العلمي المنظم للكشف عن خصائص الاشياء والافراد والجماعات . ولو بذل الانسان ربع الجهد الذي بذله للسيطرة على الكون للسيطرة على نفسه لتجنب العالم الكثير من ألوان الفشل والمرض والجريمة التي نعانيها اليوم .

فروع علم النفس :

تعددت فروع علم النفس واقسامه مع ازدياد التخصص الدقيق وظهور اهمية فهم الظواهر النفسية لتسيير الاعمال في كافة الميادين التربوية والصناعية والتجارية والدعوة والارشاد والعلاج والحرب . . . . الخ . وهناك قسمين أساسيين لعلم النفس هما القسم النظري والقسم التطبيقي . ويتشعب القسم الاول ـ الذي يستهدف الفهم والتوصل الى القوانين التي تحكم الظواهر ـ الى عدة فروع ، كما ينقسم القسم التالي الى عدة فروع .

اولاً – أهم فروع القسم النظري :

١ – علم النفس العام : ويركز على دراسة جوانب النشاط والعمليات النفسية العامة التي يشترك فيها كل الناس بغض النظر عن اختلافات الجنس واللون والحضارة كالدوافع والتفكير والنسيان والانفعال . ويعد هذا الفرع الفرشة الاساسية لكل فروع علم النفس الاخرى .

٢ – علم النفس الفارق : ويركز على دراسة ما بين الافراد أو الجماعات أو السلالات من فوارق في القوى النفسية كالذكاء أو في الشخصية والاستعدادات والقدرات الخاصة ، ويحاول تفسير سبب هذه الفروق استناداً الى ما يكشف عنه علم النفس العام من حقائق . وهذا يعني أن علم النفس العام يكشف لنا عن أوجه الاتفاق بين البشر بينما يبين لنا علم النفس الفارق عن أوجه الخلاف بين الأفراد والجماعات الانسانية وسببه .

٣ – علم النفس الارتقائي : ويركز على دراسة مراحل النمو المختلفة التي يمر بها الفرد في حياته ، وخصائص كل مرحلة جسمياً وعقلياً وانفعالياً . . . الخ . ويتشعب الى عدة فروع جزئية مثل علم نفس الطفل والجوانب النفسية للمراهقة وعلم نفس مرحلة الرشد وسيكولوجية الشيخوخة .

٤ – علم النفس الاجتماعي : ويتداخل هذا الفرع كثيراً مع علم الاجتماع وعلم الانسان الاجتماعي (الانثروبولوجيا الاجتماعية) . ويركز على دراسة الخصائص النفسية للجماعات والصور المختلفة للتفاعل الاجتماعي اي المواقف الجماعية وما يمارسه الافراد من تأثيرات متبادلة مثل العلاقة بين الآباء والابناء ، والتلاميذ والاساتذة ، وبين العمال واصحاب الاعمال . وقد كشف علم الاجتماع والنفس الاجتماعي عن الكثير من الحقائق في مجال القيم والاتجاهات والتعصب والحرب والتفاعل والعواطف والشخصيات القومية . . . الخ .

٥ – علم نفس الشواذ : وقد سبق أن أشرنا الى أن علم النفس لا يقتصر على دراسة السلوك السوي ولكنه يدرس كذلك السلوك المنحرف كالجريمة وانحراف الاحداث والضعف العقلي . . . الخ . حيث تحاول وصف هذه الجوانب السلوكية وتفسيرها وبيان انجع الاساليب في علاجها .

٦ – علم نفس الحيوان : ولا تقتصر الدراسة في علم النفس على الجوانب

النفسية للانسان ولكن تتعداها لدراسة الحيوانات ، حيث يبحث في صور التفكير الحيواني واساليب ادراكها للعالم الخارجي ، والذاكرة الحيوانية والدوافع لديها . وقد ألقت هذه الدراسات الضوء على الكثير من الموضوعات العامة التي نحتاج اليها في مجال البشر كالتعلم والذكاء . . . الخ .

٧ ـ علم النفس المقارن : وهو فرع يركز على المقارنة بين سلوك الحيوان وسلوك الانسان ، وسلوك الطفل والراشد ، وسلوك الانسان البدائي والمتحضر ، والسلوك السوي والمنحرف . . . الخ .

ثانياً ـ أهم فروع القسم التطبيقي لعلم النفس :

وتستهدف هذه الفروع الاستفادة من المعلومات والحقائق التي يتوصل اليها علم النفس النظري في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية وأهمها :

١ ـ علم النفس التربوي : ويحاول توجيه المواقف التعليمية والتربوية لتحقيق الأهداف الموضوعة بأكبر قدر من الكفاءة واستناداً الى قوانين علم النفس وحقائقه . ويحاول حل مشكلات عملية مثل احسن الطرق لتدريس الحساب أو اللغة العربية أو اللغات الاجنبية وكيفية علاج التخلف الدراسي وأحسن طرق التعليم . . . الخ .

٢ ـ علم النفس الصناعي : وهو فرع يحاول الاستفادة من كشوف علم النفس داخل الوحدات الصناعية بهدف رفع الكفاية الانتاجية للعاملين ورفع معنوياتهم ، مع الحفاظ على كرامة العامل وراحته وتهيئة احسن الظروف للانتاج ، سواء في مجال البيئة المادية أو في مجال الاشراف والادارة . ويدرس هذا الجانب من علم النفس موضوعات كالهندسة البشرية والتعب الصناعي والتوجيه المهني والامن الصناعي والصراع الصناعي . . . الخ .

٣ ـ علم نفس الدعوة : ويحاول دراسة الاتجاهات النفسية للجماعات المطلوب الدعوة داخلها وأساليب تغيير هذه الاتجاهات إن كانت فاسدة وأساليب توصيل المعلومات اليها ، وكيفية تكوين الداعية الناجح . وهذا الفرع بالاضافة الى علم النفس التربوي يفيد كثيراً في مجال الدعوة الاسلامية داخل البلاد الاسلامية وعلى مستوى العالم اللا إسلامي كله .

٤ ـ علم النفس التجاري : ويركز على دراسة حاجات المستهلكين

والدوافع التي تدفعهم للشراء وطبيعة الأذواق والقوى المؤثرة فيها كالاعلانات والدعاية ، وسيكولوجية البيع وتدريب البائع الناجح . وكيفية الاعلان ومواصفات الاعلان الجيد . . . الخ .

٥ ــ علم النفس الجنائي : يركز هذا الفرع على دراسة الجريمة والمجرمين من حيث العوامل والنتائج وطرق العلاج ورسم سياسة للدفاع الاجتماعي ضد الجناح والجريمة . . ويرتبط هذا الفرع ارتباطاً وثيقاً بعلم نفس الشواذ .

٦ ــ علم النفس القضائي : يرتبط هذا الفرع بعلم نفس الشواذ وعلم النفس الجنائي ويبحث في الدوافع النفسية والاتجاهات والعوامل المختلفة التي تعتور داخل الممارسين للدعوة القضائية داخل المحاكم كالقاضي والمحامي والمتهم والشاكي والمبلغ ووكيل النيابة . . . الخ .

٧ ــ علم النفس الحربي : يفيد علم النفس في الحياة العسكرية في امور كثيرة منها معرفة -شخصيه العدو - ما يحب وما يكره وعاداتهم وطباعهم . . . ويفيد في توزيع االجنود على مختلف تخصصات الجيش وفقا لميولهم وقدراتهم ، كما يفيد في رفع الروح المعنوية للجنود ومقاومة الحرب النفسية . . . الخ .

٨ ــ علم النفس العيادي : (الاكلنيكي) وهو يستخدم في جوانب العلاج النفسي من حيث محاولة تشخيص جوانب الاضطرابات والامراض النفسية كالتخلف الدراسي وحالات القلق والاكتئاب والمخاوف الشاذة والشعور بالذنب والشعور المستمر بالنقص وامراض النطق . . . ومحاولة علاج هذه الاضطرابات باستخدام الاقيسة النفسية .

علاقة علم النفس بالعلوم الاخرى :

يرتبط علم النفس ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية . فالحياة النفسية للانسان - تفكيره ونطقه وذاكرته وخيالاته ودوافعه . . . ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة التكوين الجسمي والقوى الحيوية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الانسان حيث صور سبحانه وتعالى الانسان فأحسن تصويره . فهذه الجوانب النفسية التي ذكرتها ترتبط بذلك الجهاز العميق الدقيق المعجز في الانسان الذي يطلق عليه الجهاز العصبي (المخ والمخيخ والنخاع المستطيل والنخاع الشوكي) كما يتصل بالغدد الصم (التي تفرز الهرمونات في الدم مباشرة

وهي مادة شديدة الحساسية ذات اثر حاسم على الذكاء ومختلف العمليات الحيوية في الجسم) كما يتصل بالحواس (الادراك) ومراكز الادراك بالمخ . . . الـخ . ومن هنا تتضح الصلة الوثيقة بين علم النفس وعلوم الاحياء ووظائف الاعضاء . فسلوكنا يتوقف الى حد كبير على تكويننا البيولوجي (ما اودعه الله داخل الانسان من قوى حيوية) الجسمي والعصبي والغـدي وعلى ما ورثنـاه من استعـدادات فطرية فمن الثابت مثلا ان هناك صلة بين الذكاء والمواهب والقدرات الخاصـة وبين الجهاز العصبي كذلك فان افرازات الغدد الصم (الهرمونات) ذات تأثير عميق على شخصية الانسان (جسمه وانفعالاته وذكائه وصحتـه النفسية و . . الخ) . يضاف الى هذا ان علم النفس يدرس جوانب التـكيف بـين الانسـان وبيئته الاجتماعية والطبيعية ، ذلك ان هناك الكثير من البصمات التي تتركها البيئة الطبيعية على الانسان من حرارة وبرودة ورطوبة وارتفاع وانخفاض عن سطح البحر . . . الخ . ومن هنا تأتي الصلة بين علم النفس والعلوم الطبيعية .

أما عن الصلـة بـين علـم النفس والعلـوم الاجتماعية فوثيقـة وواضحـة ، فالانسان يعيش داخل مجتمعات وجماعات ويتأثر بشكل واضح بالبيئة الاجتماعية حيث يكتسب منها لغته وعاداته وتقاليده ، هذا بالاضافة الى ان هذه البيئة هي المسؤولة عن دعم وتأكيد الميل الفطري للتوحيد والاسلام ، او تشويهه وطمسـه وتمارس الثقافة اثر عميق على شخصية الانسان وتفكيره وسلوكه . فلو أننا نشأنا في مجتمعات وثقافات مختلفة مثل شمال اوربا مثلا لكنا نلبس ثياباً غير ثيابنا التي نلبسها ، ونأكل طعاماً مختلفاً ونسكن في مساكن مختلفة ، ولكانـت لنـا عادات وتقاليد ومعتقدات غير التي لنا الآن . وتمارس الثقافة أثراً كبيراً على اسلـوب التعبير عن انفعالاتنا ، وفي معايرنا للخير والشر ، المبـاح والمحظـور ، العـدل والظلم ، ففي الكثير من المجتمعات يعبر عن الغضب بكسر شجـرة او بعمـل وليمة ، فيما يعبر عنها في مجتمعات اخرى بالعنف الجسمي . ومن الواضـح ان الثقافة (كل ما يكتسبه الانسان من مجتمعه) لها اثر واضح على المعلومات التي يكتسبها الانسان ومهاراته واذواقه وعواطفه . ولا شك ان الظروف الاقتصادية والسياسية تمارس تأثيرات غير منكورة على شخصية الانسان ، ومـن هنـا تأتـي الصلة بين علم النفس وكافة العلوم الاجتماعية مثـل علـوم الاجتماع والاقتصـاد والسياسة والجغرافيا البشرية .

ويرتبط علم النفس ارتباطاً واضحاً بالعلوم الشرعية ، فقد قدم لنا القـرآن

الكريم والسنة النبوية المطهرة تشريحاً معجزاً لبعض جوانب النفس الانسانية ، الأمر الذي يستحق أن تقرر له دراسات مستقلة وقد سبق أن أوضحنا أنه إذا ما تعارضتنا نتائج التجارب مع بعض النصوص الدينية ، كذبنا نتائج التجارب نظراً لتغيرها المستمر ونظراً للصدق المطلق للنصوص الدينية -

والواقع ان ما يصدر عن الانسان من حلول لا يمكن تفسيره بشكل موضوعي الا بالرجوع الى مختلف العوامل المتشابكة التي تعد المسؤولة عن ظهوره مثل العوامل العضوية والثقافية والاجتماعية (الاقتصادية والاسرية والدينية والسياسية . . . الخ) . وتساعدنا العلوم البيولوجية - الحيوية - على معرفة العوامل العضوية المشكلة للسلوك ، بينما تساعدنا العلوم الاجتماعية والشرعية على ادراك الجوانب الاجتماعية المشكلة والمسؤولة عن السلوك .

الفصل الثاني

تاريخ علم النفس ومناهج البحث في الظواهر النفسية

١ ـ الدراسات النفسية في العالم القديم

٢ ـ الدراسات النفسية لدى المسلمين

٣ ـ الدراسات النفسية في العصر الحديث :

أ ـ المدرسة الترابطية

ب ـ الانتقال من الدراسة الفلسفية الى التجريبية

٤ ـ مناهج البحث في علم النفس :

أولاً ـ اسلوب التأمل الباطنن

ثانياً ـ الملاحظة الاسقاطية

ثالثاً ـ الملاحظة الموضوعية

رابعاً ـ الملاحظة التتبعية

٥ ـ المنهج التجريبي :

أ ـ خصائص التجربة العلمية

ب ـ أسلوب المجموعات التجريبية والضابطة

٦ ـ القياس النفسي

الدراسات النفسية في العالم القديم :

شغلت قضية النفس والروح الفكر البشري منذ طفولته ، حيث ظهرت عدة معالجات لقضايا النفس والروح قبل ميلاد المسيح بزمن طويل . وكانت هذه المعالجات تقع ضمن اطار الدراسات الفلسفية . وكانت اغلب هذه الدراسات تنصب على الروح . ومن الجدير بالذكر ان علماء النفس المحدثين والمعاصرين ادركوا عدم جدوى البحث في الروح ، حيث لا يمكن فهمها او اخضاعها للدراسات العلمية وصدق الله العظيم اذ يقول ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ وقد اتجهت البحوث الحديثة في علم النفس كما سبق ان أوضحنا الى دراسة السلوك وليس النفس او الروح . . .

وقد خلط فلاسفة الاغريق القدماء خلطاً واضحاً بين مفاهيم الروح والنفس والعقل ، وذهبوا الى أن الروح مادة كالهواء غير انها اكثر المواد رقة وشفافية . وقد بدأ افلاطون البحث الفلسفي الجاد عن النفس (افلاطون فيلسوف اغريقي وثني ولد سنة **٤٢٧** وتوفي سنة **٣٤٧** قبل الميلاد) حيث ذهب الى أن افكار الانسان تؤثر تأثيراً واضحاً في سلوكه ، ولكنه كان يرى أن هذه الافكار توجد في عالم مستقل عن الانسان وهو عالم المثل ، فهل تحل فيه عند الميلاد وتظل ملتصقة به حتى الموت حيث تنفصل لتعود الى عالم المثل وقد خطا ارسطو (فيلسوف اغريقي تتلمذ على افلاطون وهو أيضاً فيلسوف وثني ولد سنة **٣٨٤** وتوفي سنة **٣٢٢** ق . م) خطوة اكثر علمية من مسابقيه حيث ذهب الى أن الروح أو النفس هي مجموع الوظائف الحيوية لدى الكائن الحي أي وظائف الجسم كالنطق والسمع والبصر والتفكير . . . الخ . وهي التي تميز الكائن الحي عن الجمادات ، وبدونها يتحول الكائن الحي الى جثة هامدة . . وهكذا تخلص ارسطو من فكرة الثنائية بين العالم الواقعي والعالم المثالي فاذا اردنا ان نفسر سلوك الكائن الحي لا يجب الرجوع الى

عالم المثل الافلاطوني ويكفي الرجوع الى وظائف الجسم الحيوية وهي النفس حسب تصور ارسطو . كذلك كان ارسطو اول مفكر يحاول فهم الاساليب التي يفكر بها الانسان واكتشاف القوانين التي تحكم الفكر الانساني . وقد توصل بالفعل الى قانون تداعي المعاني . ويقوم هذا القانون على ان الافكار تتداعى في الذهن بحكم عدة امور كالقرب المكاني او الزماني او التماثل . . . الخ . وهذا هو ما جعل البعض يعتبرون أن أرسطو هو مؤسس علم النفس ، على الرغم من أن علماء المسلمين ـ الذين سوف نذكر بعضهم ـ هم بحق اول من اسس هذا العلم بشكله التجريبي المعاصر .

وقد اقتصرت كل افكار ارسطو على مجرد تأملات مكتبية لم يتجاوزها الى اجراء التجارب والحق ان المنهج الاغريقي في الفكر قام بأكمله على الاستنباط او المنهج الرياضي ولم يعرفوا المنهج الاستقرائي التجريبي . وكان المسلمون هم أول من توصلوا الى المنهج الاستقرائي التجريبي ، وليس بيكون كما يزعم علماء الغرب .

وظل علماء العصور الوسطى المسيحية ـ الذين انتقلت اليهم التصورات الاغريقية ـ يناقشون قضايا النفس والروح بشكل فلسفي عقيم ، فكانوا يحاولون بحث الادلة على وجود روح مستقلة عن الجسد ، وخلود الروح ، ومصيرها . . . الخ . حتى اعياهم البحث . وانقسموا الى قسمين الاول يبحث الظواهر الروحانية وهم علماء الدين (اللاهوت المسيحي) والقسم الثاني يبحث في الظواهر العقلية وهم الفلاسفة . وبهذا حدث انفصال بين دراسة النفس وعلم الإلهيات ، وكانت المشكلة الكبرى المطروحة على ساحة الفكر في العصور الوسطى هي مشكلة العلاقة بين الجسم والعقل أو النفس .

الدراسات النفسية لدى المسلمين :

يتضمن التراث الاسلامي في مجال الدراسات النفسية دوراً لم يكشف عن الكثير منها حتى الآن ، وما ظهر منها ينطوي على قيمة كبرى من الناحية العلمية . وقد اثرت دراسات ابن سينا والغزالي والفارابي وغيرهم تأثيراً كبيراً على علماء الغرب . ولابن سينا قصيدة طويلة في النفس وارتباطها بالبدن ودراسات كثيرة في هذا الميدان مما كان له تأثير كبير على دراسات فلاسفة الغرب وفي مقدمتهم

ديكارت . وكان لابن سينا دراسات هامة في مجال الادراك الحسي والعلاج النفسي والتخيل والانفعالات . . . الخ . وهي دراسات ترجمت الى اللغة اللاتينية واللغات الاوربية الحديثة وقد اهتم ابن سينا بالنفس منذ شبابه ايماناً منه انه من عرف نفسه فقد عرف ربه وألف كتابا اسماه « رسالة في النفس » ـ وقد عالج ابن سينا ما نطلق عليه اليوم ـ الادراك الحسي ، ووضح لنا كيف يستطيع العقل ادراك الكليات ، وبين ان الادراك مراتب ، ادناها الادراك الحسي وهو انتقال صورة الشيء الخارجي الى الذهن ، ولكن الشيء الخارجي مركب من مادة وصورة ، وما ينتقل الى الذهن هو الصورة دون المادة . ويلعب الخيال عند ابن سينا دوراً هاماً في عملية الادراك الحسي حيث انه هو الذي يفصل الصورة عن المادة وعن طريقه يمكن الوصول الى الكليات ، اي اننا نستعين بالخيال للارتفاع من الجزئيات المدركة الى الكليات المتعقلة .

ولم يقتصر ابن سينا على معالجة الادراك الحسي والتخيل ، ولكنه عالج موضوعاً هاماً من موضوعات علم النفس الحديث وهو الانفعالات مثل الضحك والتعجب والبكاء والخجل واسماها الاحوال النفسية وهي خصائص للنفس دون البدن . وقد عالج ابن سينا موضوعاً من احدث موضوعات علم النفس وهو موضوع الامراض النفسية الجسمية او النفسجسمية (السيكوسوماتيك) اي الامراض الجسمية التي ترجع اسبابها الى اصول نفسية ، وورد في كتابه « القانون » العوامل التي تشفي المريض بالعشق ، وذكر فيه تجارب كثيرة قام بها لعلاج بعض المصابين بالامراض النفسية .

ويذكر الطبيب «ابن العباس المجوسي» (المتوفى سنة **٣٨٤** هـ) في كتاب له بعنوان «كامل الصناعة الطبية» بعض النصائح التي تقي الانسان شر الامراض النفسية والجسمية على السواء منها بعد الانسان عن الغم ولا يستعمل الغضب ولا يكثر من الهم والفكر ولا يستعمل الحسد ، فإن ذلك كله مما يغير مزاج البدن ويعينه على انهاكه وضعف الحرارة الغريزية . ومن كان مزاجه حاداً فان هذه الاعراض تولد الحميات الرديئة بمنزلة حمى الدق وقرحة السل ، وما يجري هذا المجرى . ولذلك قد ينبغي أن يتجنب الانسان الاعراض النفسانية كلها ، وان يلهم نفسه الفرح والسرور ، فانه يقوي الحرارة الغريزية ويحركها الى ظاهر البدن ويزيد من النشاط ويقوي النفس .

وقد عالج ابو نصر الفارابي في دراسته « آراء اهل المدينة الفاضلة » السمات النفسية والاجتماعية التي يجب ان تتوافر للقائد أو رئيس المدينة ، كما عالج احد الموضوعات الهامة في علم النفس الاجتماعي وهو موضوع الاسس النفسية لتماسك الجماعة .

ويمكن القول أن الصورة الواضحة لعلم النفس الاسلامي نجدها بشكل جلي في دراسات الامام الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) فقد تناول في كتابه ـ احياء علوم الدين ـ موضوع السلوك وضروبه المختلفة ، وتحدث عن كل ضرب موضحاً دوافعه ، ثم أوضح كيف نسمو بالسلوك في ضوء نور اليقين ومعرفة الله سبحانه وتعالى وهو لا ينظر الى السلوك الانساني على أنه سلوك آلي ، ولكنه سلوك حيوي غرضي اي يستهدف تحقيق غاية معينة ، وهو يميز بين ثلاث أنواع من السلوك أو الفعل ، السلوك الطبيعي ، والسلوك الضروري ، والسلوك العقلي ـ الارادي . ويتضح الفرق بين النوعين الاخيرين فيما يلي « إن الافعال الاضطرارية تصدر عن الانسان دون سابق إرادة أو علم ودون قدرة على ردها ، أما الافعال الاختيارية فانها تصدر بعد سابق معرفة واختيار » . ويحدد الغزالي ثلاثة شروط للسلوك العقلي الاختياري وهي ـ أ ـ القدرة ـ ب ـ الارادة ـ جـ ـ العلم. وقد تناول الغزالي الكثير من موضوعات علم النفس الحديث مثل الدوافع الفطرية والمكتسبة ، والعادات وأساليب تكوينها وأنواعها والانفعالات وآثارها والادراك الحسي والتخيل والذاكرة . . . الخ .

ويعرف الغزالي انفعال الخوف بأنه تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل ، وهو يقسم الخوف الى ثلاثة اقسام هي : أ ـ العلم ـ ب ـ الحال ـ جـ ـ العمل . والعلم هو العلم بالسبب المفضي الى المكروه فهو سبب لشدة الخوف وشدة تألم القلب . فالعلم بأسباب الخوف هو في الواقع السبب الباعث المثير لاحتراق القلب وتألمه وتحدث عن آثار الخوف (وهو نموذج للانفعال) على البدن والجوارح فهو يصيب البدن بالنحول والاصفرار والغشية والبكاء ، وقد يفضي الى الموت او يسبب اليأس والقنوط . أما بالنسبة للجوارح فانه يكفها عن المعاصي ندماً على ما فات وتطلعاً للمستقبل الذي هو بيد الله . وقد تحدث عن درجات الخوف واقسامه . وانتقل الى بيان فضيلة الخوف ، فهو النار المحرقة للشهوات والتي تكف الانسان عن فعل المعاصي . وعالج الغزالي موضوع

الغضب بعمق وتفهم بالغين هكذا يتضح أن علماء المسلمين عالجوا بدقة وبعمق بالغين العديد من الموضوعات التي تحتل أهمية كبيرة في علم النفس المعاصر .

الدراسات النفسية في العصر الحديث (منذ عصر النهضة الاوربية) :

بدأ الاوربيون ـ تحت تأثير الفكر الاسلامي الذي وصل اليهم من خلال منافذ متعددة ـ الانتقال الى مراحل اكثر تقدمية في معالجة القضايا النفسية ومثال هذا الفيلسوف الفرنسي « رينيه ديكارت » (**١٥٩٦ ـ ١٦٥٠** م) الذي كانت له اسهامات (فلسفية وليست علمية) في مجال الدراسات النفسية حيث يحاول تفسير العلاقة بين النفس والجسم على اساس جديد . فذهب الى انهما مختلفان من حيث الطبيعة الجوهرية . فخاصية الجسم ـ كمادة ـ هي الامتداد اي شغل حيز في الفراغ ، في حين نجد ان الخاصية الاساسية للعقل أو النفس التفكير والشعور . وهناك تفاعل ميكانيكي يحدث بينهما حدد موقعه داخل الغدة الصنوبرية في المخ . وهنا يتضح التصور الميكانيكي للانسان عند ديكارت ، حيث تصوره كآلة معقدة ينشطها الضوء والصوت وغيرهما من المنبهات الحسية ، التي يحمل اثرها شيء دقيق الى الغدة الصنوبرية في المخ اسماها (ارواح الحيوانات) وهذا هو سبب المشاعر والافكار والصور الذهنية عند الانسان . ومن الغدة الصنوبرية ينتقل التأثير الى العضلات في صورة دوافع تؤدي الى حركة الجسم . ويذهب ديكارت الى أن الحيوان لا يحس ولا يشعر ولكنه يستجيب للمنبهات الخارجية بشكل آلي محض ، أما الانسان الذي يتمتع بالعقل ـ الذي يطلق عليه الآلة الانسانية ـ فانه يحس ويشعر وهو يقصد بالشعور كل ما نطلق عليه العمليات الشعورية والعقلية من تفكير وتخيل وتذكر ورغبات وانفعالات وعواطف . . . الخ . فالشعور عند ذلك المفكر هو اهم خاصية العقل . ومنذ هذه الفترة تحول علم النفس عند دارسيه الى علم الشعور .

أ ـ المدرسة الترابطية :

ظهرت هذه المدرسة الفكرية في انجلترا وظلت مؤثرة بشكل واضح حتى اواخر القرن الماضي ومن أهم أتباعها « لوك » و« مل » و« سبنسر » وكان لهذه المدرسة اسهامات واضحة في مجال الدراسات النفسية ، حيث يذهب انصارها الى ان الانسان عند الميلاد يكون عقله مثل الصفحة البيضاء تنقش عليه الخبرات

الحسية ما تشاء . فالاحساسات هي عناصر العقل ووحداته وذراته ، وعـادة ما تكون هذه الاحساسات في البداية غير منظمة وغير مترابطـة ، ثم ما تلبـث ان تنتظم استناداً الى عدة قوانـين منهـا التشابـه والتضامـن والتجـاور في الزمـان والمكان ، فتتكون من هذا الترابط العمليات العقلية بأكملها كالادراك والتصور والتخيل والتفكير والابتكار . والترابط في العالم العقلي عملية تتم بشكل آلي تشبه الجاذبية في العالم المادي حيث تترابط الذرات لتشكل المركبات الكيميائية المختلفة وهنا تكون مهمة علم النفس تحليل المركبات العقلية الشعورية الى عناصرها من احساسات وصور ذهنية ومعان ، ثم تفسير تجمعها وانتظامها في وحدة مركبة عن طريق استخدام اسلوب التأمل الباطن .

ب ـ الانتقال من الدراسة الفلسفية الى الدراسة التجريبية لعلم النفس :

على الرغم من تطور الدراسات النفسية منذ الاغريق حتـى نهـاية القـرن الماضي في أوربا إلا أنها كانت تحمل الطابع الفلسفي التـأملي ، واذا كان علماء المسلمين قد توصلوا الى بداية الدراسة التجريبية في هذا المجال ـ تحت تأثير الدين الاسلامي الحنيف ـ الا ان هذه الدراسات لم تجد من يطورها وينميها الا بظهور الفكر الحديث في نهاية القرن الماضي وبعد نمو وتطور العلوم الطبيعية باستخدام الاسلوب التجريبي الذي يعتمد على طرح الفروض العلمية ومحاولة اختبارها في الواقع عن طريق الملاحظات واجراء التجارب والمقارنـات . وقـد ساهـم هذا المنهج في الكشف عن الكثير من الحقائق المفيدة بالنسبة لعلـم النفس كالـدورة الدموية والجهاز العصبي والغدي ومناطق المخ التـي تهيمـن على الحـركة عنـد الانسان والحيوان ، وسرعة التيار العصبي . ومن اهم مميزات المنهج التجريبي ، حسم الامور بالرجوع الى التجارب التـي يمـكن تكرارهـا في مواقف صنـاعية مضبوطة ، وبهذا تحسم الكثير من الامور المعلقة .

وتحت تأثير تطور العلوم الـطبيعية والمنهـج التجريبـي قام العالـم الالمانـي « فونت » سنة **١٨٧٩** بتأسيس اول معمل لعلم النفس التجريبي بجامعة ليبزج بألمانيا . وتضمن هذا المعمل اجهزة لاجراء تجارب على الحواس المختلفة كالسمع والبصر واللمس ، واجهزة اخرى لتوضيح كيفية التذكر والتفـكير والانتبـاه ، واجهزة لقياس سرعة النبض والتنفس اثناء الانفعال . ويعد هذا التاريخ فاصلاً

بين الاتجاهين الفلسفي والعلمي في مجال دراسة النفس . فقد كان المعتقد حتى ذلك الوقت أن الشعور والعقل لا يمكن قياسهما علمياً ، اما منذ ذلك التاريخ فقد اتجهت الدراسات وجهة تجريبية وتوالى بعد ذلك تأسس المعامل وظهور المقاييس للاحساسات والعمليات العقلية والذكاء والقدرات والاستعدادات والشخصية . . . الخ . وأخذ علم النفس مكانه بين العلوم التجريبية وصار هو العلم المسؤول عن دراسة الظواهر السلوكية دراسة تجريبية بهدف الكشف عن مجموعة القوانين التي تحكم هذه الظواهر .

وهكذا انفصل علم النفس عن دائرة المعارف الفلسفية التأملية ليدخل في دائرة العلوم الموضوعية التجريبية التي تعتمد على الملاحظة المنظمة واجراء التجارب المضبوطة ويمكن ايجاز اهم خصائص علم النفس الحديث فيما يلي :

اولاً : اعتماده على منهج علمي واضح شأنه في ذلك شأن علوم الطبيعة والكيمياء والاحياء . . . الخ .

ثانياً : لم يعد يبحث في النفس من حيث طبيعتها واصلها ومصيرها وخلودها تاركاً هذا الأمر للفلسفة ، واتجه الى بحث السلوك الانساني والحيواني وهو ما يمكن ملاحظته وقياسه واخضاعه للتجارب . فكما ان علم الاحياء لا يبحث في ماهية الحياة بل يدرس تكوين الكائنات الحية ونشاطها ونموها وتطورها ، وكما أن علم الطبيعة لا يدرس ماهية المادة او الطاقة ولكن يركز على دراسة خصائص المارة والطاقة والصوت والضوء والحرارة . . كذلك فإن علم النفس الحديث لا يبحث في النفس بل في السلوك ، على ان تسمية علم النفس الآن اصبحت غير ذات موضوع ويجب أن يتحول الى علم السلوك .

ثالثاً : وانطلاقاً من المنهج الموضوعي التجريبي فان علم النفس لا يبحث في الامور الروحانية الزائفة التي تشغل بها بعض العلوم الزائفة كتحضير الارواح ومخاطبة الموتى ، فهذا هراء يشتغل به ادعياء العلم وليس العلماء .

رابعاً : وعلم النفس لا يدعي - كما يظن البعض - الكشف عن شخصيات الناس وطباعهم واخلاقهم من سمات وجوههم وارتفاع جباههم واطوال ذقونهم وبريق عيونهم ، كما لا يدعى التكهن بالمستقبل - حاشا لله فالمستقبل يعلمه الله وحده - ، وانما يحاول تحليل الشخصية وفهم مكوناتها فهو علم وصفي تقريري يستهدف الاسهام في حل مشكلات عملية كالتعليم والكفاية الانتاجية والدعوة

الى الله على اسس سليمة وعلاج الاضطرابات السلوكية . . . الخ . شأنه في ذلك شأن العلوم الطبيعية والبيولوجية .

مناهج البحث في علم النفس:

يمكن تعريف المنهج بأنه الاساليب المستخدمة للوصول الى الحقائق في مجال معين من مجالات المعرفة ، وتستهدف العلوم ـ طبيعية أو بيولوجية أو اجتماعية ـ الوصول الى المعرفة المنظمة للظواهر التي يتخصص كل علم في دراستها . ويقول آخر فإن الهدف الاول للعلم ـ اي علم ـ هو فهم الظواهر التي يدرسها . واذا ما تساءلنا عن معنى هذا الفهم ، نقول ان فهم الظاهرة يتحقق اذا ما عرفنا القوانين التي تحكمها . وقديماً كان الناس يخافون من البحر والمطر والزلازل والبراكين . . . لانهم لم يكونوا على علم بالقوانين التي تحكم هذه الظواهر . . وبعد ظهور العلوم يمكن القول انها توصلت الى الفهم الموضوعي لهذه الظواهر بمعنى انها اكتشفت القوانين التي تحكمها .

والمنهج العلمي على هذا الاساس هو الطريقة التي يستخدمها الباحث لتحقيق فروض معينة او للاجابة على تساؤلات معينة يطرحها بصدد الموضوعات المتخصص في دراستها . واذا كان الاساس الاول للمنهج العلمي هو الملاحظة العلمية ، لأنه حتى في مجال التجريب فان الباحث يلاحظ نتائج التجارب ، فان الملاحظة العلمية تختلف اختلافاً واضحاً عن الملاحظات غير المنظمة او العابرة التي نمارسها جميعاً في حياتنا اليومية ، ذلك لان الملاحظة العلمية ملاحظة مضبوطة ومنظمة تقوم على اساس التخطيط والوصف الدقيق وتسجيل الظاهرة تسجيلاً منظماً وتستهدف تحقيق هدف واضح او الاجابة على سؤال مسبق او تحقيق غرض معين .

ومن خصائص الملاحظة العلمية انها تتم بشكل موضوعي لا ذاتي اي انها لا تتأثر بذات الشخص الملاحظ من حيث ميوله واهوائه وعواطفه ، كما لا يتأثر بالاقوال الشائعة والسابقة حول موضوع البحث . ومعنى موضوعية الملاحظة انه يمكن للباحثين الآخرين التأكد منها او من صحتها . وهذا يعني ان باحثين آخرين يمكن ان يكرروا الملاحظة ويصلوا الى نفس النتائج .

ولم يستطع علم النفس الوصول الى مرتبة العلم الا بعد ان ترك التأملات

الفلسفية الجوفاء واستخدم المنهج العلمي في دراسة الظواهر السلوكية . مثل هذا القول ينطبق على جميع العلوم . ويمكن القول ان المنهج العلمي واحد في جميع العلوم لانه يعتمد على فرض الفروض وتحقيقها من خلال اجراء الملاحظات المنظمة والتجارب العلمية المضبوطة . وفي هذا الامر يشترك علم النفس مع علوم الطبيعة والكيمياء والاحياء . ولكن طبيعة الموضوع المعالج وخصائصه يفرض على الباحث اساليب معينة للمعالجة قد تختلف من علم الى علم . ومثال هذا علم النفس الذي يعالج امور لا يمكن معالجتها عن طريق الملاحظة المباشرة كالحالات الشعورية الفردية والاستعدادات اللاشعورية ، مثل حالات الضيق والاكتئاب والفرح والحزن . . . . الخ . فهذه الحالات وغيرها تتطلب استخدام منهج معين ، هو منهج الاستبطان او التأمل الباطن .

أولاً : أسلوب التأمل الباطن :

يقوم هذا المنهج على أساس قيام الشخص بملاحظة ما يجري في شعوره من خبرات حسية (رؤية الوان ، سماع اصوات ، حرارة ، برودة . . . الخ) او عقلية (تفكير - تذكر - تخيل - استرجاع - تعرف . . الخ) أو انفعالية (حزن - غضب - فرح - يأس - دهشة . . . الخ) ملاحظة منظمة بهدف وصف هذه الحالات وتحليلها ، سواء اكانت هذه الحالات مباشرة يعيشها الشخص حاليا ، أو ماضية تحت امس او امس الاول أو كانت في شكل احلام نوم أو احلام يقظة .

ونحن جميعاً نمارس عملية الاستبطان في حياتنا اليومية عندما نفضي الى اهلنا واصدقائنا بما نحس به من تعب او قلق او ضيق أو تعب او فرح ، وعندما نخبر الطبيب بما نشعر به من ألم ، او عندما نصف للآخرين ما نراه او نسمعه او نحسه . . . الخ . وهنا يكون الاستبطان عارضا غير مقصود للدراسة او العلم .

ومن امثلة الاستبطان ان نطلب الى شخص ان يصف لنا شعوره وهو داخل للامتحان الشفوي أو التحريري ، أو أن يصف لنا شعوره عندما يواجه مشكلة صعبة ، وكيف يفعل عندما يفكر ، هل يرى صوراً ذهنية لما يفكر فيه ؟ . . . الخ . والاستبطان كمنهج يحتاج الى تدريب خاص من ناحية الحلل حتى يتمكن من الخروج بمعلومات ذات قيمة .

وعلى الرغم من اهمية هذا المنهج وسيادته في الدراسات النفسية مدة طويلة

الا انه يتعرض اليوم لعدة انتقادات كبيرة اهمها ما يلي :

١ ـ ان الحالات الشعورية التي تدرس من خلال الاستبطان حالات ذاتية أو فردية لا يشعر بها الا صاحبها وحده ، الأمر الذي يخرجها عن دائرة البحث العلمي طالما انه لا يمكن التحقق من صحتها . وقد ذهبت احدى مدارس علم النفس المعاصرة ـ وهي المدرسة السلوكية ـ الى انه لا يمكن الاعتماد على هذا المنهج اطلاقاً وانه يجب ان يقتصر علم النفس على السلوك الواضح الصريح . وقد رد انصار الاستبطان على هذا الاعتراض بأن الحالات الشعورية يمكن ان تخضع للدراسة العلمية لانه يمكن عرضها في شكل تقارير لغوية ، الامر الذي يمكننا من دراستها كظاهرة خارجية موضوعية . يضاف الى هذا ان اتفاق التقارير اللفظية لعدد من الافراد يشتركون في السن والجنس والثقافة والخبرة يمكننا من تطبيق الاسلوب الاحصائي عليه واستخراج المتوسط والانحراف المعياري وتمكننا من الخروج بنتائج موضوعية الى حد كبير .

٢ ـ والاعتراض الثاني ان عملية الاستبطان تتطلب من الشخص القيام بدورين متعارضين وهما دور الملاحظ (بفتح الحاء) والملاحظ (بكسر الحاء) اي ان الانسان يلاحظ نفسه . وهما دورين متعارضين لان الانسان عندما يكون منفعلا (فرح او حزن او غضب او دهشة . . .) لا يستطيع أن يقوم بتحليل هذه الحالات الشعورية تحليلا موضوعيا ، لأن ذلك التحليل يتطلب التفكير المتزن وهو أمر مستحيل في حالة الانفعال . . واذا ما انتظر الانسان لحين زوال الانفعال والاستعداد للتفكير الهادىء تكون الحالة الشعورية المطلوب وصفها قد زالت تماما . ولهذا ذهب البعض الى استحالة استخدام هذا المنهج لان الانسان لا يستطيع ان يطل من النافذة ليرى نفسه سائراً في الطريق . ويرد انصار الاستبطان على هذا الاعتراض بانه ليس من الضروري ان يصف المستبطن حالاته الشعورية في نفس وقت حدوثها ، وانما يمكن وصفها بعد الفراغ منها مباشرة ، وهنا يكون الأمر مجرد تذكر مباشر وهذا امر كثير الحدوث في حياتنا اليومية ، وهنا تكون نسبة الخطأ قليلة ان لم تكن معدومة . هذا الى جانب انه يمكن بالتدريب ممارسة هذا المنهج بشكل مباشر اثناء الحالة الشعورية نفسها .

وعلى الرغم من مثل هذه الاعتراضات وغيرها الا ان الاستبطان منهج لا غنى عنه في مجال الدراسات النفسية فهو المنهج الاساسي الذي نستخدمه عنده

نطلب من الشخص الذي نجري عليه التجارب ان يروي لنا ما يسمع او ما يشعر به بعد مجهود ذهن طويل ، او بعد سماعه لموعظة دينية عميقة ، او بعد سماعه لحناً موسيقيا ، او بعد حضوره لمحاضرة دينية قيمة . . . الخ . يضاف الى هذا ان كافة اختبارات علم النفس التي تتعلق بالشخصية او الميول المهنية او الدراسية او مقاييس الاتجاهات والقيم والرأي العام . . . الخ . تعتمد بشكل او آخر على منهج الاستبطان . ذلك اننا نطلب الى المفحوص الاجابة على عدة اسئلة مثل : هل تشعر بالضيق والارتباك وانت في جماعة من الناس ؟ هل تستطيع متابعة محاضرة علمية طويلة على مدى ساعتين ؟ هل يصعب عليك التخلص من البائع ؟ هل تخاف من الاماكن المغلقة كالمصعد ؟ . . . الخ . ومنهج الاستبطان هو الاساس الأول للمنهج العيادي (الاكلنيكي) عندما يطلب الطبيب الى المريض ان يشرح له مخاوفه وأسباب قلقه وما يؤلمه وما يسعده . . . ويمكن القول أن منهج الاستبطان هو المنهج الوحيد في عدة حالات مثل وصف الاحلام ووصف حالات الغضب والانفعالات الشديدة ، وهو المنهج الوحيد القادر على تفسير بعض الظواهر مثل امتناع شخص عن طعام يحبه ، أو اقدامه على طعام لا يحبه ، فقد يتضح في الحالة الاولى أنه يسبب له سوء الهضم ، وقد يتضح في الحالة الثانية انه يجامل ضيوفه . وقد يكشف لنا الاستبطان عن ان طالباً معيناً دخل الكلية ابتغاء لمرضاة الله والدعوة اليه بينما الدافع الذي دفع آخر هو الحصول على مكانة اجتماعية عالية في المجتمع ، والذي دفع ثالثاً هو الحصول على المعرفة التي تمكنه من ادارة شركة ابيه . . . الخ .

ثانياً ـ الملاحظة الاسقاطية :

تتضمن الملاحظة الاسقاطية جانبان : الملاحظة وهي وصف حالة امامنا بشكل موضوعي ، والاسقاط اي تأويلها في ضوء خبراتنا الماضية . فاذا رأينا طالباً في الامتحان يعاني من الارتباك والقلق استنتجنا انه غير قادر على الاجابة لانه لم يذاكر ، واذا رأينا شخصاً مصفر اللون يجري في الطريق العام استنتجنا انه خائف مذعور . وهذا المنهج يقوم على افتراض معين هو ان الغير يشعرون كما نشعر ويفكرون كما نفكر ويسلكون كما نسلك لو وجدوا في نفس ظروفنا اي انه يقوم على اسقاط حالاتنا الشعورية على الغير كما يسقط الضوء المصور (في السينما) على الستار . ويعتمد هذا المنهج على المنهج السابق وهو التأمل الباطني طالما انه يعتمد

خبرتنا لحالاتنا الشعورية السابقة واسقاطها على ما نشاهده من حالات الغير . والواقع اننا كثيراً ما نستخدم هذا المنهج في حياتنا اليومية عندما نحكم على نيات الناس واحوالهم النفسية وتفكيرهم مما نراه من سلوكهم الظاهر فنصف احدهم انه متوتر ويشعر بالضيق او الاكتئاب . . . الخ .

والواقع ان هذا المنهج يجب ان يكون مقيداً بعدة ضوابط حتى يكون صالحا للاستخدام في مجال البحث العلمي .

اولاً : يجب على الملاحظ ان يكون متقارباً مع المفحوص في عدة امور كالثقافة (اللغة والمعتقدات والتقاليد وأساليب ومضامين التربية . . . الخ) والجنس (ذكر او انثى) والسن والخبرة ، حتى يستطيع ان يؤول مشاهداته في ضوء خبراته الذاتية بدرجة كبيرة من الصدق . ولهذا كان فهم السعوديين للسعوديين اصدق من فهمهم للانجليز ـ من خلال هذا المنهج ـ وفهم الرجال للرجال اصدق من فهمهم للنساء . ومثال هذا التحية في مجتمعنا تكون برفع الايدي او التصافح بينما يعبر عنها الانجليز برفع قبعاتهم . ويعبر عن الغضب في مجتمعنا بالصياح والاعتداء اليدوي ، بينما يعبر عنه في ثقافات اخرى بضرب شجرة او عمل وليمة .

ثانياً : لا يمكن الاستدلال على الأحوال النفسية للاطفال أو المرضى على اساس حالات الاسوياء ، كذلك لا يمكن دراسة سلوك وتفكير الشعوب البدائية الأمية على اساس الشعوب المتحضرة ، فاذا رأينا مريضا نفسياً منهمكاً في الضحك فهذا لا يعني انه مسرور .

ثالثاً : يجب على الباحث السيكولوجي (اي الباحث في مجال علم النفس) ان يكون باستمرار على حذر من الرياء الاجتماعي واساليب المجاملة والتصنع . كذلك قد يكون الملاحظ عاجزاً عن التعبير الصحيح عن الموقف . وهذا هو ما جعل العلماء يحاولون كشف الكذب عن طريق تصميم اسئلة خاصة في مقاييس الشخصية والميول والاتجاهات والقيم .

ثالثاً : الملاحظة الموضوعية :

وهذا الاسلوب هو المستخدم في العلوم الطبيعية لدراسة الظواهر الطبيعية التي لا تتضمن بطبيعتها مشاعر او احاسيس او تعقل . . . الخ . والمقصود

بالملاحظة الموضوعية تسجيل الظواهر المدروسة (سلوك او تفاعل او عدوان او نقاش او نشاط معين . . .) دون التدخل بتأويل أو تفسير أو اسقاط لحالاتنا الشعورية . وهو بهذا الشكل مسألة وصفية خالصة . ونستطيع بهذا الاسلوب دراسة الجماعات الانسانية والحيوانية دون التقيد بالمماثلة . . وهذا هو الاسلوب الوحيد لدراسة الاطفال والشواذ والحيوانات وابناء الثقافات المختلفة . والملاحظة الموضوعية تنصب على السلوك الظاهر . وقد تجري الملاحظة الموضوعية او الاسقاطية في ظروف طبيعية أو في ظروف صناعية . وتشير الحالة الاخيرة الى اجراء تجارب ثم ملاحظة نتائجها .

وتستخدم الملاحظة في الحياة التلقائية (اي دون اجراء تجربة) في دراسة السلوك الذي لا يمكن اخضاعه للتجريب أو الذي يشوه اذا اخضع للتجارب ويستخدم لدراسة لعب الاطفال وتفاعلاتهم التلقائية ودراسة سلوك الحيوانات ، كما يستخدم في مجال علم النفس الاجتماعي لدراسة صور ونتائج التفاعل بين العمال بينهم وبين بعضهم في جو العمل الطبيعي داخل ورشته أو بينهم وبين المشرف عليهم ، أو تفاعل التلاميذ داخل فصل دراسي ، أو سلوك المهاجرين من القرية الى المدينة أو سلوك مستخدمين جدد في مؤسسة أو مصنع أو ادارة . . . الخ .

رابعاً : الملاحظة التتبعية

وهناك نوع من الملاحظة الموضوعية يطلق عليها **الملاحظة التتبعية** وعادة ما تستخدم الدراسة الظواهر التطورية التي يعتريها النمو والتطور مثل تتبع نحو القدرات الجسمية او العقلية او سمة خلقية او مزاحية لدى الانسان منذ طفولته الى مرحلة المراهقة مثلاً لتتبع نمو الذكاء من ثلاث سنوات حتى ١٨ سنة أو تتبع نمو اللغة عند الاطفال أو تطور الشعور الديني أو القدرة على ضبط النفس أو تطور العاطفة القومية . وقد طبق « نزمان » هذا الاسلوب المنهجي في دراسة الاطفال الموهوبين حيث تتبع نحو زكاء هؤلاء الاطفال من سن مبكرة حتى اتموا دراساتهم وتزوجوا وانخرطوا في الحياة العامة ، وخرج من هذه الدراسة الى انهم قد احتفظوا بذكائهم مرتفعاً من مرحلة الطفولة حتى مرحلة الرجولة ، كما وجد انهم اصح اجساماً واطول اعمارا واصح نفسياً واقدم خلقاً وأقوى شخصية واكثر توفيقاً في الحياة الزوجية والمهنية من متوسط عامة الناس مما يشير الى وجود علاقة ايجابية بين درجة الذكاء وبين هذه المتغيرات المذكورة جميعا .

وكما تستخدم الملاحظة التتبعية لدراسة تطور ونمو سمة أو قدرة أو استعداد، تستخدم كذلك لدراسة اضمحلال أو تدهور سمة أو قدرة أو استعداد كذلك . مثل ضعف الذات خلال مرحلة الكهولة أو ضعف القدرة الابتكارية مع تقدم العمر . وهذا الاسلوب (الملاحظة التتبعية) يستخدم في المنهج الاكلنيكي حيث يتتبع الطبيب التاريخ المرضي للمريض حيث يحاول معرفة حالة المريض النفسية أو التاريخ المرضي للشخص وما تعرض له من امراض نفسية وجسمية ومشكلات وتاريخه الأسري والدراسي والاقتصادي . . .

المنهج التجريبي :

يظن البعض خطأً أن المنهج التجريبي في العلوم اكتشاف غربي ، ويعزوه غالبية العلماء الى « فرانسيس بيكون » غير ان هذا المنهج في الحقيقة اكتشاف اسلامي خالص فقد اكتشفه العلماء تحت تأثير العلوم الاسلامية كالفقه والاصول وفي ظل المبادىء العلية ودوران العلة مع المعلول وجوداً وعدما . ولم يكتف علماء الاسلام باكتشاف المنهج التجريبي بل طبقوه بالفعل في دراساتهم ويتضح هذا الشكل كبير في اعمال جابر بن حيان . ويتمثل المنهج التجريبي في تصميم وتنفيذ مواقف صناعية بقصد اختيار فرض معين وملاحظة نتائج هذا الموقف أو هي ملاحظة مقصودة مقيدة بشروط تجعلها تحت مراقبة الباحث واشرافه ، أو هي احداث ظاهرة في ظروف صناعية معينة يراقبها الباحث قبل إجراء التجربة بقصد جمع المعلومات عن الظاهرة من اجل التحقق من صدق فرض معين . والواقع ان الباحث يضطر الى تصميم المواقف الصناعية لأنه لو اقتصر على النظار وقوع الاحداث والظواهر بشكل طبيعي لملاحظتها ودراستها لكان سيره بطيئاً . . . وعادة ما يصمم الباحث الموقف التجريبي بهدف اختبار صحة فرض معين . ولكن ما هو المقصود بالفرض ؟

المقصود بالفرض العلمي :

كثيراً ما يقابل الباحث عدة ظواهر تحتاج الى تفسير . فهناك الزلازل والبراكين والليل والنهار والشتاء والصيف وجود اشخاص اقوياء الذاكرة واشخاص ضعفاء الذاكرة ، اشخاص كثيراً ما يرسبونُ وآخرون متفوقون . . . الخ . هذه كلها ظواهر طبيعية ونفسية تحتاج الى تفسير . وهنا يطرح الباحث عدة تفسيرات محتملة لهذه الظواهر حيث يقول أن السبب قد يكون كذا أو كذا أو

كذا . هذه التفسيرات المبدئية هي الفروض ولها عدة شروط اهمها ان تكون قابلة للاختيار في الواقع من خلال الملاحظة المنهجية أو تصميم موقف تجريبي لاختبارها . وعلى هذا يمكن القول ان الفرض هو تفسير مؤقت لظاهرة او اجابة محتملة على سؤال مطروح بصدد الظواهر المدروسة . فنحن مثلاً نريد معرفة العلاقة بين التفوق الدراسي والذكاء ، أو بين التخلف الدراسي والمشكلات الأسرية ، كما قد تحاول معرفة ما اذا كان سلوك القط امام الفأر سلوكاً فطرياً ام مكتسبا ، أو نريد معرفة اثر التدخين على التفكير . . أو أثر الفقر في الاجرام ، أو أثر التلفزيون في تغيير الاتجاهات النفسية للاطفال . وعلى هذا يمكن القول ان الفرض حكم مبدئي بوجود علاقة بين ظاهرتين او محاولة مبدئية لتفسير ظاهرة . والفرض كما هو واضح نوع من التخمين العلمي من الباحث طرحه بشرط ان يختبر صحته في دنيا الواقع والفروض لا تتحول من تخمين الى حقائق الا بعد ان يجتاز اختبار التجربة . وعلى عكس اخلاقيات القضاء التي تقضي بأن كل متَّهم بريء حتى تثبت إدانته ، فاخلاقيات العلم تقضي ان كل فرض غير مقبول في دائرة العلم حتى يثبت صحته .

أ ـ خصائص التجارب العلمية :

تتميز التجارب العلمية بعدة مميزات نوجزها فيما يلي :

اولاً : تصميم موقف تجريبي وتنفيذه بدقة بالغة .

ثانياً : اعادة احداث ظاهرة معينة في ظروف مضبوطة تسمح له بملاحظتها بدقة وتسجيل نتائجها .

ثالثاً : ان هذا الموقف التجريبي المصمم ليس موقفاً ذاتياً لكنه يصاغ بطريقة تتيح للباحث ولغيره من الباحثين اعادة اجرائه للتأكد من صدق النتائج التي توصل اليها الباحث الاول وهذا هو معيار الموضوعية في العلم .

رابعاً : وبما أن الموقف التجريبي موقف يصممه الباحث للكشف عن علاقة بين عاملين او اكثر ، فانه يستطيع تغيير ظروف التجربة ومتغيراتها فالعلاقة بين الاشراف والانتاجية في العمل الصناعي يمكن تغيير وضبط عواملها حيث يمكن تجريب نموذج الاشراف المستبد ، ثم نجرب نموذج الاشراف الديموقراطي ونجرب نموذج الاشراف الحر ونرى اثر كل نموذج على الانتاجية هنا نقول بلغة

المناهج ان نموذج الاشراف هو المتغير المستقل والانتاجية هي المتغير التابع .

خامساً : لا يقوم العلم على اساس الوصف الكيفي وانما يقوم في جوهره على اساس التقدير الكمي الدقيق . فلا يكفي في العلم القول ان اليوم حار وانما يجب قياس درجة الحرارة ، كما لا يكفي القول ان فلانا من الناس ذكي ولكن يجب قياس درجة ذكائه ويتيح لنا اجراء التجارب الفرصة لتقدير الظاهرة المدروسة تقديراً كمياً .

سادساً : تقوم فكرة التجريب في علم النفس وفي غيره من العلوم على التحكم الكمي الدقيق في المتغيرات المدروسة ، فاذا اردنا معرفة اثر عامل معين كالضوضاء على عامل آخر كالعمل العقلي وجب فصل هذين العاملين بدقة عن بقية العوامل المختلطة بها ، وهذا الفصل غير متاح في دنيا الواقع . فالعمل العقلي لا تتأثر بعامل الضوضاء فحسب ولكن تتأثر بعوامل اخرى كثيرة خارجية - مثل التهوية ودرجة الرطوبة والاضاءة واتساع او انغلاق المكان . . . الخ . وشخصية مثل استعداد الشخص بذكائه وحالته الجسمية وسنه وصحته . . . الخ . والمراد هنا فصل عامل واحد بعينه هو الضوضاء وقياس اثره على عامل محدد وهو الانتاج العقلي . هنا نطلق على الضوضاء (المتغير المستقل) وعلى الانتاج العقلي (المتغير التابع) . ويتطلب الموقف التجريبي في هذه الحالة تثبيت جميع العوامل الخارجية والداخلية الشخصية لمعرفة اثر المتغير المستقل على المتغير التابع . ومثال هذا أن يقوم الباحث بانتقاء مجموعة من الطلاب تتفق درجة ذكائهم واستعداداتهم واعمارهم وثقافتهم . . . وتقسيمهم الى ثلاثة مجموعات تعمل كل منها في ظروف متماثلة خارجياً ولا تختلف الا في عامل واحد فقط هو الضوضاء ، حيث تعمل احداها في جو هادىء تماما ، وتعمل اخرى في جو صاخب تماماً وتعمل الثالثة في جو متوسط الضوضاء والهدوء . وهنا يشترط توحيد العوامل وتوحيد درجة صعوبة العمل العقلي ، مع تثبيت طريقة تقدير نتائج العمل العقلي .

ب ـ أسلوب المجموعات التجريبية والضابطة :

كثيراً ما يحدث في الدراسات الاجتماعية عموماً اجراء تجارب باستخدام مجموعتين او اكثر بهدف المقارنة . ونحن هنا نوحد جميع العوامل عدا العامل المستقل الذي نريد قياس اثره . ويمكننا ان نضرب مثلا على هذا بالأساليب

التربوية في التدريس . فهنا يمكن وضع الفرص على النحو التالي - في صيغة سؤال . هل الاحسن في عملية التدريس ان نستخدم الطريقة الالقائية ام الطريقة الحوارية ؟* نحن هنا نضطر الى تصميم تجربة الاختبار هذا الفرض باستخدام أسلوب المجموعات التجريبية والضابطة . ويكون ذلك باختيار مجموعة من الطلاب (٤٠) طالب مثلا متساوون في كل العوامل تقريبا كالسن والجنس ومستوى الذكاء والطبقة الاجتماعية ومرحلة التعليم . . كما نراعي تماثل العوامل الخارجية كالاضاءة والتهوية والاتساع المكاني ونقوم بتقسيم هؤلاء الطلبة الى مجموعتين ، كل منهما عشرون طالبا . ونحن بهذا نكون قد وحدنا العوامل الشخصية والخارجية وبقي علينا ان نغير العامل المطلوب قياسه وهو الاسلوب التربوي ، حيث يقوم المدرس بشرح درس معين للمجموعة الاولى (التجريبية) بتطبيق الاسلوب الحواري ، ويقوم مدرس المجموعة الثانية (الضابطة) بتطبيق الاسلوب الالقائي . ثم نقيس بعد مدة موحدة درجة تحصيل التلاميذ . ولما كانت العوامل كلها عدا اسلوب التدريس موحدة ، يكون الاختلاف في النتيجة راجعاً الى هذا العامل المتغير .

وكثيراً ما يحتاج الباحث الى استخدام اكثر من مجموعتين في تصميم الموقف التجريبي . فعند اختبار اثر دواء معين في الوقاية ضد الزكام ونزلات البرد مثلا لا يكفي اجراء التجربة على مجموعتين فقط ، ذلك لانه وجد عند استخدام مجموعتين ، الاولى تعاطت العقار ، والثانية لم تتعاطاه . ان المجموعة الاولى كانت اقل تعرضاً للبرد من الثانية . ومع توحيد العوامل قيل ان السبب في هذا راجع الى الدواء . غير أن هذه النتيجة اهملت عاملاً لم يتم تثبيته وهو عامل الايحاء النفسي . فقام طبيب بتطبيق التجربة باستخدام ثلاث مجموعات متماثلة - الأولى (الضابطة) لم يتعاطى أفرادها العقار ، والثانية (التجريبية أ) تعاطى أفرادها العقار ، والثالثة (التجريبية ب) تعاطى افرادها عقار زائف وهم لا يعلمون انه زائف ، والهدف من هذا قياس اثر الايحاء . ووجد في النتيجة أن

---

* تموم الطريقة الالقائية - طريقة المحاضرة - على قيام المحاضر بالقاء المعلومات بحيث يكون هو العامل الايجابي الوحيد في الموقف التعليمي ، ويتلقى المستمعون المعلومات دون مشاركة - اسئلة أو حوار أو استفسار . . . الخ . وعلى العكس من ذلك تقوم الطريقة الحوارية على أساس مشاركة الطلاب او المستمعين بالحوار والمناقشة والاسئلة . . . الخ .

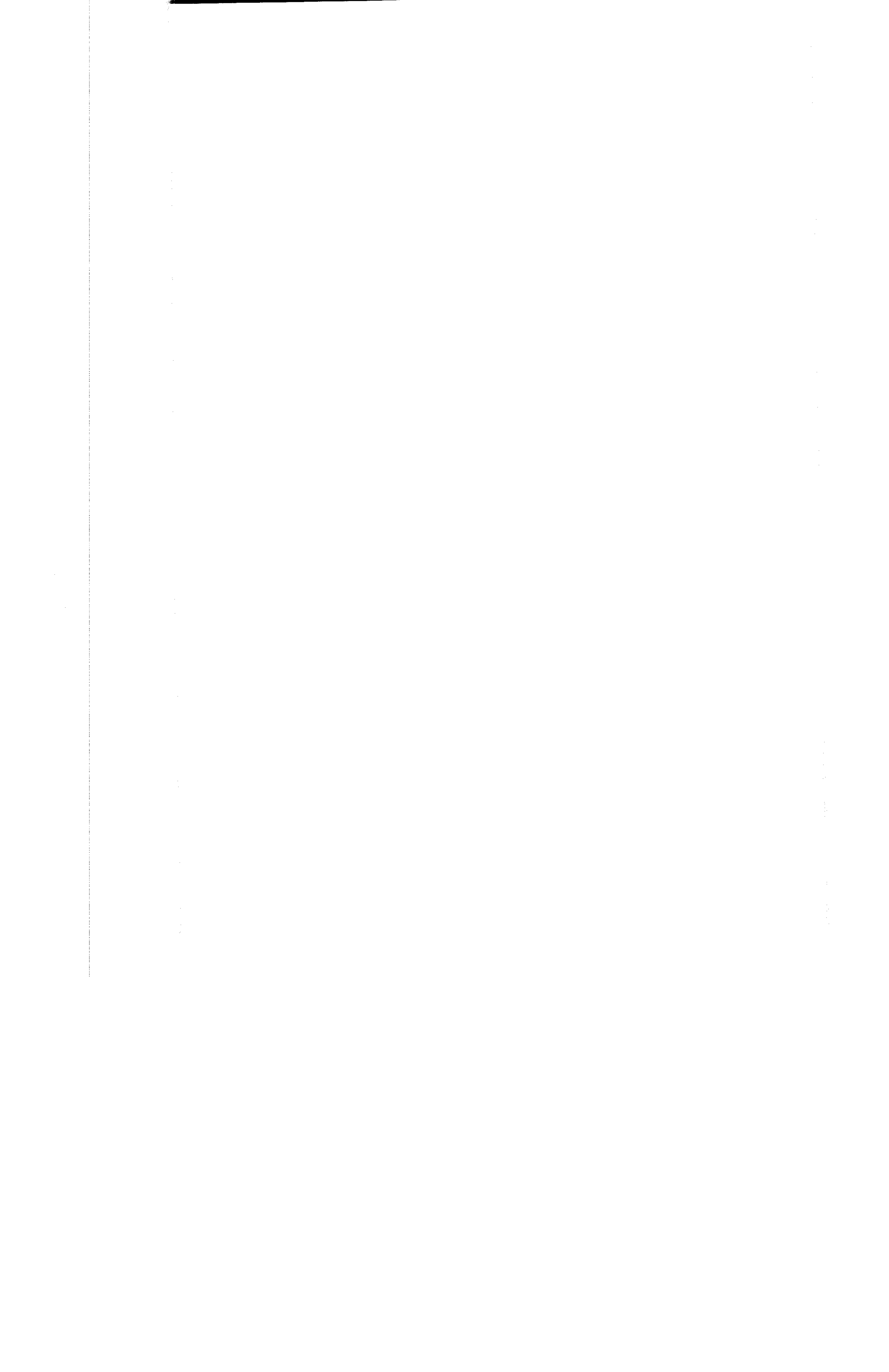
أبناء المجموعتين الثانية والثالثة اشتركوا في درجة المناعة ، الامر الذي يكشف عن ان النتيجة ليست راجعة الى الدواء بقدر ما هي راجعة الى الايحاء وتوقع الشفاء .

***

هذا هو اساس استخدام المنهج التجريبي في علم النفس ، غير انه يجب ان نلاحظ اننا لسنا احرارا في تطبيق الاسلوب التجريبي في علم النفس كما نستخدمه في العلوم الطبيعية . فنحن في العلوم الاجتماعية نتعامل مع بشر وكثيراً ما تحدنا القيم من تنفيذ بعض التجارب لتحقيق الفروض . فنفرض مثلا أننا نريد اختبار الفرض التالي . هل هناك علاقة بين التربية السيئة والسلوك الاجرامي ؟ لا يمكن أن تتعمد تربية مجموعة تربية سيئة حتى نختبر الفرض ونرى مستقبلهم . ونحن في هذه الحالة نلجأ الى ما يطلق على التجربة الطبيعية حيث نحاول تطبيق الابحاث على مجموعة من المجرمين الفعليين .

ـ القياس النفسي :

يعد القياس أحد الشروط الجوهرية لتقدم العلم ، ولم تتطور العلوم الطبيعية الا بعد ان تخلصت من الفكر الفلسفي العقيم واخذت بأسلوبه القياسي ـ قياس الحرارة ، قياس البرودة ، قياس الضغط . . الخ . ويقوم القياس على اساس تقدير الشيء المادي (كالحرارة والارتفاع) أو المعنوي (كالذكاء والقدرات والقيم) بواسطة وحدة معينة للكشف عن عدد ما يحتويه هذا الشيء من هذه الوحدات . ولا يختلف القياس في علم النفس عن العلوم الطبيعية لان اي منهما يقيس ظواهر خارجية شيئية لها وجودها الموضوعي خارج الذات . فنحن لا نستطيع قياس الحرارة والكهرباء مباشرة وانما نقيسها عن طريق مظاهرها لذلك لا نستطيع قياس الذكاء مباشرة وانما نقيسه عن طريق التعبيرات اللغوية والحركات وآراء اعمال معينة . غير أن القياس في عالم المادة اكثر ضبطاً منه في عالم النفس والاجتماع نظراً لاننا في العلوم الاجتماعية نتعامل مع بشر قادرون على الكذب والتزييف والخداع وقد يجيبون خطأ عن علم او بغير علم ، الى جانب مشكلات القياس الفني لبعض الظواهر . ويمكن القول أن علم النفس يزخر اليوم بالعديد من المقاييس والاختبارات للشخصية والذكاء والقدرات والابتكارية والميول المهنية والقيم والاتجاهات والتحصيل . . . الخ .



الفصل الثالث

مناقشة النظريات النفسية في الغرب

في ضوء حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

١ ـ محاولة فهم الانسان والقياس السيكولوجي
٢ ـ الاصول الوثنية لبعض المدارس النفسية في الغرب
٣ ـ نماذج من الاساطير الاغريقية وفكرة العداء للدين
٤ ـ نموذج من المدرسة التحليلية
٥ ـ نموذج من المدرسة الماركسية
٦ ـ نموذج من المدرسة السلوكية التقليدية
٧ ـ نموذج من المدرسة السلوكية المحدثة
٨ ـ نموذج من المدرسة التجريبية
٩ ـ نموذج من المدرسة السوسيولوجية
١٠ ـ علم اجتماع المعرفة وتفسير سر العداء للدين في المجتمع الغربي
١١ ـ نحو تشخيص موضوعي صادق

محاولة فهم الانسان والقياس السيكولوجي :

تحاول الكثير من الدراسات الانسـانية المعـاصرة فهـم الانسـان من خلال العديد من المناهج والمقاييس والمداخل . ونحن لا نقصد هنا بفهم الانسان دراسة وفهم الجانب البيولوجي له ، ولكننا نقصد فهم الانسان من حيث ماهيته ووظيفته ودوره في حركة المجتمع والتاريخ ، وما يقوم به من دور في الكون الواسع ، وقد تجاوز علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي قضية الانسان الفرد واخـذت هذه العلوم تبحث في بناء الجماعات والمجتمعـات والتنـظيمات ووظائفهـا ومـا يسـود داخلها من علاقات وتفاعلات .

واذا ما ألقينا نظرة سريعة على أساليب فهم علم النفس الحديث للانسـان فاننا سوف نجد أن اغلب العلماء يحاولون فهمه من خلال الرجوع الى المقاييس والاختبارات استناداً الى أن العلم يقوم أساساً على التجـريب والقياس ، وعلى أساس أن معيار الموضوعية والدقـة العلمية هو القياس Measurement ، فهـم يؤمنون بمسلمة هي انه كل ما يوجد في العالم ـ بما فيه الانسان وقيمه ومعتقداته واتجاهاته . . ـ يوجد بمقدار ، وكل ما يوجد بمقدار يمكن قياسه ، وإذا كان هذا الأمر صحيحاً فكل شيء عنده سبحانه وتعالى بمقدار ، فإنه ليس في قدرتنا أن نعي أو ندرس أو نتعرف على مقدار كل شيء ، خاصـة فيما يتعلـق بالقيم والقضـايا الايمانية والعقائدية ، كما أنه غير متاح لنا نحن البشر أن نعرف أشياء كثيرة تتعلق بالإنسان فضلاً عن قياسها ومعرفة كمها مثل الروح « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء ٨٥) . وعلى الرغم من هذه البديهيات انطلـق علماء النفس ـ في ظل الايمـان بمسـلمات التجـريبية البحتة ـ لاجراء التجارب النفسية وتصميم المقاييس المختلفة التي تستهدف ـ في نظرهم ـ التوصل الى القوانين التي تحكم الظواهر السلوكية . والواقع أن خزانة علم النفس تزخر اليوم بمجموعة كبيرة من المقاييس ـ للذكاء الفطري والأدائـي Verbal and Performance مثل « ستانفورد بينيه ، بينيه ـ سيمـون ، وكسلـر

بلفيو » . . . ومقاييس للشخصية تحاول الكشف عن الجوانب السوية والانحرافية مثل مقياس جامعة منيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية M.M.P.I واختبار « البرونرويتر » . . . الى جانب العديد من مقاييس الاتجاهات والقيم والميول المهنية والتوافق الاجتماعي والمهني وهناك المقاييس الاجتماعية Sociometry لقياس التماسك والتفكك وكثافة العلاقات داخل الجماعات الصغيرة وشدتها . . . يضاف الى هذا كله وجود مجموعة من الاختبارات الاسقاطية Projective tests مثل اختبار الرورشاخ (اختبارات بقع الحبر) واختبار تفهم الموضوع T.A.T تلك التي تستند الى عرض موقف غامض على المفحوص ، ولها قدرة تشخيصية معينة حسب درجات تقنينها Standerdization * . . .

غير أن هذه الاختبارات والمقاييس ـ على الرغم من تقنينها وتحري الدقة في تصميمها من حيث الصدق والثبات بالمعنى الاحصائي ـ إلا انها يعجز تماما عن أن تعطينا صورة واضحة عن الانسان ككل ، ذلك الانسان الذي يحمل رسالة هي أجلّ الرسالات واعظمها ، رسالة الخلافة عن الله سبحانه وتعالى ، ذلك لأنها تعمد الى تفتيت Fragmentation الانسان ، وأخذ كل جانب على حدة لقياسه ، الأمر الذي نفتقد معه الانسان نفسه . فهناك اختبارات للذكاء والادراك الحسي والتخيل والتفكير والتذكر والاتجاهات والقيم . . . الخ . ولكن لا يوجد اختبار يقيس لنا أو يكشف لنا عن ماهية الانسان كإنسان ـ طبيعته ووظيفته ورسالته أو امكاناته . . . الخ . ومع أهمية دراسة الجوانب المذكورة سواء في مجال الفهم العلمي أو في مجال التطبيقات التربوية والمهنية والصناعية والاعلامية والعلاج الجسمي والنفسي . . . الخ . إلا أنها تعجز في الواقع عن أن تمدنا برؤية شمولية واضحة عن الانسان كإنسان .

ولعل هذا الأمر ـ شمولية الرؤية الانسانية ـ هو ما تنبهت له إحدى المدارس المعاصرة لعلم النفس في ألمانيا وهي مدرسة الصيغ ـ أو الجشتالط ـ الأمر الذي جعلها ترفض فكرة الاختبارات الجزئية والأخذ بفكرة الاختبارات الموقفية Situational . ولكن حتى هذه الاختبارات لا تجيبنا عن التساؤلات المتعلقة بوظيفة الانسان وماهيته ورسالته في هذه الحياة الدنيا .

---

* سوف نعرض الفكرة عن هذه الاختبارات من الفصل الاخير من هذا الكتاب .

وبالاضافة الى هذا العيب الرئيسي للاختبارات والمقـاييس النفسية فهنـاك مشكلات فنية وعملية تعترض امكانية بناء وتصميم مقاييس سليمة ١٠٠٪ ، منها على سبيل المثال عدم امكان ايجاد مقاييس للذكاء الفطري الذي اودعه الله سبحانه وتعالى في الانسان بعيدا عن آثار الثقافة (كل ما يكتسبه الانسان من مجتمعـه) *Culture

هذا الى جانب صعوبات التقنين Standerdization التي يعرفها كل من له خبـرة بالمقـاييس النفسية Psychometrics أو المقـاييس الاجتماعية Sociometry ـ أي التأكد من صدق Validity وثبـات Reliability . وبالنسبـة للاختبارات اللفظية Verbal هناك العديد من الاحتمالات لتـزييف الاجابـة الى جانـب ان الاختبـارات الاسقـاطية مؤسسـة أصـلا على آراء مدرسـة التحليل النفسي ، وهي آراء تلقي اليوم العـديد من الاعتراضـات الجوهـرية ، هذا الى جانب أن الاختبارات الاسقاطية غير دقيقة لصعوبة التقنين ووضع معايير عامة وهي كذلك صعبة في التفسير .

جوانب القصور في التصورات الغربية حول الانسان :

يؤكد الباحثون المسلمون ان هناك مجموعة من التساؤلات التي يجب طرحها ابتداءً قبل الانطلاق المتعمق لدراسة الجوانب السلوكية والنفسية عند الانسان ، وقبـل تطبيق مختلف المقـاييس التـي تحفـل بهـا خزانـة علـوم النفس والاجتماع والانسان . وفي مقدمة هذه التساؤلات : ما هو الانسان وما هي وظيفته وما هي الاسباب التي دعت الى خلقه ؟ وما هو دوره في هذه الحياة الدنيا ؟ وما هي طاقاته وإمكانياته ؟ وما هي حدود هذه الطاقات والامكانيات ؟ مثـل هذه الاسئلـة لا يطرحها علم النفس الغربي ـ عن قصد ـ زاعما أن مكانها الفلسفة وليست العلوم التجريبية . على أن هذا الزعم خاطىء تماما ، لأن أي دراسة للانسان تتجاهل هذه الاسئلة مقضي عليها بالفشل والتخبط ، وهو الحادث فعلا في علم النفس الغربي حيث نجد مدارس واتجاهات ونظريات متعددة متناقضة ومتصارعـة في تفسير الظواهر السلوكية ـ التحليلية والسلوكية والصيغ والفسيولوجية . . . الخ ـ

* يستخدم مفهوم الثقافة ـ حسب تعريف « تايلور » Tylor بمعنى واسع ليضم العلم والفن والمعتقدات والقيم والاشياء المادية وكل ما يكتسبه الانسان كعضو داخل المجتمع .

ويمكن القول أن السير في بحث الانسان دون الاجابة على الأسئلة السابقة أدى الى العديد من المآخذ التي تهدم الدراسات الغربية في علم النفس أوجزها فيما يلي :

أولاً : إفتقاد المنظور الشمولي للانسان فهي تعطينا فكرة مفتتة عن ظواهر جزئية - كالذكاء والميول والاتجاهات والتفكير والتذكر . . . لكنها لا تمنحنا تصوراً واضحاً عن الانسان الواقعي المتكامل الذي يمارس وجوده وحياته على أرض الواقع ، ذلك لأنهم فتتوا الانسان وأحالوه الى حطام تماما كما يفعل علماء الحياة عندما يحاولون فهم الحياة من خلال التشريح .

ثانياً : إنحراف بعض الباحثين وترديهم في هوة الحتميات المختلفة ذلك لأن كل منهم درس جانباً من الانسان ، واعتبره - خطأً - على أنه يمثل الانسان ككل الأمر الذي أعطى صورة مشوهة عن الانسان . ومثال هذا العالم النمسوي « سيجموند فرويد » الذي أرجع الانسان الى الجنس Sex والعدوان Agression - فوقع في الحتمية الجنسية ، وأنصار الاتجاه الماركسي الذين يحللون الانسان من خلال المنظور المادي الاقتصادي فوقعوا في الحتمية الفسيولوجية ، اعتبروا أن النفس والروح وظائف للأعضاء الداخلية للانسان وليس لها وجود مستقل ، فأنكروا الروح وخلدوها وأنكروا الحساب واليوم الآخر ، بل وأنكروا الألوهية سبحان الله وتعالى عما يقولون - وهناك العديد من الحتميات الزائفة كالحتمية الجغرافية (إرجاع سلوك الانسان كلية الى عوامل جغرافية) والحتمية البيولوجية (ويزعم أنصارها أن الانسان أسير تكوينه البيولوجي والوراثي) والحتمية الاجتماعية (الانسان أسير الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه) فالهندي الذي يعبد البقرة مجبر على ذلك) وهذه فكرة خاطئة لأنه اذا ما رشد وبلغته رسالة الاسلام يجب إعمال عقله وفكره وإعتناق الاسلام دين الفطرة) .

ثالثاً : افتقاد المعيار الصحيح للاستواء والانحراف ذلك لأن أغلب علماء النفس والاجتماع - في العالم الغربي - يستمدون هذا المعيار من الواقع الاجتماعي القائم فعلاً - على أساس أن الاستواء هو الاتفاق مع النموذج الشائع من السلوك والتفكير والاتجاهات حسب المنحنى الطبيعي أو الجرس Normal Curve وبالرجوع الى المتوسطات الحسابية والدرجات المعيارية . وهذا هو المعيار الاحصائي للاستواء والانحراف ، فما يتفق مع غالبية أعضاء الجماعة (سلوك -

فعل ـ اتجاه ـ رأي ـ معتقد . . .) يعد طبيعياً ، وما لا يتفق مع غالبية اعضاء الجماعة يحكم عليه بالانحراف . ويترتب على هذا المعيار مشكلات ومتناقضات كثيرة فالسلوك الجنسي خارج الزواج ، سلوك شائع في بعض مجتمعات الغرب ، وبالتالي يعد ـ طبقاً للمعيار السابق ـ سلوكاً صحيحاً وعبادة البقرة أمر شائع لدى بعض طوائف وولايات الهند ، وهو طبقاً للمعيار الاحصائي للاستواء والانحراف يعد سلوكاً سلياً وهكذا . وطبقاً لهذا المعيار يمكن النظر الى السلوك الاجرامي داخل التنظيمات الاجرامية في امريكا على أنه سلوك سوي . . . الخ . وهذا يعني ان العلماء الذين يأخذون بهذا المعيار يحيلون الواقع المنحرف في العديد من المجتمعات الى مقياس او محك Criterion يقاس عليه الاستواء والانحراف . ولو صح هذا القول لما كانت الرسالات والأنبياء والهداية الإلهية المستمرة للبشر . والواقع أن المعيار الصحيح للاستواء والانحراف هو ذلك المعيار الذي صممه خالق الناس والذي هو أقرب اليهم من حبل الوريد والذي خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه وألهم النفس الانسانية فجورها وتقواها « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (الشمس) . فالمعيار هو مدى تمش السلوك مع مبادىء الشريعة الاسلامية وهي مبادىء وضعها رب الناس الواحد القهار .

وقد أشار « الكسيس كاريل » في دراسة له بعنوان « الانسان ذلك المجهول » الى اننا على الرغم من التقدم الهائل في المعارف الطبيعية فإننا نعجز عن فهم الانسان ككل ، ذلك لأننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة ، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا ، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة . والواقع ان جهلنا بالانسان مطبق لأن أغلب ما نطرحه من أسئلة تظل بلا جواب ، طالما أن هناك العديد من المناطق غير المكتشفة في دنيانا الباطنية .

ولعل الخطأ الاساسي للكثير من المشتغلين بالدراسات النفسية الاجتماعية ، يتمثل في التركيز على أحد جوانب الحياة النفسية عند الإنسان وتضخيمها من حيث البناء والوظيفة والأثر والأهمية مع إهمال أو التقليل من أهمية الجوانب الأخرى ، ومثال هذا ما فعله فرويد من تركيز مسرف على الجانب الجنسي ، تلك الطاقة الحيوية التي أسماها « الليبيدو » Libido والتي تتضمن الطاقة الجنسية

والطاقة العدوانية ، كذلك فإنه سلط الأضواء بشكل مسرف على منطقة اللاشعور وضخم من دوره في حياة الفرد لدرجة تتناقص معه اهمية الوعي والشعور الى درجة العشر ، وهذا يعني انه أوقع الانسان أسيرا لغريزتي الجنس والعدوان والدوافع اللاشعورية ، وهو بهذا افقد الانسان القدرة على تسيير أموره بشكل واعٍ . ولعل المشكلة الكبرى أنه جعل الضوابط الاجتماعية Social control من معتقدات دينية وقيم أخلاقية وآداب اجتماعية أموراً تتناقض مع الطبيعة الاساسية للانسان تلك الطبيعية الفطرية الحيوانية . وقد تجاهل « فرويد » ان الانسان لم يكن ليتقبل هذه الضوابط لولا وجود استعداد فطري لتقبلها وللانخراط في الجماعة . فالمجتمع والقوى الخارجية تعجز عن ايجاد شيء في الانسان ما لم يكن لديه الاستعداد الطبيعي الفطري لتقبله ، والا لاستطاع الإنسان إيجاد مثل هذه الأمور لدى الحيوانات العجم . والواقع وكما يحدثنا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ان الميل للتدين والتوحيد والتجمع ميول فطرية يولد الانسان على الفطرة ، وقد خلق الله سبحانه عباده حنفاء . وقد أخطأ فرويد عندما ركز على احد جوانب الانسان وصورها على أنها تمثل الإنسان ككل ، وهو بهذا أعطى صورة مزيفة للنفس الانسانية ، خلاصتها أن الطاقة الأساسية المحركة للإنسان طاقة بوهيمية بحتة تخلو من كل أثر للدين والمثل العليا والقيم الروحية السامية . وهذا هو الخطأ الأكبر والخطير في النظرية التحليلية لأنها تجاهلت فطرية النزعة الى التدين عند الانسان . قال تعالى « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا » (الأعراف **١٧٢**) . فهذا الجانب السامي عند الانسان يستمده من روح الله سبحانه وهو ما خفي عن فرويد ـ جهلا أو تجاهلا . والواقع أن التفسير التحليلي للسلوك الانساني تفسير مسرف غريب ، فنشاط الانسان منذ الميلاد ـ رضاعة ـ تبول ـ تبرز ـ إقتراب من الأم ـ وضع أشياء في الفم . . . الخ حتى الوفاة يتم تفسيره في ضوء الجنس والعدوان ، وهو أمر غريب حقاً لا يمكن لعاقل قبوله وإلا لحولنا الانسان الى وحش كاسر .

ويمكن القول أن هذا النقد لا يوجه الى فرويد وأنصار مدرسة التحليل النفسي فحسب ، ولكنه يمتد ليوجه الى أغلب مدارس ومحاولات تفسير الانسان في الفكر الغربي ، تلك المدارس التي وقعت في مشكلة التفسير والتحليل آحادي

الاتجاه Monofactorial analysis بمعنى أنها ركزت على عامل محدد في الانسان وسلطت عليه الأضواء وصورته على انه العامل الوحيد القادر على تفسير النشاط الانساني كله ، وهذه المدارس هي ما يمكن أن نطلق عليها الحتميات Determinism كالحتمية الجنسية (فرويد) والحتمية الاقتصادية (ماركس) والحتمية الجغرافية (انصار الجيوبوليطيقا Geopolitics) والحتمية النفسية Psychologism والحتمية الاجتماعية Sociologism ... الخ .

واذا كان تلميذا فرويد « أدلر » و « يونج » حاولا تصحيح أخطاء الأستاذ والتخفيف من تطرفه فإنهما لم يسلما كذلك من هذا التطرف وينطبق عليهما نفس النقد الموجه للاستاذ . فقد ذهب «أدلر» الى أن الدافع الأساسي الذي يمكن ان نفسر في ضوئه سلوك الانسان هو الشعور بالتفوق في جانب معين من جوانب الحياة الاجتماعية . وهذا الشعور الذي يشعر به الفرد إزاء الجماعة هو الذي يمكن من خلاله تفسير سلوكه وفعله . أما « يونج » فقد تصور أن الدافع الحيوي الذي يحرك الفرد في حياته ليس هو الشعور بالتفوق ، وانما هو على العكس الشعور بالنقص Inferiority Feeling ومحاولة التعويض Compensation .

وعلى الرغم من الصدق الجزئي لآراء فرويد وأدلر ويونج والجيوبولوطيقيون وأنصار الحتميات المختلفة ـ من حيث الكشف عن جوانب هامة واساسية في الانسان ، الا أنها جميعا وقعت في عدة اخطاء ، منها خطأ عقدي انها لم تنطلق من المنطلقات السليمة ـ وهي التي تعتمد على الرجوع للكتاب والسنة ـ وهذا بحكم انتماءاتهم العقدية المنحرفة ، وخطأ منهجي Methodological وهو التركيز على عامل واحد مع اهمال العوامل الأخرى ، ثم الادعاء ان هذا العامل هو الإنسان .

ويمكن قول نفس الشيء عن المدرسة التجريبية Experemental في علم النفس التي زعمت ان العلمية والموضوعية يتحققان بالقياس والتجريب ، غير أن هذا التصور أدى في التطبيق الى تفتيت الإنسان وتجزيء جوانبه وافتقاده في مجموعة ـ واذا كان من اليسير اجراء التجارب وتطبيق المقاييس في مجالات الإنسان المادية كالادراك الحسي والجهاز العصبي والغدي ... الخ . فإن المشكلة الاساسية تكمن في كيفية قياس الأمور المعنوية بدرجة عالية من الصدق والثبات . وعلى سبيل المثال كيف يمكن قياس احساس الانسان بالعدل والحق

والخير ، وكيف نقيس العلاقة الروحية الخالصة بين الانسان وربه ـ هذا فضلا عن كيفية ايجاد معايير الحق والخير والعلاقات الروحية . يضاف الى هذا ما تعانيه هذه المقاييس من مشكلات تتعلق بالصدق والثبات والاتساق . واذا كان الباحثون يلجأون الى الاحصاء لحل مشكلات التقنين ، فالواقع ان هناك العديد من ألوان التزييف العلمي والتسلط العنصري تمت تحت ستار العمليات الاحصائية ، مثل اسطورة تفوق الجنس الابيض وتخلف الزنوج واسطورة تفوق العنصر الالماني على الشعوب المجاورة ، وتفوق الدول المتقدمة على الدول النامية . . . الخ* .

أما عن المدارس الارتباطية في علم النفس ـ مثل مدرسة التعلم الشرطي ، ومدرسة التعلم بالمحاولة والخطأ وغيرهما ، فقد حاولت تفسير سلوك التعلم لدى الانسان في ضوء فكرة الفعل ورد الفعل والارتباط بين المنبهات الحسية ، وبينها وبين أخرى معنوية ، والارتباط بين مثيرات صناعية ومثيرات طبيعية . . . الخ . الأمر الذي يحول سلوك الانسان وعملياته العقلية العليا الى حركات ميكانيكية خالصة .

ويمكن القول أن المدارس الاجتماعية والنفسية التي طرحت نفسها في مجال التراث العلمي أسهمت كثيراً في فهمنا للانسان من جوانب متعددة غير أن ما يعيب بعضها هو إصرارها على إبراز عامل معين على أنه العامل المحوري أو الوحيد الذي تدور بقية العوامل حوله ، الى جانب أنها تفسر الكل الانساني في ضوء الحقيقة الجزئية التي تركز عليها وهذا هو المقصود بالحتميات الزائفة . وعلى الرغم من ان هذه المدارس تعبر عن حقائق جزئية الا انها تفتقد الحقيقة الكلية ، الأمر الذي يحول دون الاستفادة بما تقدمه من حقائق جزئية لعدم وضعها في الاطار الصحيح . فالجزء لا يمكن فهمه إلا في إطار الكل . ومما يزيد من مشكلة النظريات الحتمية ان انصارها لا يكتفون بعرض آرائهم في شكل نظري فحسب ، ولكنهم يرتبون على نظرياتهم الجزئية الخاطئة خطط عملية يجري

---

* ولعل أبرز الأمثلة على التزييف العلمي الذي اعتمد على عمليات احصائية دراسات « فاش دي لابوج » الفرنسي واوتو آمون الالماني . فقد حاول الأخير اثبات تفوق اهل بلدان وابناء الطبقات العليا ـ من حيث الذكاء ـ على ابناء القرى والطبقات الدنيا ، ولجأ في هذا الى قياس معامل الجمجمة ، فأبناء الرؤوس مستطيلة اكثر ذكاء من ذوي الرؤوس المستديرة . وهذا هراء علمي .

تنفيذهـا في مجتمعـات الغـرب والشرق في مختلف المجـالات التربويـة والمهنيـة والاعلامية والصناعية . . . الأمر الذي ينتهي بنا ـ كما اشار كاريل بحـق ـ الى تدمير الانسان بسبب جهلنا الكامل بحقيقة الانسان .

الأصول الوثنية لبعض المدارس النفسية والاجتماعية في الغرب :

لفهم طبيعة النظريات النفسية والاجتماعية المفسدة للانسان في العالم الغربي والشرقـي ، يجـب ان نطبـق منهـج علـم اجتماع المعرفـة* Sociology of Knowledge ، ذلك المنهج الذي يكشف الابعاد العقدية والطبقيـة والسياسيـة والتربوية . . . التي تقف وراء هذه النظريات . واذا ما حاولنا تطبيق هذا المنهج لدراسة الأصول الفكريـة والعقائديـة والخلفيـات المذهبيـة للعديـد من النظريات السلوكية في العالم الغربي ـ فرويد و واطسن و دوركيم والماركسيين والوجوديين ـ يجب الرجوع الى أصول الثقافة الغربية والتي تمتد حتـى الحضارة والثقافة الاغريقية القديمة ، تلك الحضارة الوثنية (من المنظور الاسلامي) التي قامت على أساس نوع محدد من الفكر ومجموعة من التصورات الدينية تقوم على فكرة تعدد الآلهة واستمرار الصراع بين الآلهة بعضهم وبعض ، وبينهم كلهم من جهة وبين البشر من جهة اخرى . وينعـكس هذا الصراع ـ سواء بـين الآلهـة بعضهم وبعض أو بينهم ككل وبين البشر ـ سلبـاً أو ايجاباً ـ على ظروف البشر الحياتية وعلى مصيرهم . ويؤكد المنصفون من المحللين أن هذا التصور الوثنـي الاغريقي ظل مؤثراً بشكـل أو بآخـر على العديـد من المـدارس السيكولوجيـة والاجتماعية والاخلاقية والفلسفية في العالم الغربـي ، ويتضح هذا الاثـر عنـد دراسة رؤية هذه المدارس للدين والضوابط الدينية والاخلاقية والعقدية . فقـد تصورت الكثير من هذه المدارس الدين كأمـر معـارض لطبيعـة الانسان ، بل ومعوق لانطلاقاته وقامع لرغباته ومحبط لتطلعاته ويتمثل هذا بشكل واضح في عدة نظريـات كالفرويديـة والسلوكيـة والماركسيـة والوجوديـة والسوسيولوجيـة (دوركيم) . . . الخ . وعلى الرغم من التعارض بين هذه النظريات إلا أنهـا تتفق في العداء الواضح للفكر الديني الغيبي . وقبل أن نعرض لمضامين الرفض الديني لدى هذه المدارس الغربية ، يجدر بنا أن نعرض لجانب من الفكر الوثني

---

* ارجع الى دراسة المؤلف بعنوان الايديولوجيا وازمة علم الاجتماع المعاصر ـ الدار القومية ـ مصر ١٩٧٦ م .

الاغريقي متمثلاً في بعض الاساطير التي تمثل معتقدات قدماء الاغريق ، والتي ظلت حية مؤثرة في وجدان الفكر الغربي المعاصر .

نماذج من الاساطير الاغريقية والعداء للدين :

يبرز الحقد على الدين ونبذ الفكر الغيبي وللغيبيات اذا ما رجعنا الى الأساطير الاغريقية التي تصور الآلهة في حالة صراع دائم مع بعضهم البعض ، ومع البشر مما ينعكس شراً على البشر . ويمكن أن نجد هذه الاساطير في تراجيديات « سوفوكليس » و« هوميروس » . . . ومن أبرز الاساطير التي اثرت في العديد من مدارس علم النفس المعاصرة اسطورة « أوديب » ،واسطورة « الكترا » وأسطورة « سيزيف » وأسطورة « بروميثوس » . وقد تأثر الفكر الفرويدي بشكل واضح بأسطورة « أوديب » وتمثل إبناً فقد أبواه وعاش في مجتمع مختلف وقاد جيشاً وحارب جيش والده وقتله دون ان يعرفه وتزوج امه ، وهكذا تحققت نبوءة عراف إغريقي لوالد أوديب . وقد قال فرويد بوجود عقدة أوديب لدى كل مولود فتمثل في التوحد Identification بالجنس المماثل والاستحواز على الجنس المقابل ـ فالابن يتوحد بالأب من أجل الاستحواز على الأم ، والبنت تتوحد بالأم من أجل الاستحواز على الأب وواضع سخافة هذه الاقوال الهزائية المريضة التي لا أساس لها من الصحة .

وتشير اسطورة « سيزيف » الى تعنت الآلهة مع البشر فسيزيف إرتكب خطيئة فعاقبته الآلهة بحمل صخرة كبيرة من قاع جبل حتى يصل به الى القمة ، ثم تعيد الآلهة الحجر الى قاع الجبل ، فيعيد سيزيف حمله وهكذا من دورة آبدية من العذاب والانتقام الرهيب ، مما يشير الى بؤس الانسان وقدره المحتوم في مواجهة الآلهة . أما أسطورة بروميثوس فإنها تصور العلاقة العدائية بين الانسان والآلهة ، فبروميثوس كائن أسطوري كان كبير الآلهة « زيوس » القابع على قمة جبل الأوليمب يستخدمه ـ حسب منطوق الاسطورة ـ في خلق الناس من الماء والطين . وقد أحس « بروميثوس » هذا بالعطف على البشر فقام بسرقة النار المقدسة ، وهي النار التي تصور الأسطورة أنها الوسيلة الأساسية لصنع البشر ، وهي هنا ترمز للعلم والمعرفة والأسرار الالهية ، وأعطاها بروميثوس للبشر ، فعاقبه زيوس على ذلك بأن قيده بالسلاسل في جبال القوقاز وكلف نسراً بأن ينهش كبده نهاراً ثم يتجدد ليلاً ليستمر العذاب . كما قام زيوس كبير الآلهة

بالانتقام من البشر الذين حصلوا على النار المقدسة فأرسل اليهم « باندورا » أول أنثى تصل الى الأرض ، تحمل معها صندوقاً تحوي كافة أنواع الشرور من أجل تدمير الانسان والنوع الانساني كله انتقاماً للآلهة من البشر . وقد اتجهت باندورا - الأنثى الشريرة - أولاً الى « ايبديميثيوس » شقيق «برومثيس» الذي تقبل هدية الإله وقام بفتح الصندوق فخرج منه كل أنواع الشر وانتشر الشر بين الناس . وتشير الأسطورة المذكورة الى أن الآلهة خافوا من وجود النار المقدسة في أيدي الناس حتى لا يتطلعوا الى الخلود ومنافسة الآلهة الأمر الذي جعلهم ينتقمون بوحشية حتى تظل لهم الغلبة والسيطرة .

التسلط الكنسي في العصور الوسطى والعداء للدين :

وبهذا الشكل المفزع الرهيب صورت الأساطير الاغريقية طبيعة العلاقة بين عالم الآلهة وعالم البشر على أنها علاقة صراع وحقد وغيرة ، وظلت هذه الافكار - بشكل صريح أو ضمني - مؤثرة في فكر علماء الغرب ، خاصة وأن العصور الوسطى شاهدت صراعاً رهيباً بين الكنيسة - ممثل الدين والأوامر الإلهية - وبين شعوب أوربا ، حيث كان آباء الكنيسة قوة اجتماعية مدمرة قامعة متجبرة مستغلة للناس - إجتماعياً واقتصادياً وسياسياً - وقد مارست الكنيسة إستغلالها للناس تحت ستار الدين وفي ظل نظريات التفويض الإلهي المباشر وغير المباشر ، وآراء القديس « أوغسطين » و « توماس الاكويني » وبيع صكوك الغفران ومحاكم التفتيش وكافة المهازل التي ارتكبت في أوربا تحت اسم الدين والكنيسة وآباء الكنيسة من الاقطاعيين . ومع قدوم عصر النهضة الأوربية وظهور العلوم التجريبية ، كشف العلماء والمفكرون عن زيف المعتقدات الكنسية التي كانت تعتمد بدورها على آراء أرسطو المفكر الاغريقي . فراحت الكنيسة تنتقم من المفكرين اعداماً وحرقاً وتنكيلاً بدعوى الهرطقة والكفر ومثال هذا إعدام « جاليليو » وحرق « برونو » وغيرهم وأنتقل الآن لتوضيح كيف أن هذه الاتجاهات العدائية للدين التي تولدت عن الحضارة الاغريقية وعن التسلط الكنسي في العصور الوسطى انعكست على فكر علماء النفس والاجتماع المعاصرين في الغرب .

نموذج المدرسة التحليلية :

ويمكن أن نفصل القول في بعض المدارس التي تهمنا في مجال علم النفس

لتوضيح مدى عدائها للدين متأثرة في ذلك بالتراث الأوروبي الذي يمتد للحضارة الاغريقية القديمة وثقافة العصور الوسطى المسيحية . ونبدأ بالمدرسة التحليلية التي أسسها « فرويد » . ويؤكد هذا العالم النمسوي أن ما هو فطري هو الطاقة الحيوية « الليبيدو » Libido وهو العنصر الوراثي للشخصية الذي يحتوي على الجنس والعدوان وهو الجانب الفطري الوحيد من الشخصية هو الذي يكون « الهو » Id حسب نظريته عن الشخصية . أما بقية الجوانب أو مكونات الشخصية فهي الأنا « Ego » والأنا الأعلى Super Ego . واذا كان « الهو » يعمل طبقاً لمبدأ اللذة « الدوافع الحيوانية الفطرية » فان الأنا الأعلى يعمل طبقاً لمبدأ المثال ويتألف من أوامر الوالدين والمعتقدات والقيم المفروضة على الطفل من الخارج . وهنا يكون هناك قوتان تتناقض مع بعضهما « الهو » اللذة ، والأنا الأعلى الذي يسير طبقاً للمثاليات . وهنا يتكون « الأنا » الذي يسير طبقاً لمبدأ الواقع حيث يحاول اشباع « الهو » الذي يلح في اشباع الدوافع الفطرية الحيوانية ، في ظل ما يسمح به الأنا الأعلى من مثاليات . وبقدر قوة الأنا في التوفيق يكون تكامل الشخصية . ومع امكان الاستفادة بهذه النظرية المفسرة للشخصية في العديد من الميادين ـ وربما استقى فرويد هذه النظرية من التصور الاسلامي عن النفس الأمارة (الشهوية) والنفس اللوامة (التي تحاول الرجوع للحق) والنفس المطمئنة (أعلى مراتب السمو) ، لكنه شوه هذه النظرية الاسلامية . والاعتراض الأساسي على نظرية فرويد في الشخصية أنه قصر الجانب الفطري على الدوافع الحيوانية ، وجعل العقائد والقيم أشياء خارجية مفروضة على الانسان تتعارض مع نزعاته الفطرية وهذا خطأ فادح ، ذلك أن الانسان يتميز عن الحيوان بجانب روحي سام هي نفخة الله أو قبس من نوره سبحانه ويقول تعالى ﴿ خلقت عبادي حنفاء ﴾ ويقول تعالى ﴿ وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا﴾ (الاعراف ١٧٢) ويقول عليه السلام « ما من مولود الا ويولد على الفطرة » ثم ابواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجسانه وقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية عن أن النزعة للتدين نزعة فطرية عند الانسان بدليل عدم خلو أي مجتمع قديم أو حديث بدائي أو متحضر من شكل ما من أشكال الدين وان كانت أغلب هذه المجتمعات انحرفت عن الفطرة لأنها انحرفت عن الاسلام ، وهذا هو اثر التربية والصياغة الثقافية للفرد في تشويه الفطرة السليمة . والواقع انه

يستحيل استحداث النزعة الدينية لدى الانسان ما لم يكن لديه استعداد فطري لتقبلها،والا لأمكن استحداثها لدى الحيوانات ذات الحجم وهذا مستحيل، لأنها ليس لديها الاستعداد الفطري أصلاً لتقبلها . فمع الاعتراف بأثر البيئة فإن الاسلام يؤكد على عدة حقائق هي : أ ـ فطرية النزعة الى التوحيد . ـ ب ـ أهمية البيئة الاجتماعية في الحفاظ على سلامة الفطرة ـ جـ ـ رحمة الله بعباده حيث لا يفرض عليهم الثواب والعقاب بغير معرفة فالهداية السماوية والرسالات المتتالية قصد بها هداية البشر الى الصراط المستقيم . فإذا كان الله يلقن الناس وهم بعد في عالم الذر التوحيد ، فإنه أرسل لهم الرسل والكتب توضح لهم معالم الطريق ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ﴾ (المائدة ١٥ ـ ١٦) ويقول تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ ـ د ـ إن الله سبحانه ألهم كل نفس فجورها وتقواها وترك لهم حرية الاختيار ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (سورة الشمس) ـ هـ ـ إن الله سبحانه وتعالى فتح باب التوبة أمام البشر بل إن الله سبحانه يفرح بالعباد التائبين ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ﴿ واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ اذا دعان . . . ﴾ الآية . . . .

ومن الواضح أنه على عكس فرويد الذي هبط بالبشرية الى مرتبة الحيوانية ، فإن التصور الاسلامي الراقي ارتفع بها الى الوضع الصحيح فالانسان خليفة الله كرمه سبحانه ، ارشده وهداه وبين له معالم الطريق بعث من أجله الرسل والكتب والملائكة تحيط بالمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وعدهم بالخير في الدنيا والآخرة . وفرق شاسع بين هذا التصور الرفيع وبين التصور الاغريقي الذي انخفض بالانسان وبالآلهة الى أسفل سافلين (صراع ـ حقد ـ كراهية ـ انتقام . . . الخ) .

نموذج من المدرسة الماركسية :

وقد برزت فكرة العداء للدين بشكل واضح في مختلف المدارس النفسية والاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية المتأثرة بالفكر الماركسي ، لدرجة أن ماركس اعتبر ان الدين هو أفيون ـ مخدر ـ الشعوب ، وانكر وجود الله سبحانه وادعى ان

المادة تطورت الى أن وصلت لمرتبة الوعي الذاتي . وعلى الرغم من أن دراسته كانت منصبة أساساً على تاريخ أوربا والمهازل التي كانت ترتكب باسم الدين المسيحي ـ في شكله المشوه الذي ساد هذه العصور ـ من حيث دعمه للطبقية والاستغلال والاقطاع الكنسي واستعباد الناس ، إلا أن ماركس أخطأ خطأً فادحاً عندما عمم الحكم على الأديان كلها استناداً الى دراسة للتجربة الساقطة للدين المسيحي المشوه في أوربا فحسب ، ولو أنه قام بدراسة مقارنة للديانات السماوية الصحيحة التي كان آخرها الاسلام الحنيف ، لوجد أن هذا الدين استطاع أن يقيم مجتمعاً فاضلاً يسوده العدل والمساواة والاخاء والحب والعمل ومراقبة الله والأمن والأمان والزهد في الدنيا وحب الله وحب الموت في سبيله . . . تلك القيم والمبادىء التي افتقدتها الانسانية في أوربا وبالتالي افتقد الانسان ذاته فتردى في مهاوي الرذيلة . أما عن إنكار ماركس للالوهية فهو كفر وانحراف عن التفكير السليم وتخرج مناقشته (من خلال المنهج الاسلامي الدقيق) عن نطاق بحثنا هنا . يضاف الى هذا تردي ماركس وأنصاره في الحتمية الاقتصادية المادية وأسقط الانسان الى مرتبة الحيوانات التي تسيرها أمور مادية خالصة ، وبهذا وقع في التفسير أحادي الاتجاه ، فضلاً عن فساد التفسيرات وسقوطها عند التطبيق والتنبؤ .

نموذج من المدرسة السلوكية Behaviorism :

واذا ما انتقلنا الى المدرسة السلوكية في علم النفس التي تزعمها العالم الأمريكي « واطسن » Watson في مطلع هذا القرن ، فإننا نجدها مدرسة تحيل الانسان الى آلة معقدة ، كما تحيل فكره وسلوكه الى ظواهر آلية ميكانيكية خالصة . ويشير السلوكيون إلى أنه يجب ان يقتصر موضوع علم النفس على دراسة السلوك الحركي الصريح للانسان والحيوان عن طريق الملاحظة الخارجية الموضوعية البحتة ، أي دون الاشارة الى ما يخبره الفرد من حالات داخلية شعورية أثناء الملاحظة أو اجراء التجارب عليه . وهذا هو ما حدا بأنصار المدرسة السلوكية الى الرفض المطلق للاعتماد على منهج التأمل الباطن Introspection . وتنكر المدرسة السلوكية ـ تأثراً بالفكر الوثني القديم ـ وجود القيم والمعتقدات الداخلية الموجهة للسلوك ، وهو ما يشير ـ بشكل قاطع ـ الى نزعتها الالحادية ، فليس هناك نزعة فطرية للتدين ، كما لا يوجد تعلق فطري لدى الانسان بتوحيد

الله ، وليس هناك معتقدات داخلية . . . الـخ . بل أنهـا تنـكر حتـى وجـود القدرات والاستعدادات الفطـرية المسبقـة ، فليس هنـاك قدرات منحهـا اللـه للانسان كالذكاء الفطري أو دوافع فطرية ، فالذكاء والدوافع عندهم عبارة عن مجموعة معقدة من العادات التي يكتسبها الفرد أثنـاء حياتـه . وفي هذا يقـول « واطسن » أبو السلوكية في علم النفس « أعطوني عشرة أطفال أصحاء أسوياء التكوين ، فسأختار أحدهم جزافاً ثم أدربه فأصنـع منـه ما أريد ـ طبيبـاً ، أو فناناً ، أو عالماً ، أو تاجراً أو لصاً أو متسولاً . . . وذلك بغض النظر عن ميوله ومواهبه وسلالة أسلافه » والى هنا انتهى كلام واطسن وحاشا لله أن يكون لبشر قدرة على الخلق والتشكيل ، فقد ادعـى زعيم الالحـادية السلـوكية قدرتـه على تشكيل شخصيات الأفراد بغض النظر عن ميولهم واستعداداتهم الفطرية ، وهذا هو ما فشل فيه أعلم علماء التـربية وأكبـر علماء السلـوك ، وهـو ينطـوي على مغالطات دينية وعلمية وواقعية واضحـة . وتهتـم المدرسـة السلـوكية بدراسـة عمليات التعلم ـ طالما أن البناء الانساني في نظر أنصارها ـ بناء آلي خالص يتألف من أفعال وردود أفعال ، وهو ما جعلهم ينكرون القدرات التي أودعها الله في الانسان ليستحق الخلافة عنه سبحانه ، واقتصر موضوع علم النفس لديهم على دراسة العادات وأساليب تكوينها .

نموذج من المدرسة السلوكية المحدثة Neo - Behaviorism :

وقد أكد العديد من علماء النفس ـ من أنصار المدارس الأخرى ـ أن علم النفس انتحر على يد السلوكية ، فلا غرائز ولا قيم ولا معتقدات ولا موجهات داخلية . . . وكل ما يمكن أن نفسر من خلاله الانسان هو الفعل ورد الفعل ـ تماماً كما نفسر الماديات من معـادن وأفـلاك وصخـور ـ . وقـد حاول بعض العلماء التخفيف من غلواء هذه المدرسة مع استبقاء أساسياتها الفكرية فكونوا ما يطلق عليه المدرسة السلوكية المحدثة إستمر أنصارها في التركيز على موضـوع التعلـم وتكوين العادات ، لكنهم أعرضوا عن التفسير الآلي الخالص للانسان ، وذهبوا الى امكانية دراسة الحالات الشعورية من خلال التقرير اللفظي الذي يصف به المستبطن هذه الحالات الشعورية . والدراسة لا تهتم بتحليل هذه الحـالات ، وانما تهتم بدراسة السلوك الظاهر وحده ، أي ما يفعله الكائـن ومـا يقولـه في ظروف محددة . وهكذا سلب أنصار السلوكية الانسـان انسانيتـه ، تلك التـي

تتمثل أساساً في المعتقدات والقيم والشعور والموجهات الداخلية والحس الديني والفطرة السليمة . وهذه هي المكونات التي استحق الانسان من أجلها تكريم الله سبحانه ، واستحق الخلافة عنه سبحانه على الأرض . يقول تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (سورة الاسراء ٧٠) وقال تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ (الأحزاب ٧٢) وقال تعالى : ﴿ واذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فَقَعُوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا أبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ (سورة الحجر ٢٨ - ٣١)

نموذج من المدرسة التجريبية : Experimental - psych

أما عن المدرسة التجريبية من علم النفس ، فيجب عدم المغالاة في أهمية القياس والتجريب ، وإدعاء العلمية والموضوعية والخبرة والفهم الصادق ، فالكثير من أنصار التجريبية لا يخفون نزعاتهم الالحادية ، ومثال هذا العلماء السوفييت الذين يركزون على التجارب الفسيولوجية على أساس أن الحالات النفسية ليست إلا إنعكاس لحالات فسيولوجية فليس هناك نزعات فطرية ولا عقيدة ولا قيم . . . وانما فقط هناك حالات فسيولوجية تقاس ، وهناك إنعكاسات نفسية وسلوكية . يضاف الى هذا أن هناك حالات تستعصى تماماً على محاولات التكميم Quantification أو القياس الكمي مثل المعتقدات والقيم الدينية العميقة وعلاقة الانسان بربه وما تخفي الصدور . . . وهذا لا يعلمه الا الله سبحانه ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ . ونستطيع القول أن القياس السيكولوجي يفتت الانسان ولا يعطينا صورة عن الانسان ككل - أصله وجوهره وطبيعته وسبب وجوده ومصيره . . . وما يقدمه الباحثون من « بروفيل » بعد عدة مقاييس تجرى على الانسان ليست الا تجميع لمقاييس جزئية لا يستطيع الاجابة عن الأسئلة السابقة .

نموذج من المدرسة السوسيولوجية (دوركيم) :

اعترض دوركيم على كل الافكار الغيبية ومفاهيم النفس والروح والخلود ، فليس - عنده - مصدر إلهي للدين ولا ترجع التصورات الدينية الى عوامل غيبية

تتجاوز نطاق المجتمع الانساني ، والدين عنده « شيء اجتماعي » يقوم بوظيفة حفظ المقدسات الاجتماعية ، وهو لا يضع تمييزاً فاصلاً بين فكرة الألوهية Divinity وبين فكرة المجتمع ، لأن الالوهية في نظر هذا الملحد ليست الا المجتمع مشخصاً وهي التعبير الدقيق عن الروح الجمعي . والمجتمع عنده هو السلطة الاخلاقية العليا التي تفرض علينا كل القواعد والملزمات Imperatives ويقول « دوركيم » لم اجد في كل أبحاثي ودراساتي قاعدة خلقية واحدة ليست نتاجاً لعوامل إجتماعية خالصة ، كما أن كل الأنساق الاخلاقية التي نشاهدها في دنيا الثقافات والمجتمعات لها وظائفها الاجتماعية في التنظيم الاجتماعي . فالتنظيم الاجتماعي هو مصدر المثل العليا الاخلاقية » وقد حاول دوركيم بنفس الطريقة رد القيم Values الى الواقع الاجتماعي ، فالقيم - عنده - ليست تصورات عقلية قبلية Apriori كما ذهب بعض الفلاسفة ولكنها تأليف من الأفكار والمبادىء الجمعية . ويؤكد دوركيم أن الدين حقيقة اجتماعية ، ويدلل على ذلك بأن الدين لا يصدر الا عن الجمعي ولا يتحقق الا داخل المجتمع الذي يستمد منه كليته وضرورته ، ولهذا كان الشعور الديني - في نظره - شعوراً جمعياً على أساس أن الشعور الديني يصدر عن المجتمع لا عن الشعور الفردي .

وقد تجاهل « دوركيم » مقدمات أساسية كان لا بد له أن ينطلق منها وهي التي تتعلق بخلق الانسان ، من خلقه أصلا ، ومن أودع فيه حب الإجتماع ، وهو ينكر الغيب مع أنه شرط أساسي للايمان . ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب . . . ﴾ الآية (البقرة ٢ ، ٣) وينكر فطرية النزعة الدينية وهي أمر ثابت دينياً ، وواقعياً وتاريخياً وواضح تأثر دوركيم بالاتجاهات الثقافية الوثنية التي تمتد بجذورها الى اعماق الحضارة الاوربية القديمة .

علم اجتماع المعرفة وتفسير العداء للدين في الفكر العربي المعاصر

يكشف علم اجتماع المعرفة عن أنه يجب الرجوع الى البيئة الاجتماعية والأصول العقائدية والفكرية والطبقية للمفكر من أجل فهم نظرياته وأفكاره فهماً سليماً ، ونلاحظ عند دراسة العديد من نظريات علم النفس الغربي - وكذلك العديد من نظريات علوم الاجتماع والانسان والأخلاق - العداء الواضح والصريح للفكر الديني والنظر إلى الدين على أنه معوق انطلاق الإنسان ، وأنه

يسبب العديد من الأمراض النفسية باعتباره يشكل ضوابط خارجية منافية للاستعدادات الرئيسية لدى الانسان . ومن الواضح أن هذا القول يمثل تزييفاً واضحاً حاولت النظريات الغربية دعمه بالكثير من الدراسات النظرية والتجريبية والواقعية التي تنطوي على أغلاط وأكاذيب يسهل للفكر المحايد كشفها بسهولة .

ويمكننا في ظل التراث الاغريقي الوثني ـ الذي ظل مؤثراً بشكل قوي في الفكر المعاصر لعلماء النفس والاجتماع كما سبق ان أوضحنا ـ المدرسة التحليلية ، السلوكية ، التجريبية . . . الخ ـ أقول انه يمكننا أن نفسر في ظل هذا التراث سبب كراهية وعداء بعض المشتغلين بالعلوم الاجتماعية في العالم الغربي للتصورات الدينية ، ومحاولة تفسير الانسان بعيداً عن الفكر الديني وبعيداً عن ارتباط الانسان بالخالق ، وعن جوهر الانسان وطبيعة الوظائف التي أعده الخالق لها . وبقول آخر فإن البعد التاريخي للثقافة الأوربية هو الذي يفسر لنا غيبة الرؤية الدينية والروحية لدى العديد من النظريات الكبرى المطروحة بصدد الانسان والمجتمع والتاريخ ، وإن كان هذا القول لا يصدق على جميع النظريات الغربية ، ذلك لأن بعضها قد وضع تحت تأثير ديني واضح ، لكن حتى هذه النظريات قد وضعت تحت تأثير نزعة صليبية واضحة مثل نظريات القديس أوغسطين ـ ودينة الله ـ والقديس توماس الأكويني في العصور الوسطى ، ومثل نظريات ديكارت ومالبرانش وغيرهم في العصور الحديثة .

ولعل افتقاد المنظور الشمولي للانسان في اطار العبودية الكاملة لله الواحد القهار ، الخالق البارىء المصور ، تلك العبودية التي ترفع الانسان وتسمو به الى مرتبة الخلافة عن الله سبحانه ، أقول ان افتقاد هذا المنظور الشمولي وغياب العلة الأساسية لخلق الانسان ، هو الذي يفسر سبب تخبط النظريات الغربية حول الانسان والمجتمع والتاريخ ، وهو الذي اوقع الكثير من مدارس الفكر الاجتماعي في الغرب أسرى للحتميات والنظريات أحادية التفسير والاتجاه ، ومن هنا ظهرت المدرسة الجنسية والمدرسة الاقتصادية والمدرسة الجغرافية . . . وقد أدَّت هذه النظريات الى هلاك الانسان والمجتمعات ، ومثال هذا أن نظرية الجيوبولوطيقا التي تقرن السياسة بالبيئة الجغرافية وترجع سلوك الجماعات والمجتمعات وتفسره في اطار البيئة الجغرافية من مناخ وتربة وتضاريس وقرب أو بعد عن البحار . . . ، هذه النظرية الى جانب النظرية القومية الألمانية هي التي

أعطت القائد الألماني هتلر التبرير لغزو أوربا وتدمير حضارة الإنسان ووقوع أبشع كارثة في العالم الحديث وهي الحرب العالمية الثانية . وبالمثل فإن المدرسة الماركسية القائمة على المادية الجدلية والحتمية الاقتصادية هي التي أدت الى أبشع تجربة عاشها الانسان وأفقدته انسانيته وروحانيته وسموه وهي تجربة الشيوعية داخل روسيا وشرق اوربا والصين . وقد قامت هذه التجربة المريرة المفروضة على أبناء هذه المجتمعات على أساس مسلمات وأفكار زائفة أهمها أنه يجب تجريد الانسان من الولاءات والارتباطات الأسرية والروحية والدينية ، ويجب تغيير البناء النفسي للانسان حتى يتجرد من العقائد والقيم الأخلاقية والدينية وحبه للأسرة وارتباطه بها . . . وقد فات أنصار هذا الفكر أنهم بهذا قد جردوا الانسان من السمات الجوهرية التي تميزه عن الحيوان ، وأنهم بهذا سلبوه أهم خصائص انسانيته وحولوه الى حيوان أو آلة معقدة .

وقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة عن خطأ نظريات لويس مورجان وغيرها مما اعتمد عليه الماركسيون ، فقد أثبتت هذه النظريات عن قدم نظام الزواج والأسرة قدم الجنس البشري بل أن بداية البشر اقترنت بزواج سيدنا آدم من حواء وتكوين أول أسرة حتى قبل هبوطهما من الجنة الى الأرض . كذلك كشفت هذه الدراسات الأنثروبولوجية عن عمق الشعور الديني لدى الانسان في كل مكان وزمان ، وأنه لا يخلو مجتمع قديم أو حديث ، بدائي أو متحضر من شكل ما من أشكال الدين ـ باعتباره تصور للمقدس وعلاقات معينة بين الانسان والمقدس ـ مما يدل على فطرية النزعة الدينية عند الانسان ، غير أن هذه الديانات انحرفت عن الفطرة السليمة لدى الانسان . وقد أجاب الكفار عندما سئلوا عن سبب عبادتهم للأوثان ، أنهم لا يعبدونها الا ليقربوهم الى الله زلفى . أما عن الملكية فقد أثبتت الدراسات الحديثة أنها تمثل نزعة غريزية عند الانسان فلا يوجد مجتمع دون تملك ولا يوجد مجتمع دون دين ، ولا يوجد مجتمع بلا أسرة ، ولا يوجد مجتمع بلا طبقات ، فهذه نظم ضرورية أو ضرورات اجتماعية وفطرية لا ولن يخلو منها أي مجتمع على عكس ما زعم الماركسيون الملحدون . والنزعة الدينية نزعة فطرية عند الانسان ، فهو ضعيف في حاجة ملحة الى الارتباط بالخالق سبحانه . . وبهذا تسقط الآراء والمسلمات الماركسية التي رتبت عليها تنظيمات ونظم ، وما بني على باطل فهو باطل . والواقع أن الدين والأسرة والملكية ليست ضرورة اجتماعية فحسب ولكنها ضرورة بيولوجية فطرية كذلك ، فضعف

الانسان وطول فترة الطفولة الانسانية وحاجة الانسان الفطرية للتملك . . . الخ . كلها أمور استوجبت هذه النظم . وقد عبر القرآن الكريم تعبيراً معجزاً عن حاجة الانسان الى الأسرة. ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فحاجة الانسان الى السكن والمودة والرعاية والرحمة حاجة فطرية لا يستقيم بناؤه البيولوجى أو النفس دونها .

نحو تشخيص موضوعي صادق :

ويمكن القول أن غياب الوضعية الصحيحة للانسان كمخلوق لله سبحانه وتعالى ـ خلقه كي يؤدي وظائف معينة تتمثل أساساً في عبادة الله سبحانه وتعالى . ﴿ وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون ﴾ وفي تعمير الكون وتحقيق التعارف بين الشعوب والقبائل والجماعات ﴿ يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . إن أكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ . أقول إن غياب التصور الأساسي الموضوعي والصحيح للانسان كخليفة عن الله سبحانه وتعالى ، هو الذي أدى الى هذا الحشد الهائل المتصارع من النظريات الغربية المتناقضة والزائفة ، والى ما ترتب عليها من نظم وتنظيمات وسلوكيات زائفة مدمرة للانسان ولقيمه ومعتقداته وبصيرته ـ سواء في هذه الحياة الدنيا أو في الآخرة . فقد ظهرت النظريات التحليلية والماركسية والسلوكية والجيوبولوطيقية والوجودية . . . وقد تحدثنا عن هذه النظريات ونتحدث بايجاز عن الوجودية ، فقد ظهر هذا الاتجاه في أوربا وانقسمت الى وجودية مؤمنة وأخرى ملحدة ، أما الوجودية المؤمنة فهي وجودية صليبية ، وأما الوجودية الملحدة فأهم من يمثلها « جان بول سارتر » J. P. Sartre وكارل ياسبرس و « هيدجر » ويقوم الفكر الوجودي الملحد على مسلمة غريبة وشاذة وهي أن وجود الانسان يسبق ماهيته ، فلا توجد للانسان حقيقة مطلقة او ماهية مسبقة محددة من قبل الله أو الخالق ، ذلك أن الانسان في نظرهم يوجد أولاً ثم يحدد هو ماهيته بنفسه ، أي أن وجوده يسبق ماهيته ، وهم بهذا الهراء يتصورون أنهم يضمنون الحرية المطلقة للانسان ، فالانسان هو ما يصنعه وما يسلكه وما يفكر فيه ، وهو حر ازاء حاضره كما أنه حر إزاء ماضيه ـ يرفضه او يقبله ـ وحر ازاء مستقبله . . . الخ . وهذا يعني انه سيد نفسه ومصيره ، ولا توجد أية ضوابط تعوقه او تقيده فهو السيد الصانع المشكل . . . !! ويتضح من هذا التصور الشاذ والمريض أن الوجوديين

يؤلهـون الانسـان ويرفعونـه الى مرتبـة الخالـق ، مع انـه كائـن مخلـوق وفـانٍ وضعيف . . . !! وبعيداً عن النصوص الدينية فان الواقـع العملي يكذب هذه الآراء ويسفهها . فالانسان منذ ميلاده وحتى نهـاية أجلـه تحكمـه العـديد من الضوابـط والضغـوط والقيود ، اعتبـاراً من بنائـه البيولوجـي ـ حدوده الفـكرية واستعداداته وخصائصه الوراثية ، الى خصائصه الاجتماعية ـ لغته والاطار الثقافي (المعتقدات والقيم والعادات والآداب والملابس وأنـواع الطعـام التـي يتناولها والعبادات . . . الخ) . وهو خاضع للاطار الجغرافي الذي ينشأ فيه حرارة ، برودة ، رطوبة . . . الخ . وهو بعد هذا كله وقبل هذا كله فالانسان مخلوق خلقه الله سبحانه ، يحدد له . . في علمه الأزلي ـ لحظة ميلاده ولحظة وفاته والبيئة التي يعيش فيها وخصائصه البيولوجية ـ الجسمية ـ والنفسية ومسـيرة حياتـه من أولها الى آخرها . . . فكيف بعد هذا يزعم الوجوديون ان الانسان سيد نفسـه ومصيره ؟ وأنه هو الذي يحدد ماهيته باختياره الحر ؟ ثم كيف يمكن تفسير ظهور المجتمع المنظم الذي تحكمه قيم وقوانين وعلاقات مضبوطة اذا ما أتحنا للانسان فعل ما يريد ومتى يريد وكيف يريد ؟ وهكذا وفي ظل هذه الاعتبارات الدينية والواقعية تسقط النظرية الوجودية ، كما سقطت النظريات الماركسية والتحليلية والسلوكية تلك النظريات التي تحيل الانسان الى عبد للمادة ـ الاقتصاد او للجنس او للبيئة الجغرافية . . . فهذه كلها أوثان خلقها الانسان وعبدها من دون الله ، والخـلاص من هذا الاسر والتطـرف انمـا يكون بوضـع الانسـان في وضعـه الصحيح ، ككائن خلقه الله سبحانه وتعالى لأداء وظائف محددة ، منحه اللـه نعمة العقل والارادة وميزه بهما عن سائر خلقه وأهله بهما كي يحمـل مسئوليتـه كخليفـة عنـه سبحانـه وتعـالى في الارض . وبهـذا تسقـط وثنية الجنس ووثنية الاقتصاد ، ووثنية المناخ ، كما تسقط الـوثنيات الماركسية والتحليلية والسلـوكية والوجودية والسوسيولوجية والجيوبولوطيقية . . . الخ .

الفصل الرابع

البناء النفسي للانسان في القرآن الكريم

١ ـ بناء الانسان في القرآن الكريم والتفسير الحق
٢ ـ التعادلية الاسلامية الدقيقة في معالجة نزعات الانسان وحاجاته
٣ ـ مفهوم النفس في الاسلام
٤ ـ التحليل النفسي للانسان في القرآن الكريم
٥ ـ الانسان او الكائن المكلف من قبل الله تعالى
٦ ـ الخاتمة .

بناء الانسان في القرآن الكريم والتفسير الحق :

بعد هذا العرض الموجز لبعض النظريات المتصارعة والزائفة لبناء الانسان وطبيعته في العالم الغربـي لنـا أن نتسـاءل عن أسـاسيات المنظـور الاسلامـي الصحيح ، ذلك المنظور الذي أدى افتقاده الى كل هذا التخبط والداء الذي تعاني منه الاتجاهات الالحادية في العالم الغربي والشرقي (الاتحـاد السوفييتي وشرق أوربا والصين) على السواء .

الواقع ان الدين الاسلامي الحنيف ، وضع امامنـا رؤية شمـولية صادقـة لطبيعة الانسان ودوره ووظيفته ومصيره وبنائه النفسي ، ويجـب أن تكون هذه الرؤية أو المنظور جلية واضحة أمام المشتغلين بعلوم النفس والاجتماع والانسان ، حتى تنطلق دراساتهم ومقاييسهم وتجاربهم من فهم واقعي صحيح وصـادق ، وهو الضمان الوحيد في مواجهة الزيف والضلال والالحاد والوثنية وفقدان الطريق المستقيم والاخطاء المنهجية التي وقع فيها الكثير من مفكري الغرب والشرق على حد سواء ، واهم تلك الأخطاء تصوير الجزء على أنه الكل ، دون فهم للـكل المدروس . والانسان في واقع الأمر وطبقاً للفكر القرآنـي هو خليفـة اللـه على الارض ، يقول تعالى :

﴿ واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : انـي أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهـم قال : ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما

ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلها الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . صدق الله العظيم » (سورة البقرة)

هذا هو التفسير القرآني الكريم والصادق لماهية الانسان وظروف خلقه ووظيفته ، فهو يجمع بين الحاقبين الشهوي (الترابي الذي يشترك فيه مع الحيوانات) والإلهي الروحي السامي ومصدره روح الله سبحانه ويتمثل في العقل والارادة والقدرات العقلية العليا والذكاء . . . الخ . وهي قدرات تؤهله للعبادة والتدبر وإقامة دين الله على الارض والتعارف وتعمير الارض ، وهي القدرات التي أهلته لحمل الأمانة التي كلفه الله بها ، تلك الأمانة التي رفضتها السماوات والارض والجبال اشفاقاً ومنها :

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ﴾ . . . الآية . (الاحزاب **٧٢**)

ونستطيع من خلال هذه الرؤية القرآنية الصادقة صدقاً مطلقاً أن نتعرف على الانسان من حيث بنائه ووظيفته ، فالله سبحانه استخلف الانسان في الارض وأراد له التكاثر والتناسل لنشر دين الله على الأرض وهذا هو سبب خلق الشهوات (الرغبة في الاكل والشرب والنوم والجنس . . .) وهو مكلف بنشر دين الله وعبادته سبحانه ، وهي وظائف تحتاج الى قدرات عليا ، وهذا هو تفسير روح الله في الانسان ، تلك الروح التي تمنحه القدرات التي تؤهله لممارسة وظيفته كما رسمها له الله سبحانه .

وقد بلغ من تكريم الله سبحانه وتعالى للانسان أن يقوم بنفسه بالاعلان عن مقدمه وخلقه له على الملأ الاعلى ، والملائكة يفزعون للخبر ويراجعون ربهم طلباً للمزيد من المعلومات والمبررات التي تفسر ذلك الخلق الجديد - وهم الذين لا يراجعونه قط ﴿ لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ - ثم ينتهي الامر بالملائكة الى السجود لآدم بأمر ربهم ، وهو في جوهره سجود لمعجزة خلق الله للانسان . والخلافة عن الله تتضمن الانشاء والابتكار والتعمير والتبديل

والتغيير والارادة وهي كلها من خصائص الخالق سبحانه الذي أعطى قبسة منه للخليفة وزوده بالمعلومات .

﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ (البقرة ٣٠)

فقد زوده بالعلم والقدرة على المعرفة والاكتشاف وهي قدرة نابعة عن روح الله التي زود بها الانسان . وهذه الطاقة المعرفية الكبرى منحها الله للانسان وسخر له ما في السماوات والارض .

﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعاً منه ﴾

غير أن الانسان مفطور ـ بحكم الجانب الترابي الحيواني فيه ـ على حب الشهوات ، أوجدها الله سبحانه وتعالى في الانسان لحكمة معينة ـ إستمرار الجنس البشري (غريزة الجنس) ولرعاية الآباء للابناء (غريزة الوالدية) والحفاظ على الذات (الأكل والشرب والنوم) وحفظ الدين والنفس والمال والولد (غرائز المقاتلة والعدوان . . الخ) يقول تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ (سورة الأعراف) .

وقد أخضع الله سبحانه وتعالى الانسان لاختبار يقيس به عزمه وارادته وهو اختبار إلهي صادق وليس كالاختبارات النفسية الوضعية المعرضة للخطأ والتحريف والكذب وعدم الثبات ـ وقد كان هذا الاختبار الالهي إختباراً موقفياً في الجنة أولا قبل الأرض ، وذلك بنهيه من الاقتراب والأكل من شجرة معينة ، تلك الشجرة التي صارت شهوة بالنسبة اليه غير أن وسوسة الشيطان أضعفت عزمه وارادته والتزامه فسقط في هذا الاختبار ولم يصمد أمام المغريات طمعاً في شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى الذي وعد به الشيطان .

﴿ ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾

وقد خلق الله الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه ، وهو سبحانه أقرب اليه من حبل الوريد .

وعلى عكس التصور الكنسي الزائف الذاهب الى أن خطيئة آدم خطيئة أبدية لازمته وتلازمه الى يوم الدين ، وأن المسيح إفتدى البشرية بدمه وسوف يعود لافتدائها مرة اخرى ، فإن التصور الانساني تصور واقعي صادق فهو يوضح

كيف أن الانسان كائن ضعيف جُبل على حب الشهوات ومعرض لوساوس الشيطان ، غير أن هذا الضعف البشري ليس ضعفاً ابدياً ، كما أن خطيئة آدم في الجنة ليست ملازمة له الى يوم الدين ذلك أن الله اجتباه وتاب عليه وهدى ، ورحمة الله وسعت كل شيء .

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ، قلنا إهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خفو عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (البقرة **٣٦ - ٣٨**) .

التصنيف الاسلامي للنفس .

فإذا كان في النفس الانسانية ضعفاً فطرياً ، فإن الله زودها كذلك بمقومات تقواها وسموها وارتفاعها الى الدرجات العلى . وهنا تسقط النظرية الفرويدية التي تؤكد على أن النفس مفطورة على الشهوات فحسب - جنس وعدوان - وأن القدرة على الارتفاع فوق الغرائز وضبط الشهوات والتدين والتمسك بالقيم . . . أمور مكتسبة كلها ضد الفطرة يقول تعالى :

﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (الشمس **٧ - ١٠**)

ويقوم التحليل الاسلامي الموضوعي الصادق للنفس على أن هناك ثلاثة مراتب للنفس الانسانية وهي :

أولا : النفس الأمارة بالسوء وتمثل النفس الشهوية العدوانية الأنانية وهي جوانب فطر عليها الانسان .

﴿ وما أبرىء نفس إن النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم ﴾ (يوسف **٥٢**)

ثانياً : النفس اللوامة ، وهي النفس التي تراجع صاحبها وتحاول العودة به الى الحق والاستغفار والى الطريق المستقيم ويقول سبحانه :

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ (القيامة **١ - ٢**) .

ثالثاً : النفس المطمئنة وهي أرقى مراتب النفس بايمانها بالله وملائكته وكتبه

ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، واتباع ما أمر الله والانتهاء عما حرم يقول تعالى :

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ (الفجر ٢٦ - ٣٠) .

ويمكن القول ان فرويد قد شوه هذا التصنيف الاسلامي الثلاثي للنفس بنظريته في الشخصية التي تقسم جوانب الشخصية الى « الهو »ID وهو الجانب الغرزي الشهوي المورث (جنس وعدوان) والأناEgo وهو الجانب الواقعي للشخصية وهو مكتسب والأنا العلياSuper Ego وهو الجانب المثالي وهو مكتسب كذلك وهو مضاد لطبيعة الانسان ويضع في هذا الجانب القيم والمعتقدات الدينية والمثل العليا . . . ويعتبرانها سبب العديد من العقد النفسية نتيجة اعاقة الدوافع الفطرية وإصابة الانسان بالاحباط . وتجاهل فرويد فطرية النزعة الدينية وفطرية ارتباط الانسان بالخالق ولولا هذا لما كان هناك دين ولا مثل ولا قيم ، وأن اختلاف الاديان هو انحراف عن الفطرة السليمة متمثلاً في الاسلام الجنيف .

التعادلية الاسلامية في معالجة نزعات الانسان وحاجاته :

تتسم المعالجة الاسلامية لحاجات الانسان ورغباته بالتوازن الدقيق المعجز ، فالانسان مؤلف من جانب غرزي ترابي وجانب روحي إلهي ﴿ واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (صٓ ٧١ - ٧٢) .

وهو بهذا الشك الكائن الوحيد الذي له طبيعة مزدوجة ، زوده الله سبحانه بهذه الطبيعة ليحقق وظيفته الكبرى التي خلق من أجلها . فالحيوانات تمثل الجانب الشهوي الخالص ، وفي الطرف المقابل هناك الملائكة الذين يمثلون الجانب النوراني الخالص . واذا كان للانسان طبيعة مزدوجة فلا بد من اشباع الجانبين بشكل متعادل متوازن حتى لا يطغى احدهما على الآخر ، ولو شاء الله أن يكون الانسان روحاً خالصاً لفعل ، ولو أراد أن يكون مادة خالصة لفعل . وبما أنه سبحانه أراد له هذه الطبيعة المزدوجة فلا بد من اشباع حاجات البدن وحاجات الروح بشكل يحول دون طغيان أي منهما على الآخر . وهذا هو ما كفلته الشريعة الاسلامية التي ترفض الاسراف والتطرف . فهي تعارض الاتجاه

المادي الذي يفرط في ارضاء الجانب الجسمي الغرزي لأن هذا يهبط بالانسان الى مرتبة الحيوانية ويفقده سموه الروحي وتميزه ويفقده وظيفته التي أرادها الله سبحانه له .

وتقف الشريعة الاسلامية ضد التطرف في الناحية المقابلة والتي تتمثل في المذاهب الصوفية المتطرفة التي تدعو الى الرهبانية على أساس معادلة خاطئة تصوروها، وهي أن الجسد والروح على طرفي نقيض فاذا ضعف الجسد وصلت الروح الى درجة من الشفافية والسمو واستطاعت ادراك الله سبحانه ومعاينته . ولهذا يجب اضعاف الجسد واماتة الشهوات حتى تصفو الروح وتصل الى المقامات والحالات العليا (مقام العري المطلق بلغة الصوفية أو تصل الى النرفانا (الجنة) كما هو الحال عند بعض أنصار بوذا . . .) .

وعلى عكس هذه الاتجاهات المتطرفة فان الاسلام يعالج الأمر بتحقيق التوازن الكامل بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح ، أو بين مطالب الدنيا ومطالب الدين . يقول تعالى :

﴿ وإبتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ . . . (سورة القصص) .

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. . . ﴾ (الاعراف) .

﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . . . ﴾ (الاعراف) .

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم . . . ﴾

ويقول الأثر :

« إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

وعندما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام ان هناك من يبالغ في العبادة بقيام الليل كله للتعبد ، وصيام الدهر كله ، والامتناع عن مخالطة النساء ، فقال عليه السلام : «أما وإني أخشاكم لله وأتقاكم له فاني أقوم وانام ، واصوم وافطر ، واتزوج النساء » وخرج عليه السلام بقاعدة عامة وهي « فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وقد نظمت الشريعة الاسلامية علاقة الانسان بالله كما نظمت علاقة الانسان بالآخرين ، وأباحت له ممارسة نزعاته الفطرية - أكل وشرب وجنس وتمتع . . . في اطار ما هو محلل وفي اطار من التوازن والتعادلية والابتعاد عن المحرمات .

وقد زود الله سبحانه الانسان بطاقات الصراع والنضال والجهاد حتى يستطيع مواجهة الصعاب ويشق طريقه في الحياة ويظل يمارس وظيفته الكبرى التي خلق من أجلها ، وهي طاقة ضرورية لاتمام وظيفته ورسالته على الارض . يقول تعالى :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (البقرة ٢٥١) .

فالصراع عملية اجتماعية أساسية في الحياة . وقد استند بعض الباحثين المسلمين - مثل ابن خلدون - الآية السابقة في التدليل على صحة نظريته في العصبية . يضاف الى هذا أن الله سبحانه وتعالى اجتبى آدم عليه السلام وتاب عليه وهدى وجعل له في الأرض مستقر ومتاع الى حين ﴿ ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ﴾ .

فاذا كان الانسان مزوداً بطاقات النضال والصراع ، فانه في حاجة الى الاستقرار والمتاع ، وهو في حاجة مستمرة متصلة للاتصال بالله لتلقي الهداية ﴿ فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وتبدأ هداية الله للانسان قبل الميلاد وهم بعد في عالم الذر ﴿ واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ﴾ (الأعراف ١٧٢) .

وقد كشفت الدراسات الأنثروبولوجية المختلفة ان اتجاه الانسان الى الله اتجاه فطري عام بين البشر ، فلا يوجد مجتمع قديم أو حديث - بدائي أو متحضر - يخلو من نظام ديني يتعلق بتصور معين للاله وبعبادات وشعائر يتقربون بها إليه . وإذا كانت هذه التصورات - في كافة المجتمعات غير الاسلامية - قد انحرفت عن الفطرة السليمة (لان الدين عند الله الاسلام) فإن هذا يرجع الى اختلال العقل واختلال التربية من حيث مضامينها . ومن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، ومن يكفر فعليه وزره . وهذا هو اسلوب التربية الاسلامية ،

توضيح الحقائق ﴿ وهديناه النجدين ﴾ (البلد ٩) فاما أن يشكر وأما ان يكفر وهذا هو اسلوب الترهيب والترغيب » .

مفهوم النفس في الاسلام :

تحدث فلاسفة اليونان عن العقل والروح والنفس ، ورتبوها حسب صفائها وعلو جوهرها ، فكان العقل عندهم أولها وأشرفها لأن جوهر العقل المطلق (حسب تصورهم) هو الله سبحانه والعقل الإلهي عندهم هو العقل الفعال Poietikos (*) المنزه عن المادة والهيولي وعنه يصدر العقل الانساني أو العقل المنفعل Pothetikos . ثم تأتي الروح والنفس بعد ذلك في الصفاء والشرف وعندهم الروح أقرب الى عنصر النور والنفس أقرب الى عنصر الهواء والتراب . واذا ما انتقلنا للاسلام الحنيف ، فإننا نجده يرتب هذه القوى حسب مدى اقترابها من الصفات الالهية وأدناها هي أبعدها عن هذه الصفات . واذا كانت الروح هي العنصر الخالد في الانسان وهي المستمدة من روح الله وهي الجانب الخافي عن مداركنا الحسية واستأثر الله تعالى بعلمه لأنه سر الوجود ولا قدرة للعقل الانساني المحدود عن الاحاطة به ووعيه الا بما يناسبه من الاشارة والتقريب ، قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً ﴾ .

أما العقل والنفس في بيان القرآن الكريم فالراجح أن النفس اقرب الى الطبع والقوة الحيوية التي تشمل الارادة كما تشمل الغريزة وتعمل واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتي في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التي يدركها النوم ، والقوة التي يزهقها القتل ، والقوة التي تحس النعمة وتلهم الفجور والتقوى وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة ، فهي القوة التي تعمل وتريد مهتدية بهدى العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة . قال تعالى :

ـ ﴿ الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ (سورة الزمر ٤٢) .

(*) ارجع الى دراسة العقاد بعنوان : الانسان في القرآن ـ دار نهضة مصر .

- ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ (الأنعام) وإذا ذكر قتل النفس في القرآن الكريم فهو يعني قتل الانسان أو الناس على حسب الخطاب الى الفرد أو الجماعة .

- ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ (المائدة ١٠٥) .

- ﴿ من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ (سورة المائدة ٣٢) .

- ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ (سورة النساء ٢٩) .

- ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ (سورة البقرة) .

ولكن الانسان أعم من النفس لأنه مسؤول عن نهيها عن الهوى :

- ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ (سورة النازعات ٤٠ - ٤١) .

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هي « الذات الانسانية تدل كل قوة منها على الذات الانسانية في إحدى صالاتها ولا تتعدد الذات الانسانية بأي صورة من الصور لأنها ذات نفس أو ذات عقل أو ذات روح فإنما هي انسان واحد في جميع الحالات ، وهي تعبيرات عنها في جميع اللغات تقضي بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرها . وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب اليهما من وعي باطن ووعي ظاهر ومراقبة لله سبحانه ووجدان وخيال وذاكرة وبديهة وذكاء وروية . . . الى غير ذلك من العمليات العقلية والوجدانية في علم النفس الحديث ، تلك التي تتعدد مسمياتها للتمييز بين الأعمال والوظائف وان لم تتعدد في مصدرها - المعلوم أو المجهول .

وقد ذكرت النفس في القرآن الكريم بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون .

أ) فقوة الدوافع الفطرية الغريزية الموروثة تقابل **النفس الأمارة** .

- ﴿ وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ (يوسف ٥٣) .

ب) وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة :

- ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (سورة الشمس ٦ - ١٠) .

جـ) وقوة مراقبة الله سبحانه وتعالى تقابل النفس اللوامة وهي النفس التي يقع منها الحساب كما يقع عليها وجاء ذكرها من أجل ذلك مقروناً بيوم القيامة في سورة القيامة .

- ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ (سورة القيامة ١ - ٢) .

د) النفس الموصوفة بالابصار والعلم بمواقع الأعذار :

- ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ (القيامة ١٤ - ١٥) .

هـ) وقوة الايمان والثقة التامة في الله أو في الغيب تقابل النفس المطمئنة .

- ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي الى ربك راضية مرضية ﴾ (سورة الفجر) .

و) وفي كل موضع من هذه المواضع تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى فتجمعها خاصة واحدة هي خاصة الانسان في القرآن الكريم ، ذلك الكائن المكلف من الله سبحانه والمسؤول أمامه سبحانه وتعالى .

- ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ (سورة المدثر ٣٨) .
- ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ (سورة الأنبياء) .
- وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً (المزمل ٢٠) .

- ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ (سورة آل عمران) .

- ﴿ واذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت واذا البحار فجرت واذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت . يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ (سورة الانفطار ١ - ٦) .

- ﴿ واذا النفوس زوجت . واذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . واذا السماء كشطت واذا الجحيم سعرت واذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت ﴾ (سورة التكوير ٧ - ١٤) .

وجملة ما قيل في معنى « النفوس زوجت » أي تقترن بمقوماتها وأعمالها أو تضم الى أشباهها ونظائرها وقرنائها . فحساب النفس من حساب الانسان ولكن الذات الانسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة ، فإن الانسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق سبحانه الذي لا يعلم الانسان منه الا ما علمه الخالق سبحانه . ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة ومستلهم لهداية الروح .

فالانسان - طبقاً للتصور القرآني الكريم يعلو على نفسه بعقله ويعلو على عقله بروحه . فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز ودوافع الحياة الجسدية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله . . . وحق العقل أن يدرك ما وسعه وما فتح الله به عليه على قدر محدودية العقل الانساني ولكنه لا يدرك الحقيقة المطلقة إلا من خلال الايمان المطلق بالله الخالق البارىء المصور .

التحليل النفسي للانسان في الاسلام :

يقوم التحليل الاسلامي للانسان - كما سبقت الاشارة - على أنه مكون من روح وجسد والايمان بالروح إحدى العقائد الغيبية في القرآن الكريم ، وهذه العقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين في كل الديانات السماوية . ويمكن القول أن ميزة العقائد الغيبية في القرآن الكريم أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسؤول ، لأن الانسان دين الفطرة تتفق مبادئه وأسسه مع أساسيات التفكير السليم . والاسلام هو في واقع الأمر اسلام الأمر كله لله الخالق المعبود وحده لا إله الا هو سبحانه . والروح والجسد في القرآن الكريم متكاملان يمثلان معاً الذات الانسانية ، وتتم بهما الحياة ، ولا تنكر أحدهما في سبيل الآخر فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس الجسد حقاً ليوفى حقوق الروح ، كما لا يجوز له أن يبخس حقوق الروح من أجل أن يوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الاسراف في مرضاة هذا أو مرضاة ذاك . وهذا هو ما سبق أن اطلقنا عليه التعادلية الاسلامية الدقيقة في معالجة مكونات البناء الانساني .

وينهى القرآن الكريم عن تحريم المباح كما ينهى عن اباحة المحرم .

ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ (المائدة ٨٧ ـ ٨٨) .

والقرآن الكريم يعلم المؤمن أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن ينفق منها غير مسرف في انفاقه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها .

ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾ (البقرة) .

ـ ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (البقرة ١٧٢) .

ومن تمكين الانسان في الأرض أن يبتغي فيها معيشته ويسيم فيها مطبته ، وأن يتخذ منها زينته ، ويتم بها عدته ، ولا يزهد في شيء من خيراتها يخرجه لنفسه أو تخرجه له الأرض من فضل ربه . فالاسلام ضد الرهبانية والانعزالية والبعد عن الدنيا بزعم التعبد كما يفعل بعض المتصوفة .

ـ ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات . إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون ﴾ (النحل ٨ ـ ١١) .

ومن رحمة الله سبحانه وتيسيره على العباد أن جعل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة . ولعل في هذا رد حاسم على المدرسة الفرويدية التي تزعم أن الدين محبط لنزعات الانسان ويسبب له الاحباط والأمراض النفسية نتيجة قمعه للشهوات والزينات . فهذا فهم زائف للدين . يقول تعالى :

ـ ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه

لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (الأعراف ٣١ - ٣٢) .

والله سبحانه وتعالى لا يحرم الزينات والطيبات ، وانما يحرم الفواحش والاثم والظلم وكل ما يؤدي الى التهلكة كالشرك بالله سبحانه .

- ﴿ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (الاعراف ٣٣) .

- ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ (الأعراف) .

وهكذا يحقق الاسلام التعادلية بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد ، أو مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، فلا صراع ولا تناقض ولا انفصام .

- ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ (القصص) .

فليس السعي في سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس هناك تناقض بين الروح والجسد أو بين الدنيا والآخرة أو بين السماء والأرض أو بين الظاهر والباطن أو بين الغيب والشهادة ، وعقيدة الاسلام عقيدة متوازنة تحقق الالتقاء والحب والهداية والعدل ، وتنمي الجسم كما تنمي الروح في غير إسراف ولا جور عن السبيل « ولو شاء لهداكم أجمعين » وقد عفى الله الانسان من التفكير في أمر الروح ، لأنها من أمر الله وطالبه بامعان الفكر في مخلوقات الله ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ (الاسراء) .

الانسان أو الكائن المكلف من قبل الله سبحانه :

يدرك المحلل للقرآن الكريم أنه كتاب الله لهداية الانسان وهو كتاب تبليغ واقناع وتبيين . وقوام هذه الفضيلة التوافق المعجز التام بين أركانه وأحكامه وبين عقائده وعباداته وبين حجته ومقصده . فكل ركن من أركانه يوافق في تفصيله سائر الأركان . وليس أتم ولا أكمل من التوافق بين تمييز الانسان بالتكليف وبين خطاب العقل في هذا الكتاب المبين بكل وصف من أوصاف العقل وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الانسانية ومكان الانسان في القرآن الكريم أشرف مكان في

ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر وفي ميزان الخليقة بين مختلف الكائنات ، ذلك لأنه ـ وحده ـ الكائن المكلف لحمل الأمانة والمسؤولية . **والكائن المكلف ،** أشرف وأسمى من قول الفلاسفة الكائن **الناطق أو الحيوان الناطق ،** فليس النطق بشيء إن لم يؤهل لحمل أمانة التكليف . ويقابل هذا التكليف مخاطبة الانسان في القرآن الكريم وتوجيه الخطاب الى العقل (نغمة الله للانسان) بكل ملكة من ملكاته وكل وظائفه التي يتحدث عنها علم النفس الحديث (التفكير والتذكر والتخيل والاسترجاع والتعرف . . . الخ) .

فالعقل وازع يعصم صاحبه من كل ما يأباه له التكليف . والعقل فهم وفكر يقلب في وجوه الأشياء وفي بواطن الأمور والعقل رشد يميز بين الهداية والضلال .

والعقل روية وتدبر . والعقل بصيرة تنفذ وراء الابصار والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر ، وتجمع العبر مما كان لما يكون وتحفظ وتعي . . والعقل بكل هذه المعاني موصول بكل حجة من حجج التكليف وكل أمر بمعروف وكل نهي عن منكر أو محظور . هذا العقل حجة على المكلفين .

ـ ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ (آل عمران **١٩٠ ـ ١٩١**) .

ـ ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم وما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ﴾ (الروم ٨) .

والرسالة المحمدية رسالة فريدة ، فقد كانت الأمم قبل البعثة المحمدية ، تفهم أن النبوة إستطلاع للغيب وكشف للأسرار يستعان بها على رد الضائع ويستخبرونها عن الطوالع ، وكان من تلك الأمم من يحسب ـ بغير حق ـ أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع اليه بالهدايا والقرابين ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعاً للنوازل التي يستحقونها فجاءت عقيدة الاسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة في الدعوات الدينية ، ولا حاجة بعده الى تجديد ولا استطاعة لاضافة جديد ، لأنه دين عظيم متكامل ، يخاطب في الانسان صفته الباقية وخاصته

الملازمة والمميزة وهو العقل المسؤول الذي يحمل تبعته ومسؤوليته وحده امام الله سبحانه . فالنبوة المحمدية نبوة مبشرة منزهـة هادية مبلغة مبينة لا تملك للمؤمنين نفعاً ولا ضـراً، ولا تعمل لهم عملا غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيئتهم اذا اهتدوا بالعقل السليم ، وما يشاءون الا ان يشاء اللـه ، وهـذا هو جوهـر الرسـالات السابقة لكن الناس لم يفهموها .

ـ ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولاضـراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا الا نذير وبشـير لقـوم يؤمنـون ﴾ (الأعراف) .

ـ ﴿ لقد ارسلنا نوحاً الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره واني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (الأعراف ٥٩) .

ـ ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني مَلَكٌ . إن أتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ (الأنعام ٥٠) .

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن المعجـزات لا تجـدي مع المكابـرين وذوي العقول المنحرفة .

ـ ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (الحجر ١٥) .

ـ ﴿ وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون » (الحجر ١١) .

وقد سبقت الدعوة الاسلامية دعوات كثيرة وعظيمـة ـ إعتبـاراً من سيدنـا ابراهيم عليه السلام وحتى محمد عليه الصلاة والسلام ـ غير أن الدعوة الاسلامية تتميز عنها جميعاً في أنها موجهة الى الناس كافة خاطبت الانسانية كلها ، وجاءت بفكرة الانسان المسؤول المحاسب الحامل للأمانة ، كما جاءت بأصـول تنـظيم اجتماعي كامل متكامل وكانت خاتم الرسالات وأكملها واعظمها .

ولا يعذر الاسلام انساناً يعطل عقله ليطيع السادة والمستكبرين .

ـ ﴿ قالوا فيم كنتم . قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (النساء ٩٧) .

ـ ﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ (سبأ ٣٢) .

والعقل الانساني نعمة من الله يجب على الانسان ان يستخدمه لادراك الحقيقة والانسان مسؤول عن فعله ويجب عليه أن يسأل ويسترشد بأهل الذكر .

ـ ﴿ وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم . فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (النحل ٤٣) .

والانسان مسؤول عن أعماله أمام ربه ، ولا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا أمة بوزر أمة .

ـ ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ (الطور ٢١) .

ـ ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ (البقرة) .

ومناط المسؤولية في القرآن الكريم ـ التبليغ الإلهي لهداية الناس عن طريق الرسل ، ثم علم الناس بالرسالات ، ثم عقل أودعه الله في الانسان يفهم به هذه الرسالات ، ثم عمل يقوم به الانسان يحاسب عليه ولا تحق التبعة على أحد لم يبلغ في مسائل الغيب .

ـ ﴿ ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ (يونس ٤٧) .

ـ ﴿ وإن من أمة الا خلا فيها نذير ﴾ (فاطر ٢٤) .

ـ ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (الاسراء) .

وبالنسبة للعلم فان أول سورة نزلت على رسولنا الكريم ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ تشير الى أهمية العلم . وأما بالنسبة للعمل فهو مشروط في القرآن الكريم بالتكليف الذي تتسع له طاقة المكلف وبالسعي الذي يسعاه لربه ولنفسه .

ـ ﴿ لا يكلف الله نفساً الا وسعها ﴾ (البقرة ٢٨٦) .

ـ ﴿ وأن ليس للانسان الا ما سعى ﴾ (النجم ٣٩) .

- ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (الزلزلة ٧ - ٨) .

وقد أوضح القرآن الكريم مساوىء الانسان ، وينفرد الانسان بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره - لأن السيئة والحسنة لا يوصف بها مخلوق غير مسؤول . فهذا الانسان يوصف بالكفر والظلم والطغيان والفجور ، لأنه دون غيره مسؤول وحر وعاقل ومكلف وأهل للايمان والتعقل .

- ﴿ ان الانسان لظلوم كفار ﴾ (ابراهيم ٣٤) .
- ﴿ ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ﴾ (العلق ٦) .
- ﴿ ان الانسان لفي خسر ﴾ (العصر) .
- ﴿ بل يريد الانسان ليفجر امامه ﴾ (القيامة ٥) .
- ﴿ ان الانسان لربه لكنود ﴾ (العاديات ٦) .
- ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ (التين ٤ - ٥) .

ويشير القرآن الكريم الى بيان أصل الانسان الجسمي ولا تخل هذه الاشارات من بيان تكريم الله سبحانه له وأنه مخلوق مسؤول .

- ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً . فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون ١٢ - ١٤) .

ويوضح سبحانه أن الهدى هدى الله .

- ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (ابراهيم ٢٧) .

الخاتمة :

واكتفي بهذا العرض الموجز للتصور القرآني الكريم للانسان وتكوينه النفس وطبيعته وامكانياته ورسالته ودوره المخلوق من أجله . فالانسان كائن خلقه الله سبحانه وتعالى من جانبين جانب ترابي شهوي غرزي (النفس الأمارة) وجانب إلهي رفيع يتمثل في نفخة من روح الله سبحانه ، ولهذا فهو ذو طبيعة مزدوجة

تختلف عن الحيوانات التي تحركها الغرائز ، كما يختلف عن الملائكة الذين يفتقدون الى الارادة ولا تحركهم الشهوة ولا يعصون الله ما أمرهم . ويفعلون ما يؤمرون .

وقد زود الله سبحانه الانسان بطاقات عديدة أهمها طاقة الايمان والقدرة على التوحيد حيث خاطب الناس واشهدهم على ألوهيته وربوبيته وهم بعد في عالم الذر ، كما زودهم بالعقل والقدرة على التفكير والتأمل والاختراع واستخدام الأجهزة ، وامدهم بالذكاء والقدرات العقلية العليا . وزودهم **ثالثاً** بطاقة الصراع والجهاد والنضال ، وأمدهم **رابعاً** بالارادة الحرة في اطار علم الله الأزلي ، لدرجة انه جعل ارادته سبحانه مقضية عن طريق ارادة الانسان ووجوده وأفعاله .

- ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد **١١**) .
- ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ﴾ (البقرة **٢٥١**) .
- ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ (الروم **٤١**) .

وهو قبل هذا كله وبعده موجه للتعرف على الخالق وعبادته .

- ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . . . ﴾ (الآية) .

وهو مستعد ـ بشكل فطري ـ لتلقي كلمات الله وتلقي هدايته سبحانه . ولهذا فانه لا عذر للكافر ـ بعد علمه بالاسلام ـ في الاستمرار في الكفر . لذلك فانه لديه القدرة على الاستقرار في الأرض وتعميرها والانقسام الى شعوب ومجتمعات وجماعات وقبائل وتحقيق التعارف . ونقطة الضعف عند الانسان هي الشهوة ، وهي الطريق الذي ينفذ منه الشيطان الى نفس الانسان ، غير أن الشريعة الاسلامية نظمت أسلوب ممارسة الانسان لشهواته في اطار ما هو مشروع وبعيداً عن المحرمات والمؤمن كيس فطن ، يستنير بنور القرآن الكريم وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .



الفصل الخامس

دوافع السلوك الانساني

التفسير الإسلامي

١ ـ التصور الاسلامي للدوافع المحركة لسلوك الانسان

٢ ـ اهمية دراسة الدوافع

٣ ـ التعريف العلمي للدوافع :

٤ ـ أهم النظريات المفسرة للدوافع :

أ ـ اتجاه انصار نظريات الغرائز

ب ـ الاتجاه السلوكي

جـ ـ الاتجاه المجالي

٥ ـ تصنيف الدوافع :

أ ـ الدوافع والاستعدادات الفطرية وتصنيفاتها

ب ـ الدوافع والاستعدادات المكتسبة
الشعورية (العواطف)

جـ ـ الدوافع والاستعدادات المكتسبة اللاشعورية
(العقد النفسية)

٦ ـ الحاجات النفسية بين الاسلام وعلم النفس الحديث

التصور الاسلامي للدوافع المحركة لسلوك الانسان :

نستطيع ان نقف على الاسلوب المعجز لمعالجة الاسلام الحنيف لقضية دوافع السلوك الانساني من دراسة الكتاب والسنة فقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ان يتكون الانسان من جانبين متقابلين ، الأول الجانب الترابي او المادي او الشهواني ، وهو ذلك الجانب الذي يشترك فيه الانسان مع الحيوانات ، ولكنه يختلف في اسلوب الممارسة والاهداف اختلافاً واضحاً عن الحيوانات ، أما الجانب الثاني فهو الجانب الروحي متمثلاً في الروح الإلهية التي تعلو بالانسان الى درجة الملائكة وان كان الناس يختلفون عن الملائكة في جانب الارادة وامكانية فعل الشيء ونقيضه وحرية الاختيار بفعل الحرية التي منحها الله سبحانه وتعالى للانسان ، والتي سلبها من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والحديث عن الدوافع ، وهو من أهم الموضوعات التي يهتم بها علم النفس - يتطرق الى النوعين من الدوافع الانسانية المادية الشهوية ، والروحية السامية - وكذلك الدوافع الفطرية التي يولد الانسان مزوداً بها من قبل الله سبحانه وتعالى في شكل امكانيات واستعدادات تؤهله لممارسة دوره ووظيفته المكلف بها من قبل الخالق سبحانه وتعالى ، وتلك التي يكتسبها او يتعلمها من مجتمعه بفعل مختلف ميكانزمات التربية والتطبيع الاجتماعي ، وهي دوافع يكتسبها بفعل قدرته على التعلم والاكتساب ، وهي قدرة اودعها الخالق سبحانه في الانسان من اجل أداء وظائفه المخلوق من أجل ادائها والتي استحق من اجلها التكريم الإلهي . . . (ولقد كرمنا بني آدم . . . الآية) كذلك فان هناك من الدوافع التي تدفع الانسان وتحرك سلوكه ما يكون الانسان واعياً بها فاهماً اياها متنبهاً اليها ، وهي ما يطلق عليه الدوافع الشعورية . وهناك من دوافع السلوك ما لا يكون الانسان متنبهاً اليها واعياً بها ، ومع هذا تحرك سلوكه دون علم منه ،

وهي ما يطلق عليها الدوافع اللاشعورية أو غير المشعور بها . وتفيدنا هذه الأخيرة بشكل واضح في تشخيص الكثير من حالات عدم الاستواء النفسي او الامراض النفسية ذات الأساس الوظيفي كالقلق والعصاب والامراض النفسية والاكتئاب والتخلف الدراسي . . . الخ .

ويجب هنا ان نشير الى ان قبول فكرة الدوافع الشعورية واللاشعورية لا يعني قبول النظرية التحليلية (التحليل النفسي) بأكملها ، تلك التي تزعمها العالم النمسوي « سيجموند فرويد »S .Freud ذلك لما تتضمنه من العديد من جوانب القصور التي نذكرها في حينه .

قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ .

فالله سبحانه وتعالى هو الذي اوجد في الانسان هذه الحاجات والشهوات ولم تنكرها سبحانه عليه ، ولكنه نظم للانسان اسلوب ممارستها بشكل يحفظ للانسان بقاءه وكرامته واتزانه وسموه . فالاكل والشرب لازم لبقاء الانسان ، والجنس لازم لبقاء النوع الانساني للقيام بواجبات الخلافة عن الله سبحانه . والقتال والعدوان والملكية والحنو والوالدية . . . كلها دوافع لازمة لاستمرار الانسان وأمنه وتربية ابنائه وتحمل مشاكلهم . . . الخ . فهي دوافع يعترف بها الاسلام ويعترف بحق الانسان في ممارستها في اطاراتها المشروعة كما حددها سبحانه قال تعالى :

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

فالله سبحانه هو خالق الانسان بدوافعه ، وهو سبحانه خالق الضوابط المنظمة لممارستها وهنا تبرز التعادلية الدقيقة في معالجة الاسلام للدوافع . يقول تعالى ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ ، ويقول تعالى ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ وعندما علم عليه الصلاة والسلام عن المسرفين في العبادة والذين يصومون الدهر كله والذين لا يتزوجون النساء ، قال عليه السلام انه ـ

وهو أخشى المؤمنين لله ـ يقوم وينام ، يصوم ويفطر ، ويتزوج النساء وخرج بقاعدة عامة وهي « فمن رغب عن سنتي فليس مني » . فالاسلام لا ينكر على الانسان حقه في ممارسة دوافعه ـ كما تذهب بعض المذاهب المتطرفة في الرهبانية والصوفية ، كذلك فهو لا يدعو الى الاسراف في ممارسة الشهوات دون ضابط ، كما تدعو النزعات الاباحية المتطرفة كالماركسية والوجودية وحركات الهيبيز والخنافس في الغرب . وبهذا يبرز الاسلوب المعجز والمتزن في اسلوب معالجة الاسلام لقضية الدوافع الانسانية ويخلق عند المسلمين والمؤمنين دوافع ايمانية فلا يؤمن الانسان حتى يكون الله ورسوله احب اليه من نفسه . فالمؤمنون يحبهم الله ويحبونه ، يرضى الله عنهم ويرضون عنه ، يمتنعون عن ممارسة الفواحش التزاماً وكرهاً فيها وليس نتيجة للضغوط الخارجية .

أهمية دراسة الدوافع :

لا يمكن ان يكتمل تفسيرنا للسلوك الانساني الذي هو موضوع الدراسة في علم النفس الا بافتراض وجود دوافع للسلوك ، مع فهم طبيعة هذه الدوافع . فكل سلوك يكمن وراءه دافع او دوافع معينة تحركه وتستثيره وتوجهه نحو هدف معين . فما الذي جعل الرسول عليه الصلاة والسلام يتحمل في صبر وثقة اذى الكفار الذي لا يمكن تصوره ، وما الذي جعله يخاطر بحياته في سبيل نشر دعوته ، وما الذي دعا كبار القادة الاسلاميين الى التضحية بالنفس والمال والولد في سبيل اعلاء كلمة الله .

انه الايمان بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره . وتستطيع وبنفس الاسلوب التساؤل ما الذي يحدو بشخص الى ان يسلك السلوك الاسلامي الفاضل ، بينما يتجه آخر الى الرذيلة والفسق والفجور ، وما هو سبب اقدام شخص على طلب العلم ، مع عزوف آخر عن العلم تماماً . وما الذي يجعل شخص معين ينبغ في الالعاب البدنية ، بينما ينبغ آخر في النشاط الفني . . . الخ . هذه الامور وغيرها من جوانب السلوك لا يمكن فهمها وتفسيرها الا بافتراض وجود الدوافع ومحاولة فهمها ودراستها وتفسيرها .

ويمكن القول أن موضوع الدوافع يهم الآباء والمربين واصحاب المصانع والمعالجين من الاطباء ورجال القضاء والمحامين . . . الخ . فالاب يهتم بمعرفة لماذا يميل طفله الى الانطواء على نفسه ، والعزوف عن اللعب مع اقرانه ، ولماذا

يكون طبيعياً في سلوكه في المدرسة ، معتدياً في المنزل على اخوته ، ولماذا يميل احد ابنائه الى طلب العلم ، بينما يعزف آخر تماماً عن العلم والتعلم أو لماذا يتحرى احد ابنائه الصدق بينما يكثر آخر من الكذب . . . كذلك فان المدرس يريد ان يعرف دوافع السلوك لدى تلاميذه ، ما الذي يدفع بتلميذ متوسط الذكاء الى التفوق الدراسي ، بينما يدفع بآخر أكثر منه ذكاءً الى التخلف الدراسي . وما الذي يؤدي بطالب معين الى الشكوى من الانطواء او التهتهة او العدوانية مع عدم وجود سبب عضوي لذلك . كذلك فان صاحب العمل يريد ان يعرف الدوافع التي تدفع بالعمال الى الاخلاص في العمل أو الى التواني والاهمال ، وهل هي دوافع اقتصادية فقط ، ثم لماذا يزداد العمال اهمالاً مع زيادة اجورهم وتحسين الظروف المادية للعمل ، وما هو أثر الروح المعنوية في تحسين الانتاج كماً ونوعاً وفي تحسين الصحة النفسية للعاملين ؟ كذلك فان اصحاب العمل يبغون معرفة الدوافع التي تتحكم في اذواق المستهلكين وفي تثبيتها او تغييرها . ورجل الدعوة الاسلامية يريد ان يعرف نوعية الدوافع التي تحرك سلوك الناس وتوجههم في الحياة الاجتماعية ، وكيفية اذكاء الدوافع الايمانية وكيفية تغيير الدوافع التي توجه الناس الى كافة ألوان السلوك الانحرافي ، من اجل غرس الدوافع الايمانية القائمة على حب الله وتوحيده وابتغاء مرضاته في كل سلوك وعمل . كذلك فان الطبيب يبغي معرفة اسباب الشكوى المتكررة من المريض على الرغم من عدم وجود اسباب عضوية محددة . وما هو سبب شكوى المريض من شلل او عمى او صبغ على الرغم من سلامة الأجهزة . وفي مجال العلاج النفسي تحتل الدوافع أهمية كبرى لدى الطبيب خاصة في مجال الأمراض الوظيفية كالقلق والاكتئاب والتخلف الدراسي . . . الخ .

وتتعدد دوافع السلوك من حيث الانواع والمنطلقات فمنها الفطري الذي يولد الانسان مزوداً به من قبل الله سبحانه وتعالى ، وهذه تتركز في فرعين اساسيين هما الدوافع المسؤولة عن حفظ الذات كالدافع الى الاكل والشرب والقتال . . . الخ . والدوافع المسؤولة عن حفظ النوع لاستمرار الانسان في اداء وظيفته كخليفة عن الله على الارض من عبادة ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ ، وتعارف ﴿ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ وليتمايزوا بينهم بالتقوى ﴿ ان اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ ويعمروا الكون ويسخروا قواه الطبيعية ـ باذن الله ـ لصالحهم . وفي

مقابل الدوافع الفطرية نجد الدوافع المكتسبة التي يتعلمها الانسان بفضل القدرة التي أودعها الله في الانسان وهي قابلية التعلم . وهذه الدوافع المكتسبة او المتعلمة او الاجتماعية منها ما هو شعوري يدركه الفرد ويشعر به مثل الاتجاهات النفسية والعواطف كالاتجاه نحو التعليم ونحو العمل اليدوي ونحو المهن والصنائع . . . الخ . وعواطف الحب والكره والغضب في الله وحب الحق والفضيلة . . . الخ . ومنها ما هو لا شعوري لا يفطن الفرد الى وجوده مثل العقد النفسية .

تعريف الدوافع :

بعد هذه المقدمة الموجزة حول الدوافع واهميتها التفسيرية للسلوك نتساءل عن تعريف الدافع . ويمكن ببساطة ان نعرفه بأن حالة داخلية ـ جسمية او نفسية ، فطرية او مكتسبة ، تثير السلوك وتحدد نوعيته واتجاهه وتسير به نحو تحقيق اهداف معينة من شأنها ارضاء جانب معين من جوانب الحياة الانسانية ، فعندما يشعر الفرد بالجوع لا يهدأ الفرد الا اذا اكل فيشعر بالاشباع فالشعور بالجوع هو الدافع والاكل سلوك والشبع ارضاء للدافع . وما يستثير دافع الجوع حالة داخلية جسمية تتمثل في اختلال التكوين الكيميائي للدم وفراغ المعدة وحدوث تقلصات بها وهذا هو ما يشعر الانسان بالجوع او ما يستثير دافع الجوع . وهذا مثال للدافع الفطري غير المتعلم ، اما الدوافع المكتسبة فمن ابرز الامثلة عليها دافع التعلم ـ تعلم الطب او تعلم الهندسة او تعلم الشريعة ، فالانسان لا يولد مزوداً بدافع لتعلم الطب ، والا لاشتراك الناس جميعاً في تعلم الطب لان الدافع الفطري ـ كما سنوضح ـ دافع عام بين البشر ، ولكنه يكتسب هذا الدافع من البيئة الاجتماعية المحيطة به اسرته ـ رفاقه ـ قراءاته ـ اجهزة الاعلام المحيطة به ـ النظم الاجتماعية داخل مجتمعه . . . الخ . وهذا الدافع ـ دافع العلم ـ يثير السلوك ويوجهه نحو طلب العلم والانتماء الى مدارس ومعاهد وجامعات والاستذكار بجد واجتهاد حتى يتم التعلم الذي يرضى الدافع المثار ببلوغ الهدف .

وقد سبق ان عرفنا الدافع بأنه حالة داخلية ـ جسمية او نفسية ـ ويمكن القول ان الدوافع الفطرية كلها لها اساس جسمي ، كما ان الدوافع النفسية غالباً ما تكون مكتسبة وان كان يمكن ان تتحول الى جسمية كما في حالة الادمان ـ ادمان

المخدرات والعياذ بالله ـ ويمكن اعطاء مثال على الفرق بين الدوافع ذات المصدر الداخلي الجسمي والدوافع ذات المصدر الداخلي النفسي بدافع الجوع والتعلم . اذا ما كان امامنا اثنين احدهما جائع يطلب الطعام اي ان دافع الجوع او البحث عن الطعام مستثار لديه والآخر يشعر بحالة شبع ولا يبغي الأكل . وتم عرض الاثنين على طبيب لمعرفة ما اذا كانت هناك فروق جسمية بينهما في تكوين الدم وحركة المعدة اي في الحالة الجسمية ، فان الواقع اننا سوف نجد هناك فروق جسمية معينة هي التي استثارت واقع الجوع لدى الاول بينما لو طبقنا نفس الشيء في حالة اثنين احدهما به شغف شديد للتعلم حتى ولو ضحى بثروته كلها في سبيل الحصول على العلم ، ويرهق نفسه في تحصيله على حساب راحته الجسمية . . . ، بينما الآخر لا يحفل بالعلم ويكره القراءة ولا يكترث بمجالسة العلماء . . . الخ . لو عرض الاثنان على طبيب لمعرفة هل هناك فروق جسمية بينهما فسوف لا تجد له اية فروق جسمية . وقل هذا عن الدافع للسباحة والرماية وركوب الخيل وقيادة سيارة وتعلم صنعة او حرفة او مهنة . . . الخ .

ويتسم السلوك الصادر عن الدافع بالنشاط والاستمرار والتنوع فكلما كان الدافع قوياً ، ازداد النشاط الذي يستهدف اشباعه . فالصائم يكون انشط في الحصول على طعام افطاره من آخر لم يصم . ويختلف السلوك الصادر عن الدوافع عن السلوك الذي يتم نتيجة استجابات آلية او افعال انعكاسية كما يحدث للحيوانات الدنيا ، فحركة الاميبا ذات الخلية الواحدة لا تعد استجابة لدافع لكنه ضرب من السلوك الآلي تتشابه فيه جميع المخلوقات المتماثلة تحت تأثير مؤثرات طبيعية كالحرارة او الضوء او الظلام او الجاذبية . . .

والدوافع طاقات كامنة تختلف من حيث المصدر (فطري او مكتسب) ومن حيث النوع (جوع ، عطش ، تعلم ، سباحة) وبالتالي من حيث السلوك الصادر عنها والهدف الذي يشبعها . واحياناً يعرف الدافع بأنه حالة من التوتر او اختلال التوازن تثير السلوك وتواصله حتى يزول التوتر ويستعيد الفرد توازنه . فالشخص الذي يشعر بالجوع لا يهدأ حتى يأكل ، ومن يشعر بألم لا يهدأ حتى يعالج من الالم والمسلم الذي تحركه الدوافع الايمانية لا يهدأ حتى تنتشر الدعوة الاسلامية وحتى يشعر انه حقق شيئاً في سبيل الاسلام واعلاء كلمه الله .

ويمكن القول بأن الدوافع حالات واستعدادات لا نلاحظها مباشرة ، بل

نستنتجها من الاتجاه العام للسلوك الصادر عنها ، فاذا كان الانسان يسعى للبحث عن الطعام استنتجنا دافع الجوع ، واذا كان يسعى نحو القراءة والاستذكار الحاد . . . استنتجنا دافع التعلم . واذا كان الانسان يولد مزوداً بدوافع فطرية محددة كالجوع والعطش والجنس . . . . فان الانسان يولد في بيئة اجتماعية لها نظمها وقيمها وضوابطها الاجتماعية الأمر الذي يضطره الى تعديل دوافعه الفطرية وتكوين بعض العادات الانفعالية وينشأ ما نطلق عليه الدوافع المكتسبة .

نظريات الدوافع :

اختلف العلماء اختلافاً كبيراً في تصور كل منهم للدوافع وفي تسميتها وفي تحديد عددها وطبيعتها ، او في الاعتراف بها اصلاً او انكارها . وسوف نعرض بايجاز ثلاثة اتجاهات بارزة في هذا الصدد - اتجاه نظريات الغرائز ، والاتجاه السلوكي الذي ينكر الدوافع الداخلية ، والاتجاه المجالي او نظرية الجشتلط .

أ - اتجاه انصار نظريات الغرائز :

سيطر هذا الاتجاه على الدراسات النفسية فترة طويلة من الزمن ووجه بمجموعة كبيرة من الاعتراضات لدرجة ان بعض العلماء المعاصرين يرفضون مصطلح الغريزة اصلاً ويفضلون استبداله بمصطلحات كثيرة منها الدوافع الفطرية والحاجات البيولوجية . . . الخ . ويهمنا عرض اساس هذا الاتجاه بغض النظر عن سلامته كتراث في علم النفس . فانصار هذا الاتجاه يرون ان الكائن الحي يولد مزوداً بمجموعة من الدوافع الموروثة او الفطرية التي تدفعه الى السلوك وهي ما اطلقوا عليه مصطلح الغرائز وهي - عندهم - المحركات الأولى للسلوك والدوافع الاساسية لكل عمل او تفكير . والغريزة عندهم قوة حيوية دافعة وموجهة للسلوك .

وقد اختلف العلماء في تحديد نوعية الغرائز وعددها . ومثال هذا ان « وليم جيمس » يحددها في دراسة له بعنوان « مبادىء علم النفس » الصادر سنة **١٩١٣** بـ (**٣٢**) غريزة منها الخوف والتقليد والنظام والتنافس والابتسام والحب والسيطرة . . الخ . وفي عام **١٩١٣** أخرج « ثورنـديك » دراسة له بعنوان « علم النفس التعليمي » عرض خلاله قائمة من الغرائز تتضمن (**٤٢**) غريزة

منها المقاتلة والاكل والضحك والعطش والبكاء والسعال . . . الخ . وفي سنة ١٩٢٣ اخرج « وليم ماكدوجال » دراسة له بعنوان « خلاصة علم النفس » ويذهب ماكدوجال الى ان الكائنات الحية مدفوعة لتحقيق اغراض معينة مرسومة سواء شعرت بها او لم تشعر ولهذا السبب زودت بعدد معين من الدوافع الكامنة او القوى الموجهة وهي الغرائز لاجل تحقيق هذه الاهداف (وسوف نفصل هذه النظرية فيما بعد) وقد حدد ماكدوجال عدد الغرائز بـ (١٤) غريزة منها الهرب ، المقاتلة ، النفور ، الوالدين . . . الخ .

وقد أسرف رواد مدرسة التحليل النفسي في اختصار عدد الغرائز لدرجة أن « فرويد » حددها باثنين فقط هما غريزة الحياة او الغريزة الجنسية ، وغريزة الموت أو غريزة العدوان ، اما أدلر وهو تلميذ فرويد فقد حاول تفسير سلوك الانسان من خلال غريزة واحدة فقط هي غريزة السيطرة . كذلك فان يونج فانه يحاول تفسير السلوك الانساني كله بالرجوع الى فكرة الشعور بالنقص ومحاولة التعويض . والواقع ان هذه التفسيرات والمحاولات تقع في خطأ واضح وفادح وهو تسليط الضوء على احد جوانب الانسان ـ جنس ـ نقص ـ اكل ـ مادة . . . الخ . والقول بأن هذا الجانب هو الانسان . ولهذا نرفض هذه النظريات احادية الاتجاه او التفسيرات المبتسرة كالتفسير الجنسي الذي قال به فرويد ، والتفسير المادي الذي ابرزه ماركس والتفسير السيكولوجي الجزئي الذي قال به كل من أدلر ويونج وغيرهما .

وعلى الرغم من اختلاف علماء النفس بشأن تحديد نوعية الغرائز وعددها الا أنهم متفقون على أن الغريزة قوة كامنة في الكائن الحي تدفعه الى انواع مختلفة من السلوك ، وعلى أن الغرائز هي المحركات الأولى لكل سلوك وسوف تعرض في شيء من الايجاز لنظرية الغرائز عند كل من ماكدوجال وفرويد ، ثم نوضح أهم جوانب التصور في كل منهما .

أولاً ـ نظرية ماكدوجال :

هو من المشتغلين بعلم النفس انجليزي الأصل ولد ١٨٧١م وتوفي سنة ١٩٣٨ اشتغل بجامعات انجلترا ثم انتقل الى أمريكا . ويرى هذا الباحث ان الكائنات الحية تولد مزودة بمجموعة من الغرائز التي تستثير السلوك وتوجهه لهدف أو لغرض معين . فالسلوك لدى الكائنات المستثار بدوافع سلوك غرض ولهذا يطلق

على نظرية ماكدوجال النظرية الغرضية . والسلوك الناجم عن الغرائـز يتسـم بالفرضية سواء ادركه الكائن الحي او لم يدركه . ومثال هذا قيام الفرخ بنقر قشرة البيضة عند اكتمال النضج من أجل الخروج ، ثم قيامـه بنقـر الأشياء الصغـيرة بمجرد خروجه من البيضة دون ان يكون قد رأى ذلك من قبل ، وقيام الاطفال بالصراخ بعد ميلادهم مباشرة للتخلص من المكونات المخاطية التي تكون عالقة بالقصبة الهوائية من الرحم ، وقيامهم بحركة امتصاص القذى دون سابق تعلم . سبحان الله ـ فالله سبحانه هو الذي أودع فيهم هذه القدرة حفاظاً على حياتهم واستمرارهم .

ويذهب « ماكدوجال » الى أن الغريزة هي « استعداد عصبي نفسي يدفـع صاحبه الى أن ينتبه ويدرك مثيرات من نوع معين ، ويشعـر بانفعـال من نوع خاص عند إدراكها ، ويسلك نحوها مسلكاً خاصاً ، أو على الاقل يشعر بدافع الى ان ينزع نحوها هذا المسلك ويتضح من هذا التعريف ان الغريزة دافع فطري نفسي جسمي يحمـل صاحبـه على ثلاثـة جوانـب هي الادراك ، والوجـدان ، والنزوع .

اولاً : ادراك شيء او اشياء ذات طبيعة خاصة .

ثانياً : الوجدان وهو الاحساس بحالة انفعالية معينة نتيجة ادراك شيء معين .

ثالثاً : النزوع : وهو القيام بسلوك معين تجاه الشيء المدرك او على الاقل الرغبة بالقيام بهذا السلوك .

فالشخص الجائع اكثر ادراكاً للطعام وعندما يدركه يشعر بوجـدان معـين يتمثل في الرغبة في تناول الطعام ثم ينزع نحو الاكل فعلاً . والقط اذا رأى كلباً ينتبه اليه انتباهاً خاصاً ليس كانتباهه الى الحصان مثلاً . ثم يشعر بانفعال معين هو انفعال الخوف ، ثم ينزع الى الهروب او يهرب فعلاً . لذلك فان الانسـان عندما يرى عدواً له ينفعل ويشعر بالخوف او الرغبة في القتال ، فاذا كان اقوى منه نزع الى الهرب . وهكذا تكون الغريزة عند ماكدوجال استعداد فطري تشمل مظاهر الشعور الثلاثة وهي :

أ ـ الادراك
ب ـ الوجدان

جـ ـ النزوع

والادراك يتصل بالمثير الخارجي او المنبه مثل رؤية الطعام او مخطوطة نادرة او العدو او النار . . . والجانب الوجداني يتعلق بالانفعال الذاتي الداخلي ، وهو ذاتي بمعنى انه لا يشعر به الا صاحبه مثل الخوف والرغبة في الاكل والميل للهرب . . . الخ . اما الجانب النزوعي فهو جانب سلوكي او الرغبة في السلوك مسلك معين مثل تناول الطعام او الهرب او القتال . . .

والسلوك الغريزي يولد الفرد مزوداً به ولا يتعلمه ولا يحتاج الى خبرة سابقة وله هدف او غرض ويكون عاماً بين جميع افراد الجنس . وقد عرض ماكدوجال قائمة بأربعة عشر غريزة ، لكل منها انفعال خاص مصاحب لها وهي كما يلي :

أولا : غريزة الهرب وانفعالها الخوف
ثانياً : غريزة المقاتلة وانفعالها الغضب
ثالثاً : غريزة النفور وانفعالها الاشمئزاز
رابعاً : غريزة الوالدية وانفعالها الحنو
خامساً : غريزة الاستغاثة وانفعالها اليأس أو الضعف
سادساً : غريزة الجنس وانفعالها الشهوة (شهوة الفرج)
سابعاً : غريزه الاستطلاع وانفعالها التعجب
ثامناً : غريزة الخضوع وانفعالها الذلة او الحطة
تاسعاً : غريزة السيطرة وانفعالها الزهو او الغرور او الكبرياء
عاشراً : غريزة التجمع او الغريزة الاجماعية وانفعالها الشعور بالوحدة
حادي عشر : غريزة البحث عن الطعام وانفعالها الجوع (شهوة الطعام)
ثاني عشر : غريزة التملك وانفعالها الرغبة في الاستحواز والتملك
ثالث عشر : البناء او الحل والتركيب وانفعالها الابتكار او الرغبة في العمل
رابع عشر : غريزة الضحك وانفعالها المرح والسرور

هذا وقد اضاف ماكدوجال الى هذه القائمة اربعة غرائز اخرى في دراسة لاحقة بعنوان « الطاقات البشرية » عام **١٩٢٣** وهي :

١ ـ غريزة البحث عن الراحة وازالة كل ما يسبب شعوراً غير مريح
٢ ـ غريزة النوم

٣ ـ غريزة الهجرة والتنقل لرؤية مناظر جديدة

٤ ـ مجموعة غرائز تتعلق بالضرورات البيولوجية مثل الكحة والعطس والتبول والتبرز . . . الخ .

تعديل الغرائز :

الانسان كائن اجتماعي حباه الله بطاقات فطرية ، وبقدرة على احداث تغيرات في اساليب ممارستها والتوافق مع البيئة الطبيعية والاجتماعية وتعلم واكتساب الخبرات . ويذهب « ماكدوجال » الى أن الانسان قادر على تعديل غرائزه بسبب قدرته على التعلم وما يتمتع به من ذكاء وقدرة على الفهم . ويكون التعديل قوياً في مظهرين فقط من المظاهر الثلاثة للغريزة وهما المظهر الادراكي والمظهر النزوعي . فالجانب الادراكي الذي يتعلق بالمثير الخارجي والجانب النزوعي الذي يتعلق بالسلوك والفعل يمكن ان يتغيرا مع نمو الانسان وتعلمه وخبراته وقدرته على الفهم ، اما الجانب الوجداني ـ وهو جانب ذاتي غير ارادي ـ فيصعب التحكم فيه وتغييره .

ويمكن التمثيل للتعديل في الجانب الادراكي بطفل المدينة وطفل الريف . فالاول اذا رأى جاموسة أو بقرة خاف وجرى لانها حيوان ضخم يثير لديه غريزة الخوف . اما منظر الجاموسة في الريف منظر مألوف لدى الاطفال لا يثير لديهم الفزع . ومنظر الجثة والتشريح والدم يثير الخوف والفزع لدى طالب الطب المبتدىء ، ثم ما يلبث ان يعتاد عليه ولا يثير لديه اي شعور بالفزع او التقزز . واصوات المدافع والقنابل تثير الفزع والخوف في نفس المجند الحديث ثم ما يلبث ان يعتاد عليها و . . . وهكذا يمكن ان يتغير المثير من حيث نوعية ادراكه .

واذا ما انتقلنا الى التغير في الجانب النزوعي للغريزة نجده اكثر اتساعاً فغريزة السيطرة يمكن ان تتحول من السيطرة على الانسان الى السيطرة على الطبيعة ، وغريزة حب الاستطلاع تحول جانبها النزوعي من التجسس على اخبار الناس الى التطلع الى معرفة اسرار الطبيعة والكون المادي بالبحث العلمي ، ويتحول الغضب للذات الى الغضب للحق او الغضب في الله ، والنزوع للقتال دفاعاً عن النفس فقط الى النزوع للدفاع عن الحق وانتشار كلمة الله وسيادة الاسلام . . . الخ .

الابدال والاعلاء :

وهناك اسلوبان لتعديل الغرائز هما الابدال والاعلاء ويقصد **بالابدال** توجيه الطاقة الغريزية الى مجالات تختلف عن المجال الطبيعي الذي يرضي الغريزة ، او استنفاد طاقتها بممارسة انشطة بعيدة عن مجالها الأصلي ، كما هو الحال عندما يوجه الشباب الى ممارسة الرياضة البدنية والانشطة الاجتماعية وهوايات معينة لاستنفاد الطاقة الجنسية والحيلولة دون ممارستها في مجالات انحرافية . ولقد اشار رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام الى هذه الفكرة عندما نصح معشر الشباب بالزواج « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » .

ويقصد **بالاعلاء** السمو بالدوافع الغريزية وممارستها بشكل مشروع يرضى عنه المجتمع ويقره ، لما عليه ممارسة النشاط الجنسي بالزواج وممارسة غريزة القتال بالقتال في سبيل الدين واعلاء راية الاسلام . . . الخ .

الدوافع المشتقة والمكتسبة والعواطف :

سبق ان اوضحنا ان ماكدوجال ينيط بكل غريزة انفعال يصاحبها . وقد يحدث ان تتجمع انفعالات عدة غرائز معاً نتيجة تركزها حول موضوع واحد وينشأ من هذا المزيج دوافع مشتقة تسمى العواطف وهي دوافع مكتسبة واهمها عواطف الحب والكراهية . فالعواطف دوافع مكتسبة ولو انها تقوم على أساس فطري .

هذا موجز سريع عن نظرية ماكدوجال في الغرائز وقد وجه اليها الكثير من أوجه النقد ابرزها انها نظرية تصنيفية وليست تفسيرية . فكل ما فعله هو تصنيف الغرائز تحت أسماء معينة دون ان يقدم لنا اطراً تصنيفية معينة . ومثال هذا انه وضع أنماطاً سلوكية معينة تحت عنوان البحث عن الطعام ، وآخر تحت عنوان القتال أو الوالدية او حب الاستطلاع . . . الخ . وانتقل من هذا الى اعتبار ان الاسم الذي وضعه سبب ومحرك للسلوك . فاذا ما تساءلنا عن الدليل الذي يدل على وجود غريزة البحث عن الطعام ، فان الاجابة تتمثل في سلوك البحث عن الطعام نفسه وهكذا نقع في الدور المنطقي أو ما يطلق عليه المناطقة المصادرة على المطلوب . ولم يعف ماكدوجال من النقد ما لجأ اليه مؤخراً من العدول عن مصطلح الغريزة واستبداله بمصطلح الاستعداد الفطري .

ثانياً ـ نظرية فرويد :

لم تواجه نظرية النقد وتعليق اكثر من نظرية فرويد في مجال الدراسات النفسية ، فقد أسرف هذا الباحث النمسوي الاصل في التفسيرات احادية الاتجاه لدرجة انه ارجع الطاقة الانسانية كلها وهو ما يطلق عليه مصطلح (الليبيدو) الى غريزتين اساسيتين هما غريزة الحياة او الجنس والعدوان او الموت . وفي هذا تبسيط مخل في تفسير النشاط الانساني ، وفيه تجاهل للجوانب الروحية في الانسان ، تلك الجوانب السامية المتمثلة في الروح الإلهي في الانسان التي استحق من أجلها التكريم الإلهي له . فالتفسير الفرويدي فيه هبوط للانسان من المستوى الانساني الى المستوى الحيواني . واذا كانت النظرية الفرويدية تنطوي على بعض الاسهامات المفيدة في مجال الطب النفسي مثل تفسير الكثير من الامراض النفسية والعقد والقلق . . . الا ان اسرافه في التفسير الجنسي والعدواني أفقدها الكثير من القوى التفسيرية والموضوعية . ويهمنا الآن عرض بعض جوانب هذه النظرية لنتبين جوانب قصورها .

يذهب فرويد الى أن الغرائز هي القوى الدافعة للشخصية والسلوك الانساني ككل وتحدد المسارات الاساسية لهذا السلوك . وهو يعرف الغريزة بأنها التمثيل السيكولوجي لمصدر بدني داخلي يمارس الاستثارة . ويسمى التمثيل السيكولوجي بالرغبة ويطلق على الاستثارة البدنية مصطلح الحاجة . وعلى هذا يمكن وصف حالة الجوع في عبارات فسيولوجية بأنها تمثل في حالة من النقص الغذائي يصيب اجهزة الجسم . وعلى المستوى السيكولوجي النفسي تتمثل في شكل رغبة في الطعام وتعمل الرغبة كدافع للسلوك .

ولم يغفل فرويد دور المنبهات الخارجية التي تثير السلوك ، الا أنه يرى ان المصادر البيئية للاستثارة تقوم بدور اقل اهمية بالقياس الى الغرائز الفطرية . ففي استطاعة الانسان الهرب من منبه خارجي ، بينما يستحيل عليه الهرب من حاجة داخلية وهو يختصر الغرائز في اثنتين هما :

أ ـ غريزة الحياة او غريزة الجنس
ب ـ غريزة الموت او العدوان

وترتبط نظرية الغرائز عند فرويد بنظريته حول مكونات وديناميات

الشخصية فهو يرى ان الشخصية الانسانية تنبثق عن طاقة حيوية وتتألف من ثلاثة عناصر هي :

أ ـ الجانب الغرزي أو (الهو) ويتألف من الجانب الحيوي المتمثل في الطاقة الجنسية وطاقة العدوان البوهيمية وهي طاقة مخربة مدمرة .

ب ـ الجانب المثالي : وهو جانب الضمير الذي يتكون انعكاساً لقيم المجتمع والدين والآداب العامة ويتكون نتيجة للأوامر والنواهي التي يتلقاها الطفل من والديه والمربين في الصغر وهو ما يطلق عليه الأنا الأعلى .

ج ـ الجانب الواقعي : واذا كان الانسان لا يستطيع ممارسة حريته الغريزية الكاملة داخل المجتمع ، كما لا يستطيع أن يلتزم المثاليات المفروضة عليه من قبل المجتمع ، فانه عليه التوفيق بين الجانب الغرزي والجانب المثالي وبمقدار قدرة الأنا على التوفيق يكون توازن الشخصية ويخرج السلوك الانساني كمحصلة للتفاعل بين هذه المكونات الثلاثة والحاجات (وهي انعكاس للغرائز) تنقسم عند اتباع التحليل النفسي الى قسمين أساسيين هما :

أ ـ حاجات فسيولوجية كالحاجة الى الطعام والشراب والاخراج والراحة . . . الخ .

ب ـ حاجات نفسية اجتماعية كالحاجة الى الحب والأمن والحرية . . . ويصاحب ظهور الحاجات مواقف انفعالية . وغالباً ما تقترن محاولة الانسان اشباع حاجاته الفطرية يقيم المجتمع ونظمه ، الأمر الذي يحتم على الانسان كبت رغباته في منطقة اللاشعور (والكبت نسيان لا ارادي) حتى يستطيع التوافق مع مجتمعه ، وهذا أساس العقد النفسية في رأي أنصار مدرسة التحليل النفسي .

هذه عجالة سريعة عن أساسيات النظرية الفرويدية في الدوافع وقد تعرضت هذه النظرية للعديد من اوجه النقد نوجز اهمها ونزيد عليها فيما يلي :

أولا : أنها نظرية تصنيفية وليست تفسيرية .

ثانياً : تضمنت النظرية الفرويدية فكرة غامضة جعلت منها أساس الحياة والطاقة النفسية وهي ما اطلقت عليه الليبيدو ، وهو مفهوم غامض كذلك فان مفهوم اللاشعور مفهوم غامض وهو عند فرويد يتضمن ٩/١ الحياة النفسية .

ثالثاً : جعل فرويد الاساس الأول للتكوين الانساني الفطري الغرائز (الجنس والعدوان) وبهذا سلب الانسان كل القيم والجوانب العليا التي استحق من اجلها الخلافة عن الله سبحانه .

رابعاً : جعل من الدين عامل مفروض على الانسان معوق لرغباته الامر الذي يضاد في نظره فطرة الانسان وطبيعته ، والحقيقة ان الدين مكون من المكونات الفطرية للانسان فكما يوضح لنا رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام : ما من مولود الا ويولد على الفطرة ، ثم يقوم ابواه بتنصيره او بتهويده او بتمجيسه . يقول تعالى :

﴿ واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، واشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ﴾ صدق الله العظيم .

خامساً : التصور الفرويدي للشخصية محتاج الى تفسير فالشخصية تتألف عنده من الهو (الجانب الغريزي) والأنا الاعلى (وهو الجانب المثالي) ، والانا (وهو الجانب الواقعي) ولم يفسر لنا كيف تشتق الأنا من الهو والأنا الاعلى .

سادساً : يطرح لنا القرآن الكريم تصوراً واقعياً للشخصية وللنفس قبل فرويد بأربعة عشر قرناً وهذا التصور القرآني الالهي ﴿ الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ يتناقض مع التفسير الفرويدي فهناك ثلاثة انواع من النفوس تفرق بين المؤمن والكافر او الفاسق **النفس الامارة** ﴿ ان النفس لأمارة بالسوء ﴾ **والنفس اللوامة** ﴿ لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة ﴾ **والنفس المطمئنة** ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ﴾ . وقد سبق ان فصلنا القول في هذه النقطة في الفصل السابق .

ب ـ الاتجاه السلوكي :

بعد عرض تصور انصار نظريات الغرائز ، نعرض اتجاهاً مضاداً يتمثل في موقف الاتجاه السلوكي من قضية الاعتراف بالغرائز او بالدوافع الفطرية . ويتزعم الاتجاه السلوكي مجموعة من الباحثين في مقدمتهم « جون واطسن » و « ادوارد ثورنديك » و « ايفان بافلوف » ويؤكد هذا الاتجاه ان الكائن الحي لا

تحركه دوافع فطرية توجهه نحو غاية معينة (كما ذهبت المدرسة الفرضية وانصار اتجاه الغرائز) وانما الذي يدفعه ويحركه منبهات حسية فيزيقية خارجية . ولهذا لا يهتم انصار الاتجاه السلوكي بدراسة الغرائز او الدوافع الفطرية ، على اساس أن مفهوم الدوافع مفهوم غامض مضلل لا يتضمن اية دلالات علمية موضوعية قابلة للدراسة التجريبية . ويؤكد بعضهم ان اية محاولة لتصنيف الغرائز مقضي عليها بالفشل لانها لا تخضع للدراسة العلمية . ويمكن تفسير سلوك الانسان عند انصار الاتجاه السلوكي على انه سلسلة من الافعال الناجمة عن المثير والاستجابات . وينظر انصار الاتجاه السلوكي الى الانسان نظرتهم الى آلة ميكانيكية معقدة ، ويذهبون الى ضرورة اقتصار موضوع علم النفس على دراسة السلوك الحركي الصريح للانسان والحيوان عن طريق الملاحظة الموضوعية البحتة ، أي دون الاشارة الى ما يخبره الفرد من حالات شعورية اثناء ملاحظته او اجراء التجارب عليه . لهذا فهم يرفضون منهج التأمل الباطني ، وينكرون وجود قدرات او استعدادات فطرية ، فليست هناك غرائز موروثة او الذكاء موروث . فالذكاء مجموعة معقدة من عادات يكتسبها الفرد اثناء حياته . وفي هذا يقول « واطسن » زعيم هذا الاتجاه « اعطوني عشرة من الاطفال الاصحاء الاسوياء التكوين ، فسأختار احدهم جزافاً ثم ادربه فأصنع منه ما اريد : طبيباً او فناناً او عالماً او تاجراً او لصاً أو متسولاً . . . بغض النظر عن ميوله ومواهبه وسلالة اسلافه وهكذا يكون موضوع علم النفس عند انصار الاتجاه السلوكي ليس دراسة الدوافع ، وانما دراسة العادات واسلوب تكوينها .

وقد تعرضت هذه النظرية للكثير من اوجه النقد لانكارها الدوافع والاستعدادات الفطرية وتحويل الانسان الى آلة تشكلها المؤثرات الخارجية فحسب لهذا ظهر اتجاه جديد لهذه المدرسة السلوكية اطلق عليه السلوكية الجديدة يحاول تجنب النقد اللاذع الذي وصل الى حد القول بأن علم النفس قد انتحر على يد « السلوكية » . ويصر انصار الاتجاه السلوكي الجديد على عدم وجود دوافع فطرية ، وان موضوع علم النفس هو التعلم وتكوين العادات ولكنهم يتراجعون عن فكرة التفسير الآلي للسلوك الانساني ، ويعترفون بوجود حالات شعورية يمكن دراستها من خلال منهج الاستيطان . وقد تعرض السلوكيون لانتقادات كثيرة أهمها تحويل الانسان الى آلة او حيوان على الاكثر يفسر سلوكه بالفعل ورد الفعل أو المثيرو الاستجابة وانكروا عليه انسانيته وما اودعه الله سبحانه وتعالى في

الانسان من طاقات فطرية ايمانية وجسمية واذا كان قول السلوكيون صحيح فكيف نفسر اختلاف استجابات الافراد للمؤثر الواحد ، وكيف نفسر الاختلافات والفروق الفردية بين اناس يتعرضون لبيئة واحدة . وكيف نفسر اختلاف القدرات العقلية بين البشر ؟ هذا الى جانب انكارهم للعمليات الشعورية والقيم والاستعدادات يحول بيننا وبين امكانية تفسير السلوك . وقول واطسن انه قادر على صنع العالم واللص والمفكر واللاعب . . . من أي شخص قول فيه ادعاء للالوهية وهو كفر وإلحاد فالله هو الذي يصورنا في الارحام كيف يشاء وهو الخالق البارىء المصور .

جـ ـ الاتجاه المجالي (مدرسة الجشتلط) :

يرى انصار هذا الاتجاه انه لا يمكن تفسير السلوك على أساس الرجوع للغرائز والاستعدادات الفطرية فحسب ، او على اساس الفعل ورد الفعل او الاستجابات الآلية وحدها ، وانما على اساس المجال العام الذي يوجد فيه الفرد ، وتفاعله مع هذا المجال أو البيئة السيكولوجية كما يراها ويدركها الفرد نفسه . وقد ظهرت هذه المدرسة (مدرسة الجشتلط) في المانيا في اوائل هذا القرن (القرن الرابع عشر الهجري ـ العشرين الميلادي) وكلمة جشتلط بالالمانية معناها (الكل) المتكامل الاجزاء او الصيغة الاجمالية . وقد ظهرت هذه المدرسة في وقت اسرف فيه كثير من العلماء في تحليل الظواهر النفسية بتجزيئها ، فكانوا يحللون الادراك الى احساسات جزئية ، وعملية التعلم الى روابط عصبية ، والشخصية الى سمات مختلفة . ويمكن تفسير السلوك الانساني في رأي مدرسة الجشتلط ليس بالرجوع الى الغرائز ولا الى الاستجابات الشرطية او الآلية وانما بالرجوع الى المجال ونوعية ادراك الفرد لبيئته الاجتماعية والطبيعية ، فأحوالنا الجسمية والمزاهية وميولنا ورغباتنا هي التي تفسر استجاباتنا للمؤثرات الخارجية . فالخائف يدرك في حفيف الاشجار وقع اقدام الاعداء ، والبرتقالة في يد الطفل الجائع شيء يأكله ، وفي يد الشبعان لعبة يلعب بها ، وقد اوضح لنا القرآن الكريم هذه الظاهرة منذ اربعة عشر قرناً « يكاد المريب يقول خذوني » و « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » . . . الخ .

فهناك نوعان من البيئة .

أ ـ البيئة الواقعية ، او البيئة الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية ـ كما توجد بالفعل .

ب ـ البيئة السيكولوجية ـ او البيئة كما يدركها الفرد بناء على حالته الجسمية والنفسية واستعداداته ورغباته وتطلعاته . . . الخ .

فمكتبة المنزل العامرة بالمؤلفات الثمينة ليست بيئة تثير طفلاً صغيراً . ولافتة النور الاحمر ليست بيئة سيكولوجية لشخص مصاب بعمى الالوان ، والقاضي في عين المتهم غير القاضي في نظر زميله . ومغريات الحياة الدنيا وزينتها ، في نظر الشخص المؤمن تختلف عنها في نظر الكافر والفاسق . وما تزخر به الحياة الدنيا من ضروب للاغواء والاغراء لا تستثيرنا الا بقدر رغبتنا فيها او رغبتنا عنها .

فالبيئة الواقعية هي ما يحيط بالفرد من عوامل مادية ـ فيزيقية أو اجتماعية ، سواء اثرت في الفرد او لم تؤثر ، اي انها البيئة كما عليه موضوعياً . اما البيئة السيكولوجيةفهي البيئة كما تبدو للفرد من خلال استعداداته الفطرية والمكتسبة وميوله ورغباته ومخاوفه وتطلعاته . وعلى هذا فان البيت الواحد ليس بيئة سيكولوجية واحدة لجميع من به من اخوة واخوات ، ذلك لاختلافهم في السن والجنس والتعليم والخبرات والميول . . . الخ . وعلى هذا فالبيئة السيكولوجية ليست شيئاً منفصلاً عن الفرد ، أو شيئاً يوجد الى جانبه ، لكنها تنشأ عن تفاعل شخصية الفرد بأكملها (مورث ومكتسب) مع البيئة الواقعية . ونحن نستجيب للبيئة كما ندركها لا كما هي عليه بالفعل وعلى هذا فان موضوع علم النفس عند انصار مدرسة الجشتلط ليس الغرائز والاستجابات الآلية الناجمة عن مثيرو استجابات ، ولكن هو دراسة اوجه نشاط الفرد في بيئته السيكولوجية . وهذا هو ما يطلق اسم المجال السيكولوجي او السلوكي .

وينزع الكائن الحي باستمرار (طبقاً لما أودعه الله فيه من قدرات) الى الاحتفاظ بحالة التوازن وذلك في علاقته بالمجال الكلي ، فاذا ما اختل عنصر من عناصر المجال (وجود عائق او مشكلة تحول دون تحقيق رغبته) فإنه ينتج عن ذلك حالة من التوتر تدفع الكائن الحي الى القيام بنوع من السلوك يستهدف استعادة التوازن وازالة التوتر ، تماماً مثلما يحدث جرح للانسان يقوم الجسم باستعادة توازنه تلقائياً .

تصنيف الدوافع :

صدرت تصنيفات كثيرة للدوافع على عدة اسس منها الفطرية والاكتساب ،

ومنها الشعورية واللاشعورية ، ومنها طبيعة السلوك الصادر عنها . غير أنه يصعب اقامة تصنيف للدوافع على اساس ما يصدر عنها من سلوك نتيجة لتعقد الصلة بين الدوافع والسلوك وسوف نبين ذلك بما يلي :

أولا : ان السلوك الواحد قد يصدر عن دوافع مختلفة فالقتل كسلوك قد يصدر عن عدة دوافع كالغضب او الخوف او الثأر او الطمع او الوطنية والجهاد في سبيل الله كما هو الحال في قتال الكفار . والكذب كسلوك قد يصدر عن الحب المفرط او الانتقام او الصداقة كما قد يصدر عن شعور عميق بالنقص ورغبة في التعويض المرضي .

ثانياً : ان الدافع الواحد قد يؤدي الى الوان متعددة من السلوك تختلف باختلاف الاشخاص ، كما قد تؤدي الى الوان مختلفة من السلوك تختلف لدى الشخص الواحد باختلاف الظروف والحالات . فالرغبة في التقدير الاجتماعي قد تدفع بشخص الى تحصيل العلم بجد والتفوق فيه ، بينما تدفع آخر الى التفوق في ميدان النشاط الاجتماعي . والحاجة الى الامن قد تدفع بشخص الى المغالاة في تحصيل الثروة ، وتدفع بآخر الى الانتماء الى جمعيات ، وتدفع بثالث الى اعتزال الناس .

ثالثاً : كذلك فان الدافع الواحد قد يؤدي الى ضروب مختلفة من السلوك حسب منظوره لطبيعة البيئة من حوله فالطفل الراغب في جلب النظر واستحسان الآخرين قد يشاغب في البيت بينما يظهر بمظهر المطيع الممتثل في المدرسة .

رابعاً : يتغير التعبير عن الدوافع باختلاف المجتمعات والحضارات وباختلاف الحقب التاريخية فدافع العدوان يعبر عن نفسه بالضرب والعنف الجسمي في بعض المجتمعات ، بينما يعبر عن نفسه باقامة الولائم (البوتلاتسن) في بعض المجتمعات (كما هو الحال في بعض مجتمعات جنوب شرق آسيا) وفي بعض الشعوب البدائية لا يضرب الرجل خصمه حين يتشاجران ، بل يأخذ كل منهما عصا فيضرب حجراً ، فمن كسرت عصاه قبل صاحبه كان اشجع منه ويعد هو المنتصر .

خامساً : عادة ما يصدر السلوك الانساني الواحد عن عدة دوافع متشابكة فالانسان قد يتصدق اختياراً او اضطراراً ، طلباً للمثوبة الإلهية او طلباً لمديح

الناس والمركز الاجتماعي ، طمعاً او خوفاً . كذلك فان الانسان يكد ويكدح في الحياة للحصول على لقمة العيش او طلباً للامن والتقدير الاجتماعي او لارضاء الحاجة الى السيطرة او لمساعدة اقاربه . . . الخ ، او لهذه الاسباب جميعاً .

ولهذه الاسباب وغيرها لا يمكن اقامة تصنيف للدوافع على أساس السلوك الصادر عنها ، ويمكن تقديم تصنيف مبسط على اساس مصادر الدوافع واهدافها على النحو التالي :

١ - دوافع فطرية ودوافع مكتسبة ، وقد يكون كل منهما عضوياً جسمياً او نفسياً اجتماعياً .

٢ - دوافع شعورية يعيها الانسان كالدافع الى الطعام والتعلم والمقاتلة ودوافع لا شعورية لا يشعر بها الانسان وتوجه سلوكه ، وتظهر بشكل واضح في العقد النفسية والامراض النفسية المختلفة . وسوف نفصل القول في الدوافع الفطرية والمكتسبة .

أولاً ـ الدوافع الفطرية :

يقصد بالفطري ما يولد الانسان مزوداً به ولا يحتاج لتعلم ، ذلك لانه ينتقل عن طريق الوراثة ، وعلى عكس ذلك المكتسب الذي يأتي نتيجة للخبرة والتعلم . ومن أمثلة الدوافع الفطرية الجوع والعطش والجنس والنوم . . . الخ . ومن علامات الدافع الفطري ما يلي :

أ ـ ظهور الدافع منذ الميلاد أو في سن مبكرة أي قبل أن يستفيد الفرد من الخبرة والتعلم .

ب ـ اشتراك النوع كله في الدافع مهما اختلفت ظروفهم ومواقعهم وظروفهم الاجتماعية . فالدافع الى الطعام والى الشراب ودافع الامومة عام مشترك بين الناس بغض النظر عن مجتمعاتهم .

جـ ـ اشتراك الانسان مع الحيوان في بعض الدوافع كثيراً ما يتخذ دليلاً على فطريته فالانسان يشترك مع الحيوان في كثير من الدوافع كالجوع والعطش والنوم والجنس والامومة والاستطلاع واللعب . . . الخ . غير ان ممارسة الانسان المسلم لهذه الدوافع يختلف جوهرياً عن الحيوان ، فالانسان المسلم يبتغي في كل ارضاء لهذه الدوافع وجه الله ، فهو يبدأ الاكل والشرب باسم الله ، ويأكل المباح

ويتجنب كل ما نهى الله عنه ويمارس الجنس في الحلال . . . الخ .

د- يذهب أغلب العلماء الى أن أهم علامة تميز الدافع الفطري هي ثبات هدفه الطبيعي بالرغم من تغير السلوك الذي يحقق هذا الهدف وهم لهذا يعرفون الدافع الفطري بأنه كل ما يدفع الفرد الى التماس اهداف طبيعية موروثة . ويكون السلوك الصادر عن الدوافع الفطرية (الغريزية) جامداً لدى الحيوانات مثل بناء العش عند الطيور او هجرة الاسماك وادخار الطعام عند النمل . اما ارضاء الدافع الفطري عند الانسان فيتم بأساليب مكتسبة يرضى عنها المجتمع وترضى عنها الشريعة الاسلامية الغراء لدى المسلمين .

وتصنف الدوافع الفطرية الى ما يلي :

أولاً : دوافع تكفل الحفاظ على بقاء الفرد وتسمى بالحاجات العضوية او الفسيولوجية كالجوع والعطش . . . الخ .

ثانياً : دوافع تتعلق بحاجة الفرد الى التوحيد وعبادة الله سبحانه وطلب العون منه سبحانه وهذا الدافع يظهر في كل وقت لدى المسلمين ويظهر في اوقات الازمات لدى غير المسلمين ، فكل مولود يولد على الفطرة (موحداً لله) .

ثالثاً : دوافع تكفل الحفاظ على النوع كالجنس والامومة والحنو . . .

رابعاً : دوافع دفاعية ترتبط بالحفاظ على الذات كالقتال والهرب .

خامساً : دوافع تمكن الانسان من اكتشاف البيئة والتعامل معها مثل دافع الاستطلاع .

وهناك عدة محاولات لتصنيف الدوافع الفطرية الى القسمين الآتيين :

أولاً : الدوافع الفطرية الخاصة او الغرائز والغريزة - كما سبق أن أشرنا - استعداد فطري موروث يحدو بالانسان الى ادراك منبهات معينة والانفعال ازاءها بشكل معين (الوجدان) ثم القيام بسلوك معين او الرغبة في القيام بهذا السلوك (النزوع) وقد سبق ان عرضنا قائمة للغرائز التي اقرها ماكدوجال كمثال .

الاستعدادات الفطرية العامة وهي :

أ ـ الاستهواء ويعني انتقال الادراكات والافكار من شخص لآخر او لآخرين وهو اما فردي او جماعي ، ايجابي او سلبي .

ب ـ المشاركة الوجدانية : وتشير الى انتقال الحالة الانفعالية من شخص لآخر نتيجة لادراك المتأثر للحالة الانفعالية عند الشخص المؤثر .

ج ـ التقليد : ويشير الى انتقال مظاهر معينة من السلوك من فرد لآخر . وقد يكون التقليد مقصوداً او غير مقصود ، شعورياً او غير مشعور به ـ كما في حالة الاطفال .

د ـ اللعب : هو السلوك الذي لا يستهدف غاية محددة الا جلب السرور والتسلية ، وهو عكس العمل الذي هو سلوك غرضي يستهدف تحقيق فائدة معينة . وقد ظهرت عدة نظريات تحاول تفسير سلوك اللعب عند الاطفال والكبار اهمها نظرية الاستجمام ، النظرية التلخيصية ، نظرية الطاقة الزائدة .

ثانياً ـ الدوافع المكتسبة :

يقصد بهذه الدوافع تلك التي يتعلمها الانسان من بيئته الاجتماعية المحيطه به . وعادة ما لا تمارس الدوافع الفطرية لدى الانسان بشكلها الفج كما هو الحال لدى الحيوانات ، ذلك لان المجتمع يهذب اساليب ممارستها بما يتفق مع المعتقدات والتقاليد والانحراف السائد ومن ابرز الامثلة على هذا اثر البيئة الاجتماعية على غريزة التوحيد لدى الانسان ، حيث يمكن لهذه البيئة دعم هذه الغريزة ، كما يمكنها طمسها وتشويهها بتعليم النشء معتقدات زائفة مجافية للمعتقدات الاسلامية .

والواقع ان الدوافع المكتسبة او المتعلمة لا تنشأ من عدم بل تستند اساسا على الدوافع والاستعدادات الفطرية وتنبت في ثناياها تحت تأثير العوامل البيئية الاجتماعية ويمكن تصنيف الدوافع المكتسبة الى ما يلي .

اولا : دوافع اجتماعية عامة لا بد لكل انسان سوي ان يكتسبها من خبراته اليومية بغض النظر عن اختلاف المجتمعات والثقافات مثل الدافع الى الاجتماع بالغير .

ثانياً : دوافع اجتماعية حضارية ، تختلف باختلاف المجتمعات حيث تعمل

بعض المجتمعات على دعمها ، في حين لا تشجعها مجتمعات اخرى كالدافع الى السيطرة والدافع الى العدوان والدافع للتملك .

ثالثاً : دوافع اجتماعية فردية ، وهي الدوافع التي تختلف باختلاف الافراد الذين ينتمون الى حضارة ومجتمع واحد كالميل للقراءة والميول الادبية والعلمية والميل للنشاط الرياضي والاجتماعي والميل الى قيادة سيارة . . . الخ .

وهذه الدوافع المكتسبة جميعها يتفرد بها الانسان عن الحيوان .

كذلك ظهر تصنيف آخر للدوافع المكتسبة الى :
أ) دوافع مكتسبة شعورية
ب) دوافع مكتسبة لا شعورية

ثالثاً ـ الدوافع المكتسبة الشعورية :

من اهم الامثلة على الدوافع المكتسبة الشعورية العواطف ، وهي صفات نفسية ثابتة ذات اثر كبير وهام على الشخصية ، او هي عادات انفعالية ثابتة نسبياً . والعواطف قد تكون مادية او لا مادية (معنوية) وقد تتجه العواطف المادية نحو اشخاص (كالوالد او الاخ او الزوجة او الابن . . .) او نحو اشياء (مثل مكان الدراسة حيث يشعر الانسان بحنين اليه ، والمسلمون يشعرون بعاطفة حب عظيم نحو الكعبة المشرفة ونحو المسجد الحرام ومكة والمدينة لأنها اماكن مقدسة . . .) . اما العواطف المعنوية فعادة ما تكون نحو قيم وافكار معينة مثل حب العدل وحب الايمان وكراهية الكفر والفسوق والعصيان . . . الخ .

وقد تكون العواطف المادية فردية مثل حب الاب لابنه او حب الزوج لزوجته ، وقد تكون جماعية مثل حب المسلم لجميع المسلمين وحب المدرس لجميع تلاميذه . . . الخ .

وعادة ما يوجد لكل انسان عاطفة معينة تطغى على بقية العواطف لديه ، هي ما يمكن ان نطلق عليها « العاطفة السائدة » وهي التي تتحكم في سلوك الفرد وتعد ثابتة نسبيا الى حد كبير وتعمل على توجيه وتثبيت سلوك الفرد ، مثل العاطفة الايمانية لدى المسلمين ، ومثل عاطفة حب الوطن ، او حب المال لدى بعض الشخصيات .

وعادة ما يكوّن الفرد ـ خلال تعاملاته مع الآخرين ـ فكرة عن نفسه « تصور الذات » وتتحكم هذه الفكرة في سلوك الفرد بشكل واضح حيث يقوم بأداء الاعمال التي تتفق مع فكرته عن نفسه ، ويرفض الاعمال التي لا تتفق مع هذه الفكرة .

ثانياً ـ الدوافع المكتسبة اللاشعورية :

ويقصد بها العقد النفسية وهي مجموعة من الافكار والدوافع والذكريات المؤلمة المكبوته والمصحوبة بشحنة انفعالية عالية والتي تؤثر في السلوك دون علم من الفرد . وقد تتكون العقد من تربية فاسدة في عهد الطفولة المبكرة ، كما قد تتكون من صدمة انفعالية شديدة . مثل موقف خيانة مفاجيء . والعقد اتجاه لا شعوري لا يفطن الانسان وجوده ولا يعرف اصله ومنشأه . وما يدركه هو آثار العقدة في سلوكه او تفكيره او شعوره او جسمه . ومن اهم خصائص السلوك الصادر عن العقد النفسية انه سلوك غير منطقي ولا يتناسب مع المثير الذي يحركه . كذلك فانه سلوك يختلف عن السلوك السوي او المعروف عن الشخص ، ذلك لانه سلوك فسري يشعر الفرد انه يساق اليه رغم انفه . . .

الحاجات النفسية في الاسلام :

نبهنا الاسلام الحنيف منذ اربعة عشر قرناً الى أهمية الحاجات النفسية للانسان . فالرسول عليه الصلاة والسلام يوضح لنا بجلاء اهمية الحاجات الانسانية الى الحب والامن الجسمي والامن الروحي والامن الاقتصادي ، حيث يقول عليه السلام انه « من بات آمناً في سربه ، معافا في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» ويقول تعالى :

﴿ الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

ويقول تعالى : ﴿ انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾

ويربط الاسلام بين الامن النفسي وبين التقوى والالتزام بالعقيدة الاسلامية والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، فالاسلام يخلص المؤمن من عقدة الخوف من المستقبل ، فالمستقبل غيب والغيب بيد الله وحده ، كما يخلصه من عقدة الخوف من الموت فلكل اجل كتاب ، ولن تموت نفس حتى توفى اجلها ، ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء اجلها ، ثم انه سبحانه وعد المؤمنين جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبداً تحيتهم فيها سلام وآخر

دعواهم أن الحمد لله رب العالمين . ويقبل المؤمن على الشهادة بحب غير مدبر ويستعذبها ايمانا منه ان الشهداء احياء عند ربهم يرزقون .

كذلك فان المؤمن يتحرر من عقدة الخوف على الرزق فهو يؤمن بما قاله تعالى ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ ويقول عليه السلام « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان تنفعك بشيء لن تنفعك الا بشيء قد كتبه الله تعالى لك ، ولو اجتمعت على ان تضرك بشيء لن تضرك الا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك - طويت الصحف وجفت الاقلام .

وقال تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسئلك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ والمؤمن متحرر من القلق والخوف تحفه الملائكة يقول تعالى ﴿ قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون ، اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ (المؤمنون ١ - ٩) ويقول تعالى مبينا اهم السمات النفسية والخلقية لعباد الرحمن :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، الذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ . . . . الخ الآيات الكريمة .

ويدرك المؤمن ان الله سبحانه يضعه في الدنيا موضع الاختبار والابتلاء فلا يجزع ولا يخاف ويظل محتفظا بتوازنه وبشعوره بالامن والسلام قال تعالى :

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف ﴾

وقال تعالى :

﴿ ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، الا ان نصر الله قريب﴾ (البقرة ٢١٣) .

وقال تعالى :

﴿ كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ، لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا أذى كثيرا وان تصبروا او تتقوا فان ذلك من عزم الامور ﴾ (آل عمران **١٨٤ - ١٨٥**) .

وحتى تتحقق للمؤمن حاجاته النفسية ، عليه بمتطلبات الايمان الحق من توحيد الله وعبادته حق العبادة والامتناع عن الكبائر والفواحش واجتناب نواهيه واتباع اوامره سبحانه ويشير رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام الى انه ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله يتدارسون القرآن الكريم فيما بينهم الا تنزل عليهم السكينه وتغشاهم الرحمة ويذكرهم الله فيمن عنده . والمؤمن حتى ينال رضوان الله ويشعر بالامن عليه بالاستقامة قال تعالى : ﴿ فاستقم كما امرت ﴾ (هود **١٢**) وقال تعالى :

﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ (فصلت **٣٠ - ٣٢**) .

ويجد المؤمن الحق راحته النفسية في الصلاة وكان عليه الصلاة والسلام يقول لبلال « ارحنا بها يا بلال » وجعلت قرة عينه عليه الصلاة والسلام في الصلاة . كذلك فان المؤمن يجد أمنه وراحته النفسية في تقوى الله وخشيته تنفيذاً لقوله تعالى ﴿ وإياي فارهبون ﴾ (البقرة **١٤**) ويقول تعالى :

﴿ ويحذركم الله نفسه﴾ وخشية المؤمن لله وعبوديته له سبحانه تحقق له العزة والسمو وعدم الخضوع لاحد من العباد الا فيما يرضى الله فللّه العزة ولرسوله وللمؤمنين .

والمؤمن الحق لا ينقطع رجاءه من الله سبحانه ، فهو يشعر بالامن والرضا والطمأنينة في حضرة الله ، فهو في حضرة رحمن رحيم يغفر لعباده ويعفو عن كثير ، قال تعالى :

﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم ﴾ (الزمر ٥٣) .

والحديث عن الحاجات النفسية في الاسلام وكيف يكفل الايمان تحقيقها حديث يطول وتتعدد تفصيلاته ، ويكفي ما ذكرناه منها . وقد ادرك علماء النفس بعد ١٤٠٠ سنة اهمية الحاجات النفسية التي عالجها ونبه اليها الاسلام متمثلا في الكتاب والسنة ويمكن ايجاز اهم هذه الحاجات النفسية التي يركز عليها علم النفس الحديث فيما يلي :

اولا ـ الحاجة الى الحب :

وهي حاجة مستمرة مع الانسان منذ طفولته فالطفل في حاجة الى حب المحيطين به ، وعندما يكبر الانسان يحتاج الى حب الآخرين في صورة علاقات طيبة يكونها معهم ، ومن يفقد الحب ولا يشبع هذه الحاجة في الصغر يصاب بالعديد من الاضطرابات النفسية في الكبر .

ثانيا ـ الحاجة للأمن :

يمكن القول ان الطفولة البشرية هي اطول طفولة بين الكائنات الحية ، والطفل يشعر بالامن الى جوار امه وأبيه ، ثم بعد ذلك يشعر بالامن داخل الجماعة وبتحقيق الاستقرار الجسمي والاقتصادي والروحي . . . وقد سبق ان اشرنا ان المؤمن يتحقق امنه في ايمانه بالله واتباع الكتاب والسنة فالله ولي الذين آمنوا .

ثالثا ـ الحاجة الى النجاح :

فالنجاح هدف للفرد منذ طفولته الى نهاية اجله وعادة ما يقود النجاح الى نجاح آخر .

رابعاً ـ الحاجة الى الحرية :

وهي نعمة وهبها الله للانسان ، وقد ذكر الصحابي الجليل الفاروق لأحد الولاة ـ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً ؟ وتتمثل هذه الحاجة في حاجة الفرد الى الاستقلال في سلوكه وتصرفاته ـ في اطار الشريعة الغراء وتنفيذ اوامر الله والامتناع عن المحرمات والألزام اقامة حدود الله سبحانه وتعالى .

خامسا ـ الحاجة الى التقدير :

وتشير هذه الحاجة الى ان الفرد يحتاج الى ان يكون موضع تقدير الجماعة المحيطة به ، وان يكون مرغوباً فيه اجتماعيا .

سادسا . الحاجة الى التعبير عن الذات :

فالانسان يسعى دائما الى ان يعبر عن نفسه وان يكون له صوت مسموع وسط جماعته .

سابعا ـ الحاجة الى الانتماء :

فالانسان اجتماعي بطبعه ويحتاج دائما الى الانتماء الى جماعات اجتماعية يتوحد بها ويشعر انه جزء لا يتجزء منها واول هذه الجماعات الجماعة الاسرية ثم تعدد بعد هذا الجماعات كجماعة المسجد وجماعة المدرسة وجماعة الاصدقاء . . . الخ .

هذه هي اهم الحاجات الاساسية للانسان وهناك العديد من الحاجات المشتقة المتعددة .

الفصل السادس

العمليات العقلية ١- الانتباه

١ ـ مقدمة حول دراسة العمليات العقلية

٢ ـ العلاقة بين الانتباه والادراك

٣ ـ الانتباه كعملية اختيارية

٤ ـ انواع الانتباه وتصنيفه

٥ ـ العوامل المسؤولة عن جذب الانتباه

أ ـ العوامل الخارجية

ب ـ العوامل الداخلية

٦ ـ تشتت الانتباه

أ ـ معنى تشتت الانتباه

ب ـ الاسباب العضوية

ج ـ الاسباب الراجعة لمشكلات نفسية واجتماعية

د ـ الاسباب الراجعة الى البيئة المادية الخارجية

مقدمة حول دراسة العمليات العقلية

وهبنا الله سبحانه وتعالى العديد من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها . وقد ميزنا سبحانه عن باقي خلقه بالعقل والارادة وطلب منا ان نتدبر في انفسنا وفي الكون حتى يتبين لنا انه الحق . ﴿ وفي انفسكم افلا تبصرون ﴾ وقال تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسكم حتى يتبين لهم انه الحق ﴾ . ويهتم علم النفس بدراسة العمليات العقلية من حيث وصفها وبيان كيف تتم وتفسير حدوثها وتشخيص امراضها ووصف العلاج اللازم لها ـ ونقصد بالعمليات العقلية الانتباه والادراك والتعلم والتعليم والتذكر والنسيان والاستدلال والابتكار والتفكير والتخيل . وسوف نحاول في هذه الدراسة ان نقف على بعض هذه العمليات وطالما ان الانسان يعيش في بيئة طبيعية وبيئة اجتماعية ، وتتوقف حياته على قدرته على التعامل معهما والتفاعل معهما بشكل ايجابي يحقق له الامن المادي والنفسي كما يحقق له التوافق مع الآخرين ، فان عمليتي الانتباه والادراك يحتلان موقعا هاما بين العمليات العقلية ، لانهما السبيل الاول لاتصال الفرد ببيئاته المختلفة . يضاف الى هذا انهما الاساس الاول لكافة العمليات العقلية الاخرى . وتتوقف شخصية الفرد على مسارات انتباهه ونوعية ادراكه . فلكل شخص بيئته السيكولوجية او النفسية . فعادة لا يدرك الانسان البيئة من حوله ادراكا موضوعيا وانما يدركها من وجهة نظره . ويتوقف سلوكنا وتكيفنا وشخصياتنا على كيفية ادراكنا للبيئة الاجتماعية التي نعيش وسطها بمكوناتها من اشخاص وقيم ومعتقدات ونظم . فالشخص غير المتعلم لا يدرك البيئة الاجتماعية حوله كما يدركها المتعلم ، كذلك فان الطفل تختلف مخاوفه ومسببات فرحه وغضبه بالمقارنة بالكبير الراشد ، وتختلف اهتمامات المرأة عن الرجل . . . الخ . ويرجع هذا كله الى الاختلاف في الادراك .

ويمكن القول بوجود صلة وثيقة بين الادراك كعملية عقلية وبين الصحة

النفسية ذلك لان توافقنا الاجتماعي وقدرتنا على العيش بسلام وسط الناس يتوقف على قدرتنا على الادراك السليم لمكونات البيئة الاجتماعية من عادات واعراف وتقاليد ومعتقدات ، وما هو مرغوب فيه وما هو مرغوب عنه كما يتوقف على طبيعة تصور الذات اي تصور الانسان لموقعه الفعلي داخل مجتمعه من حيث حجمه الاجتماعي واتجاهاته نحو الآخرين واتجاهات الآخرين نحوه . وأي خلل في هذه الادراكات يسببا لنا الاضطرابات النفسية ويدخلنا في دائرة سوء التوافق والمرض النفسي . ويمكن القول بان احد المظاهر العامة في الاضطرابات السلوكية تشويه ادراك الواقع الاجتماعي .

العلاقة بين الانتباه والادراك :

الواقع ان العلاقة وثيقة بين العمليتين ، ذلك لان الانتباه عملية اساسية تسبق الانتباه وتمهد له . فاذا كان الانتباه هو الالتفات الى شيء معين مجهول او معلوم فالادراك هو معرفة هذا الشيء . فاذا سمعت وقع اقدام انتبه اي التفت الى القادم ثم ما ألبث ان ادرك انه اخي او صديقي او شخص غريب لا اعرفه . واذا كان الادراك عملية يشترك فيها الناس كلهم لشيء معين ، فانهم يختلفون تماما في مدركاتهم حسب السن والجنس والخبرة والاهتمام والحالة النفسية . . . الخ . وعلى هذا قد يتوحد الانتباه ويختلف الادراك فقد يلتفت او ينتبه مجموعة من الناس الى جبل ، فيدركه شخص من منظور العظمة الالهية ، ويدركه شخص آخر من المنظور الجيولوجي - طبيعة الاحجار وتكوينات الصخور - ويدركه ثالث على انه مكان للنزهة . . . الخ . وقد أقف انا وابني امام واجهة محل وهنا نكون قد انتبهنا الى شيء واحد ، ولكني ادرك فورا الكتب ، بينما يدرك ابني اللعب لاختلاف مجالات الاهتمام .

الانتباه كعملية اختيارية

يمكن القول بان الانسان لا يدرك جميع الاشياء والمنبهات من حوله بشكل موضوعي ، وانما يدركها بشكل انتقائي . فالطلبة في موقف الفصل الدراسي تحيط بهم منبهات كثيرة - الجبل خارج الفصل وطلاء الحجرة والاصوات الخارجية والشمس او الغيام والسحب . . . الخ . غير ان الطالب يركز انتباهه في السبورة وما عليها من معلومات والى حديث الاستاذ . ويمكن ان تكون هناك آلام معينة يعاني منها شخص (منبهات داخلية) لا ينتبه اليها الانسان لانه مستغرق في

الصلاة وعلى هذا فالانسان لا ينتبه الى كل ما يحيط به من منبهات ـ خارجية بصرية او سمعية او ذوقيةـ او منبهات داخلية صادرة عن داخل جسمه كالجوع والعطش أو فكرية كالخيالات والذكريات . . . وانما ينتبه الى ما يتفق مع رغباته وطبيعة الموقف الذي يعايشه . فقد لا ينتبه الانسان الى انه جائع لم يتناول غداءه لأنه منهمك في العمل . والانتباه يعني تحقق التهيء الذهني اي توجيه الشعور وتركيزه في شيء معين من اجل ملاحظته او التفكير فيه او ادائه .

فانا مثلا وأنا اكتب هذا الكتاب يكون تركيزي اساسا فيما اقرأه من كتب وما هو مسطور امامي . ويقال أن هذه الكتب والموضوعات التي ابحث فيها تكون في بؤرة الشعور ، اما ما عداه من منبهات موضوعية موجوده امامي لا اهتم بها كالاضواء والاصوات وحديث الناس من حولي تكون فيما يطلق عليه هامش الشعور .

تصنيف الانتباه

هناك عدة انواع من الانتباه ومعيار التصنيف هو طبيعة المنبه وعلاقته بالشخص . وعلى هذا الاساس يمكن تصنيف الانتباه الى ما يلي :

اولاً ـ الانتباه الاجباري : وهو ذلك النوع الذي يكون المنبه فيه من الوضوح والفجائية بحيث يجذب الشخص قسرا اما لارتفاع صوته او شدته ، كما في حالة وقوع حادث مفاجيء في الطريق فان الصدمة والصوت العالي يجذب انتباه المارة ، او وجود برق خاطف قوي يجذب انتباه الناس . وهنا يفرض المثير نفسه على الناس لخصائصه المعينة ، فيضطرهم الى انتقائه والالتفات اليه .

ثانيا ـ الانتباه العفوي التلقائي : وهو الذي يحدث دون جهد واضح من الشخص وبطريقة عفوية كما يحدث عندما انتبه الى صديق في الشارع أو الى واجهة محل اتفرج عليه . . . الخ .

ثالثا ـ الانتباه الارادي العمدي : وهو ذلك الانتباه الذي يتطلب من الشخص بذل جهد واضح كما يحدث اثناء استذكار الطلاب للدروس الجافة الصعبة ، او الانتباه العمدي لمتابعة درس معين . وهنا يبذل الفرد جهد للتغلب على ما قد يعتريه من ملل او ضيق او تشتت للانتباه . ويتوقف الجهد المبذول على شدة الدافع الى الانتباه ووضوح الهدف من الانتباه . ففي حالة الطالب فان

الدافع واضح هو النجاح والحصول على شهادة والهدف واضح وهو فهم الدرس لا مكان الاجابة في الامتحان . وعلى واضعي البرامج التعليمية للاطفال مراعاة هذا الامر .

العوامل المسؤولة عن جذب الانتباه :

سبق ان اشرنا الى ان الانتباه عملية اختيارية ارادية في غالب الامر وهناك مجموعة من العوامل المسؤولة عن توجيه انتباهنا الى منبهات معينة دون غيرها من المنبهات العديدة ـ الداخلية او الخارجية ـ المحيطة بنا . ويمكن تصنيف عوامل جذب الانتباه الى عوامل خارجية اي تتعلق بالمنبه نفسه وعوامل داخلية تتعلق بالشخص الذي يمارس الانتباه . ولمعرفة هذه العوامل اهمية كبرى في مجال الدعوة الاسلامية من حيث تصميم المجلات الدينية واللوحات التي تكتب عليها التوجيهات الدينية واساليب تصميم وتنفيذ المحاضرات والجلسات النقاشية للتفقه في امور الدين . وكما يفيد كثيرا في المجال التجاري من حيث تصميم الاعلانات التجارية وجذب نظر المستهلكين لسلعة معينة . . . الخ .

أ ـ العوامل الخارجية لجذب الانتباه :

تتعلق هذه العوامل بطبيعة المنبه نفسه . وسبق ان اشرنا الى ان علم النفس الآن أصبح علما تجريبيا ، ولهذا فان العوامل التي نذكرها هي ما اسفرت عن التجارب . وقد طرح السؤال التالي : ما هي الخصائص التي تجعل اعلانا معيناً اكثر تأثيراً في الناس ويستمر هذا التأثير مدة طويلة ؟ وكانت الاجابة ان هناك عدة خصائص في الاعلان تجعله يحوز هذه الصفات اهمها ما يلي :

اولاً ـ شدة المنبه : كلما كان المنبه شديدا كان اكثر جذبا للانتباه . ويمكن ان تكون الشدة هذه متمثلة في الوان زاهية شديدة الوضوح والتقابل ، او اصوات عالية او روائح نفاذة . . . الخ . ويجب التنبيه الى شدة المنبه تساعد على جذب الانتباه اليه ولا تحتم ذلك فعندما يكون الانسان مستغرقا في الصلاة مثلا فلا يجذب انتباهه اي مؤثر خارج صلاته .

ثانيا ـ تكرار المنبه : كلما كان المنبه متكرراً كلما كان أدعى الى جذب الانتباه بشكل أقوى . فلو أن بائعا جائلاً نادى على السلعة التي يبيعها مرة واحدة فقط لما جذب انتباه احد ولكن ان كرر النداء جذب الانتباه . غير انه لوحظ أن التكرار الرقيب يفقد القدرة على جذب الانتباه وهذا هو ما

جعل رجال الاعلان والدعايه الى النصح بضرورة تنويع الاعلانات وتغييرها بين الحين والآخر حتى لا تفقد فعاليتها .

ثالثا ـ تغير المنبه : دلت التجارب ان المؤثرات الرتيبة لا تجذب الانتباه فكلما كان المنبه متغيرا كلما جذب الانتباه بشكل اقوى . فنحن عادة ما لا ننتبه الى موتور السيارة طالما ان صوته عادي ، انما ننتبه اليه لو أصابه شيء فتغير صوته . وكلما كان التغير فجائيا (في اللون او الصوت او الشكل . . .) كان اثره اقوى .

رابعا ـ وضوح المنبه على ارضية مختلفة (التباين): عادة ما يفضل في الكتاب الورق الابيض والحبر الاسود ، وعند عمل اعلان يفضل ان يكون الاعلان على ارضية تبرزه وتوضحه .

خامسا ـ موقع المنبه : دلت التجارب على ان موقع المنبه له علاقة كبيرة بجذب الانتباه . فكلما كان المنبه في موقع واضح كان جذبه للانتباه اقوى . ويمكننا الاستفادة من هذه المعلومة عند وضع اللوحات الدينية في الكلية والمسجد والاماكن العامة . وقد وجد ان المعلومات المكتوبه في الصفحة الاولى من الجريدة تجذب الانتباه بشكل اقوى من المعلومات بداخل الجريدة ، وان ما يكتب في النصف الاعلى من الصفحة اكثر تاثيرا من النصف الاسفل .

سادسا ـ حركة المنبه : دلت التجارب على ان الاعلانات المتحركة والاصوات المتغيرة اكثر جذبا للانتباه من الاعلانات والاصوات الثابتة . واستفاد رجال الاعلان من هذه المعلومة في تصميم الاعلانات الكهربائية المتحركة ؛ ويمكن للمدرس الاستفادة منها في ضرورة تغيير نبرات صوته اثناء تدريسه ، ويمكن للقراء والوعاظ الاستفادة منها في ممارسة اعمالهم .

ب ـ العوامل الداخلية لجذب الانتباه :

يقصد بالعوامل الداخلية ، تلك التي لا تتعلق بالمنبه نفسه وانما تتعلق بالشخص ذاته ، وهي التي تحقق له التهيؤ الذهني وتركيز شعوره في المنبه . وقد

تكون هذه العوامل دائمة اومؤقتة . ونعرض فيما يلي بايجاز لاهم هذه العوامل على النحو التالي :

١ ـ **الحاجات البيولوجية** : ويقصد بها الحاجات الجسمية للانسان كالجوع والعطش والنوم والراحة . فالجائع أول ما يدركه الاكل والعطشان يسترعي انتباهه السوائل . . . الخ .

٢ ـ **الحاجات الاساسية للانسان** : فهناك دوافع اساسية لدى الانسان اودعها عمليات الله سبحانه وتعالى في الانسان لتهيء له الأمن والتعرف على ما حوله واعتلاء موقع داخل مجتمعه وآراء وظائفه السامية في تعمير الارض والدعوة الى الله ، ولدى الانسان تهيؤ ذهني مستمر للانتباه الى كل ما يسبب له الخطر حماية لذاته ونوعه ، كما انه لديه تهيؤ ذهني لفكرة الناس عنه حتى يستطيع العيش في سلام معهم .

٣ ـ **التهيؤ الذهني او الاستعداد المسبق** : فالطالب المستعد لتلقي درسا في مادة معينة يكون اكثر قدرة على تلقي معلوماتها من مادة اخرى لم يهيء نفسه لسماع معلومات فيها ، والشخص الذي يتوجه للسوق لشراء سلعة معينة يكون اكثر استعدادا للانتباه اليها وادراكها بالمقارنة بغيرها . والام النائمة يوقظها صوت وليدها بينما لا يوقظها جرس قوي ، والشخص الراغب في الاستيقاظ مبكرا غالبا ما يستيقظ قبل جرس المنبه .

٤ ـ **الاهتمامات والميول المكتسبة** : يحدث نتيجة للتفاعل بين الانسان ومجتمعه ان يكتسب ميولا جديدة تختلف باختلاف الاشخاص والتربية والاسرة والمدرسة . . . الخ . وعادة ما ينتبه الانسان الى ما يتفق مع ميوله المتعلمة فاذا ما افترضنا ان دارسا للزراعة وللجيولوجيا (علم طبقات الارض) وللاحياء (الحيوانات والانسان) ومتخصص في الشريعة . . . الخ . قاموا برحلة الى منطقة معينة ، فان كل شخص سوف ينتبه الى ما يتفق مع مجال اهتمامه وتخصصه .

تشتيت الانتباه :

طبيعي الا يثبت انتباه الانسان على شيء واحد لمدة طويلة ، ذلك أن من طبيعة الانسان التقلب وقد سبق ان اوضحنا فيما سبق العوامل التي من شأنها بقاء

انتباه الانسان مركزا على شيء بعينه سواء العوامل الخارجية او الداخلية . والالفة بالموضوع تسهم عادة في تزايد قدرة الانسان على تركيز الانتباه . وهـذا تتضـح العلاقة الايجابية بين الانتباه والالفة ، وبين الانتباه والاهتمام . وكثيرا ما يشكـو الطلاب من عدم قدرتهم على تركيز الانتباه في الدروس او المحاضرات او الكتب التي يستذكرونها . ونحن هنا نتحدث عن نوع واحد من الانتباه وهـو الانتبـاه العمدي المقصود . وهذه الظاهرة يطلق عليها تشتت الانتباه . ولنا ان نتسـاءل عن مسببات هذه الظاهرة من اجل فهمها اولا وعلاجها كظاهرة مرضية ثانيا . ويمكن تصنيف هذه المسببات الى مسببات عضوية ، ومسببـات نفسية اجتماعية ومسببات تتعلق بالبيئة المادية للانسان .

اولا ــ الاسباب العضوية :

يقصد بالعضوية التي تتعلق بجسم الانسان وحاجاته واعضائه الداخلية وما تؤديه من وظائف . فقد يرجع تشتت الانتباه الى الارهاق المسرف نتيجة للانغماس في العمل مدة طويلة جدا ، وعدم اخذ قسط مناسبا من النوم او سوء التغذية او الاضطراب في الجهاز العصبي أو في إفراز الهرمونات التي تفرزها الغدد الصم في الدم مباشرة. ولهذا ينصح الطلاب بعدم قضاء الليل كله في الاستذكار، وبعدم تعاطي حبوب السهر ، وسبحان الله العظيم الذي جعل النهار معاشاً وجعل الليل سباتا وحدد لكل شيء قدره وكل شيء عنـده بمقـدار ، فالافـرازات الزائـدة او الناقصة للغدد تحدث الاضطرابات الجسمية والنفسية المتعددة .

ثانيا ــ الاسباب الراجعة الى المشكلات النفسية والاجتماعية

قد يرجع تشتت الانتباه الى الاضطرابات النفسية او المشـكلات الاجتماعية التـي يعيشهـا الشـــخص ، كما قد يرجـــع الى الميول المكتسبـــة والاهتمامــات الشخصية . فقد يفشل طالب معين في تركيز اهتمامه في مادة معينة لانه لا يميل اليها . وقد كشفت الابحاث الاكلينيكيةعن أن شرود الذهن المرضي قد يرجع الى افكار تسلطية وعقد نفسية كعقدة النقص (شعور الانسان المستمر انه فاشل وغير صالح لأداء المهام الموكولة اليه ، و . . . الخ) او عقدة الاضطهاد (شعوره ان الآخرين لا يحبونه ولا يقدرونه قدره ويريدون ايقـاع الاذى به . . . الـخ) . وهذا يعني ان تشتت الانتباه هنا يكون عرضاً لمرض نفسي . كذلك قد يرجـع التشتت الى ظروف اسرية او اجتماعية سيئـة او غـير موفقـة عايشهـا الشـخص

كالخلاف بين الوالدين او تربية شديدة متعسفة او حرمان من العطف في الصغر . . . الخ .

ثالثا ــ الاسباب التي تتعلق بالبيئة المادية الخارجية :

كشفت التجارب العديدة ان تشتت الانتباه قد يرجع الى عوامل مادية كضعف الاضاءة أو سوء التهوية او ارتفاع نسبة الرطوبة او الضوضاء الشديدة . . . الخ . ويذكر بعض الناس انهم لا يستطيعون العمل الا والمذياع يعمل او في جو موسيقي هادىء . . . الخ . والواقع ان هذا الامر يتوقف على نوع العمل ـ هل هو عمل عقلي او عمل عضلي ، كما يتوقف على درجة اعتياد الفرد على الضوضاء وعلى نوعية هذه الضوضاء .

الفصل السابع

العمليات العقلية ب ـ الادراك الحسي

١ ـ مقدمة
٢ ـ الإحساس وأقسامه
٣ ـ الادراك الحسي ـ مفهومه وارتباطه بالتوافق الاجتماعي
٤ ـ كيفية حدوث عملية الادراك
أ ـ عملية التنظيم الحسي
ب ـ عملية التأويل
٥ ـ العوامل الذاتية في الادراك
أ ـ الحالة الجسمية
ب ـ الحالة المزاجية
ج ـ العواطف والرغبات والميول الشخصية
د ـ المعتقدات والقيم
هـ ـ التوقع والتهيؤ النفسي
و ـ الاضطرابات النفسية

٦ ـ خاتمة

مقدمة

سبق ان اشرنا في الفصل السابق الى الارتباط الوثيق بين الانتباه والإدراك الحسي ، وننتقل الآن لدراسة الإدراك الحسي . واذا ما حللنا هذا المصطلح نجد انه يتضمن مفهومين هما الاحساس ، والإدراك . او الإدراك الناجم عن انفعال الحواس بالمنبهات الحسية ـ الخارجية أو الداخلية . وسوف نفصل القول في هذين الجانبين : الاحساس ، الادراك .

الإحساس وأقسامه

وهبنا الله سبحانه وتعالى نعمة الاحساسات وجعلنا مسؤولين عنهـا او عن استخدامها وتوجيهها أمامه سبحانه قال تعالى ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علـم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ وكثيرا ما ننبهـر عندمـا نشاهد الحاسب الالكتروني (الكمبيوتر) ونتأمل في العقل الانساني الذي خلقه الله سبحانه والذي استطاع ان يتوصل الى هذا الكمبيوتر والى الصواريخ الدقيقة التي وصلت الى القمر وتكتشف اعماق الارض والبحار . . . الخ . ومع كل ما توصل اليه الانسان فهناك الكثير والكثير و﴿ ما اوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ واذا ما نظرنا الى انفسنا من حيث تكويننا الداخلي المعجز والدقيق نجد المعجزة الكبرى للخلـق وصـدق الله تعـالى ﴿ وفي انفسـكم افـلا تبصرون ﴾ ويقـول تعـالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ﴾ فالانسان يبصر ويسمع ويلمس ويشم ويتذوق ويدرك ويفكر ويتخيل ويتذكر ويتعقـل . . . الخ . كيف يحـدث هذا ، ومـا هي تلك الاجهـزة الدقيقـة المسؤولـة عن هذه العمليات ؟ نحن لا نملك أمام هذا الا القول سبحان الله الخالق البارىء المصور الذي يصورنا في الأرحام حيث يشاء ، والذي أحسن تصويرنا .

ما هو الاحساس ؟ . الاحساس هو الاثر النفسي الذي يحدث مباشرة من انفعال عضو حساس (العين للبصر ، الاذن للسمع . . .) وتأثر مراكز الحس في

الدماغ كالاحساس بالالوان والاصوات والروائح والحرارة والبرودة والالم . . . الخ . فهناك عمليتان تحدثان حتى يحدث الإدراك الحسي هما :

أ ـ تلقي العضو الحساس المنبهات الخارجة والتقاطها (كما تلتقط العين الصور الخارجية ، وتلتقط الاذن الاصوات . . . الخ) وتوصيلها الى المراكز العصبية الخاصة في المخ .

ب ـ قيام المراكز العصبية الخاصة في المخ بتأويل هذه المنبهات وتفسيرها . ويجدر بنا هنا ان نشير الى ان هذه الصور الحسية (الصور البصرية والصوتية . . . الخ) يتم ترجمتها في المراكز المتخصصة في المخ (المركز البصري والمركز السمعي . . .) الى حالات شعورية بطريقة لا تزال مستغلقة امام العلم الحديث . . وما اوتيتم من العلم الا قليلا ، وهناك ثلاثة اقسام للاحساسات هي :

اولاً : الاحساسات خارجية المصدر ، وهي التي تنبثق عن منبهات خارجية كالاحساسات البصرية والسمعية والجلدية والشمية والذوقية . . . الخ .

ثانيا : الاحساسات الحشوية داخلية المصدر وهي التي تنبثق عن الاعضاء الداخلية كالمعدة والامعاء والكلي والقلب والاحشاء ومن امثلتها الاحساس بالجوع والعطش والغثيان . . . الخ .

ثالثا : الاحساسات العضلية او الحركية داخلية المصدر ، وهي التي تنبثق عن انفعال العضلات بمؤثرات خارجية او داخلية ومن امثلتها الاحساس بالوزن ـ الثقل والضغط والحركة . وهذه الاحساسات هي المسؤولة عن التوازن الحركي والعضلي عند الانسان .

الإدراك الحسي :

يمكن القول بان عملية الادراك الحسي هي في جوهرها عملية تأويل وتفسير وشرح تقوم بها المراكز المتخصصة في المخ للصور الحسية التي تصل اليها من الحواس والعين والاذن واللسان والجلد . . . الخ . ومن داخل الجسم ـ الاحشاء والعضلات) وهي بذلك العملية التي تطلعنا على العالم الخارجي من حولنا .

فاذا كانت العين تنقل الى المخ صورة انسان ، فان المركز البصري في المخ يخبرني ان هذا الانسان هو والدي او اخي او صديقي ، واذا كان الانف ينقل الى المخ رائحة معينة ، فان المركز المتخصص في المخ يعلمني انها رائحة طعام كذا او رائحة عطر معين . ولا تقتصر عملية الادراك على الصور والروائح والاصوات ، وانما تمتد لتشمل الاحداث كشروق الشمس وقيام المدرس بالقاء الدرس وتحرك سيارة ، وتشمل كذلك إدراك العلاقات مثل اطول من واقصر من واكبر من ، كأن نقول ان هذا الخط اطول من ذاك ، وان هذا الدولاب اكبر من ذاك .

واذا كانت الاحساسات هي نقل الصور الحسية (الخارجية او داخلية المصدر الى المخ) فان الإدراك هو تفسير هذه الصور التي تصل في شكل رموز مهوشة مشوشة . فاذا اقتصر الامر على الاحساسات ـ دون قيام المخ بعملية التأويل ـ لا نجد امامنا سوى مجموعة مهوشة مشوشة متداخلة من المنبهات المبهمة غير المفهومة . وكما كان تكيفنا مع العالم الخارجي . الناس والاشياء والاحداث متوقف على ادراكنا الموضوعي لها ، فان الادراك يلعب دورا هاما وأساسياً في تحقيق هذا التكيف والتوافق .

ونستطيع ان نوضح ذلك بعدة امثلة من واقعنا الاجتماعي فاذا نقلت الينا العين صورة معينة وتم نقلها الى المخ ، فاذا كانت هذه الصورة هي سيارة مسرعة متحركة في اتجاهنا ، فاذا لم يتم تفسيرها موضوعيا على هذا النحو فاننا سوف لا نتحرك من موضعنا وتكون النتيجة وخيمة وهي أن تصدمنا السيارة . واذا لم تنقل الينا الحواس صورة موضوعية لمن حولنا من الناس وتم تفسيرها تفسيرا موضعيا (الإدراك) لما امكن العيش معهم وفقا لعاداتهم وتقاليدهم . ولو انني رأيت وانا اقود سيارتي ضوءاً أحمر ، فلم احس حياله الا باحساس بصري ولم يتم تأويل معناه او معرفة دلالته ، فانني سوف اخرق قواعد المرور وربما تسببت في حادث مروع . . . الخ .

ونحن عندما ندرك ندرك اشياء متمايزة بعضها عن بعض ، كل منها له دلالته ومعناه ، فانا ادرك الشارع والمنازل والسيارات والاشخاص وادرك صديقي الذي اعرفه والناس الذين لا اعرفهم فهناك صور سمعية وبصرية وشمية . . . متمايزة كل منها له معنى خاص وهذا يعني ان العقل البشري يقوم بتحويل الصور البصرية (الموجات الضوئية المتعددة) والصور السمعية (الموجات السمعية . .)

المتعددة وينظمها الى وحدات مستقلة او الى صيغ قائمة بنفسها . فكيف يحدث هذا التنظيم الذي نطلق عليه الإدراك ؟

كيفية حدوث عملية الإدراك :

ساد الاعتقاد بين المشتغلين بعلم النفس ان عملية الإدراك هي في جوهرها نشاط عقلي يربط بين احساسات منفصلة مختلفة ، تماما مثل عملية بناء منزل او بناء الجملة ، فالحائط يتكون من عدة قوالب متماسكة منظمة ، والجملة تتألف من عدة كلمات ، والكلمة تتألف من عدة حروف . . . الخ . وهذا يعني ان الإدراك هو نشاط ايجابي يقوم به العقل لتنظيم الاحساسات الغفل فالعالم الخارجي فوضى يقوم العقل بتنظيمه .

ومع ظهور مدرسة الجشتلط او مدرسة الصيغ الكلية في ألمانيا برز تصور جديد ، مضمونه ان العالم المحيط بنا والذي ندركه ليس عالما من الفوضى والعماء ولكنه عالم منظم بفعل عوامل موضوعية خارجة عن الذات المدركة . وهنا يعتمد الإدراك على هذا التنظيم الذي يعتمد على قوانين محددة هي قوانين التنظيم الحسي التي تعمل على تنظيم المنبهات الحسية - خارجية المصدر - في شكل وحدات او صيغ او كليات مستقلة تبرز في مجال إدراكنا ، ويتم تفسير هذه المدركات في ضوء الخبرة اليومية او في ضوء ثقافة المجتمع الذي تربى داخله الفرد ، وهكذا يتم اضفاء معاني ودلالات محددة على هذه الصيغ ، وتختلف هذه الدلالات باختلاف الاطار الثقافي لكل مجتمع .

وطبقا للنظرية الالمانية (نظرية الصيغ والكليات - الجشتلط) يمكن القول أن عملية الإدراك الاجتماعي تتحقق من خلال عمليتين فرعيتين هما .

أ - **عملية التنظيم الحسي** : وتعتمد على القوانين الموضوعية التي تنتظم بمقتضاها المنبهات الحسية الصادرة عن العالم الخارجي في شكل وحدات مستقلة (صيغ) وذلك بفعل عوامل موضوعية - اي خارجة عن الذات المدركة .

ب - **عملية التأويل** : وهي عملية تفسير لهذه الصيغ يقوم بها الشخص المدرك وهي لهذا عملية ذاتية تعتمد على الخبرة ومعطيات البيئة الثقافية للفرد وسوف نفصل القول بعض الشيء في كل من العمليتين السابقتين :

اولاً ـ عملية التنظيم الحسي :

كشفت التجارب عن ان هناك مجموعة من القوانين الموضوعية ـ اي الخارجة عن ذات الانســان المدرك ـ تنظــم المدركات الحسية في شكل صيغ او كليات مستقلة يمكن ايجازها فيما يلي :

أ ـ **التشابه** : كشفت التجارب عن أنه كلما كانـت المنبهـات الحسية الخـارجية متشابهة ادركها الانسان كشكل أو صيغـة متميزة . ونقصـد بالتشابـه هنـا التشابه في اللون او الشكل او الحجم او الشدة او اتجاه الحركة . فاذا كانت امامنا اشكال متعددة ـ دوائر ومربعات ومستطيلات ـ فإننا ندرك الاشكال المتشابهة اولا كوحدة .

ب ـ **التقارب** : كذلك فاننا ندرك الاشياء المتقاربة كوحدة او كصيغة . ونقصد هنـا بالتقـارب ، التقـارب في المكان (كاشياء او احـداث) او في الزمـان (كاحداث او وقائع او اشياء) . فالنغمات الموسيقية تحصـل على تماسكهـا وندركها كوحدة (قطعة) لأنها نغمات متقاربة او متزامنة) وقل نفس الشيء عن الجملة والكلمة والمقالة . . . الخ .

جـ ـ **الاتصال** : كلما كانت المنبهات الحسية متصلة ببعضها بخطوط او في شكل سلسلة متصلة ، ادركناها كوحدة .

ذ ـ **الشمول** : كشفت التجارب ان الانسان يدرك عادة ـ الكل قبـل ان يدرك مجموع الاجزاء . فاذا كان هناك منبهات حسية تكون شكلاً كليا يتكون من عدة اشكال فرعية ، فاننـا عادة ما ندرك الشـكل الـكلي اولا وقبـل ادراك التفاصيل .

هـ ـ **التماثـل** : عادة ما ندرك الاشياء (الاشـكال ، النغمات ، الاحــداث) المتماثلة لصيغ متفردة .

و ـ **الاغلاق** : عادة ما يميل الانسان الى رؤية او سماع اشياء ونغمات مكتمله ، ومثال هذا فاننا لو رأينا دائرة غير مكتملـة أكملناهـا في ادراكنـا ، وهكذا بالنسبة للأصوات والكلمات . . . الخ . وتـكشف التجـارب أن الانسـان العادي لا يستمع الا **٧٥** ٪ من الأصوات ، ومع هذا يفهمها فهماً كاملاً من خلال ميله الى اكمال **٢٥**٪ من عنده .

ثانيا ـ عملية التأويل :

تلعب الثقافة دورا اساسيا في عملية التأويل . فاذا كان التأويل والتفسير عملية فسيولوجية تتم في المراكز المتخصصة (البصرية والسمعية . .) في المخ ، فإنها عملية اجتماعية ثقافية في نفس الوقت . والقصد بالثقافة هنا كل ما يكتسبه الانسان من واقعه الاجتماعي من مفاهيم وقيم وتصورات ومعتقدات وآمال ومخاوف . . . الخ . فالطفل ينظر الى الشجرة والحيوانات وإلى الناس ويسمع كلامهم ويرى وجوههم ، لكنه لا يدرك هذه الاشياء كما يدركها الراشد الكبير ، لانه لم يألفها في خبرته ولم يتعرف عليها بعد . وخلال عملية الصياغة الثقافية للفرد يتعلم معنى الشجرة والراديو والاشخاص ويتعلم معاني الكلمات ، ويتعلم ان الابتسامة دلالة على الرضا ، وان العبوس دلالة على الغضب . وهذا هو اساس ما يطلق عليه « الادراك الاجتماعي » اي ادراك الرموز والعلامات التي تعبر عن مشاعر الآخرين أو عواطفهم ومقاصدهم ومخاوفهم . . . الخ .

وترتبط عملية تأويل المدركات الحسية ارتباطا واضحا بالخبرة السابقة وما يتعلمه الانسان من واقعه الاجتماعي الذي يعيشه. فالمسجد في نظر المسلم المؤمن، غيره في نظر غير المسلم أو الذي لم يحظ بنعمة الايمان وعندما يدخل الطالب كلية الطب لأول مرة فانه يرى الجثة أو شريحة معينة تحت المجهر رؤية عامة غير متفهم معناها ودلالاتها ، بعكس الحال بالنسبة للطالب القديم او المتخرج . وهذا يعني اننا نفسر ونؤول في ضوء خبرتنا السابقة وما تعلمناه ، هذا اذا كان المنبه الحسي واضحا بشكل كاف اما اذا كان المنبه الحسي غامضا ، فاننا نميل الى تأويله بحسب ميولنا ورغباتنا ومخاوفنا الداخلية ، وهذا هو معنى الاسقاط ، اي نسقط ما بداخلنا على الموضوعات الخارجية ، وهي عملية نفسية لا شعورية ، وينظر اليها على انها حيلة نفسية لا شعورية او ميكانزم دفاعي . . . الخ . وقد استغلت هذه الفكرة في صياغة ما يطلق عليه الاختبارات الاسقاطية .

ويختلف الناس في ادراكهم للشيء الواحد باختلاف السن والخبرة السابقة والذكاء والاهتمامات وباختلاف الثقافة والطبقة الاجتماعية والتعليم . . وقد أجريت العديد من التجارب التي تبرز هذه الاختلافات من بينها تلك التي توضح اثر الخبرة السابقة . وتتمثل التجربة في اسقاط حروف على ستار معتم ومعرفة المدة المطلوبة للتعرف عليها . وقد وجد ان زمن العرض الكافي لقراءة

(٦) حروف منفصلة يكفي لقراءة (١٠) حروف مجتمعة (عامل التقارب والشمول) في مقاطع ، (١٥) حرفاً مجتمعة في كلمات ، (٣٠) حرفا مجتمعة في جملة قصيرة ، ذلك اننا لا نقرأ حرفا بحرف ، بل نتعرف على مجموعة من الحروف تتميز بتفصيل خاص او سمة خاصة تكون بمثابة ستار تسقط عليه الذاكرة بعض ما تختزنه .

وبناء على نظرية الجشتلط (الصيغ) فان للملابسات والاطار العام اثر كبير في عملية التأويل ، فالجزء يختلف معناه باختلاف الموقع وباختلاف الظروف ، على اساس ان الجزء يستمد معناه من الكل الذي يوجد داخله فالصرخة في ملعب الكرة غير الصرخة في المستشفى . ولو انك رأيت رجلا يصفع قفاه عدة مرات لحسبته مجنونا ، ولكن لو عرفت انه يحاول التخلص من حشرة - اي عرفت الملابسات - لاختلف إدراكنا له .

****

ويمكن القول ان الإدراك نعمة كبيرة أنعم بها الله سبحانه وتعالى على الانسان ، وهي عملية معقدة غاية التعقيد تستغرق نشاط الجوارح والاعصاب والمخ ويتدخل فيها البيئة الاجتماعية او الثقافة والسن والذكاء والخبرة والعقيدة . . . والمسلم عندما يدرك الخنزير ، يدركه كشيء منفر قذر محرم اكله ، على عكس غير المسلم الذي قد يدركه كشيء ثمين يمكن ذبحه والتلذذ بأكله . وهنا يظهر اثر العقيدة في الإدراك . وعندما نقول ان الإدراك شيء معقد فاننا نستطيع الاستدلال منه على عظمة الخالق سبحانه ، فعندما أدرك سيارة او مبنى الكلية او معنى من المعاني ، فان هناك اجهزة متعددة تعمل في اقل من الثانية داخل جسم الانسان ، فخلال الادراك تعمل اجهزة الحواس والذاكرة والمخيلة والمخ والاعصاب الصاعدة من الحواس الى المخ والهابطة من المخ للحواس . . . الخ .

والإدراك - على عكس ما يظنه البعض - ليس عملية سلبية ، لكنه في جوهره عملية ايجابية . فكما ان وظيفة المعدة لا تتمثل فقط في استقبال الطعام وإنما التاثير فيه بالاحماض والعصارات والافرازات من اجل هضمه وتحويله الى دم وأنسجة حية ، كذلك فان عملية الإدراك لا تتمثل فقط في استقبال المنبهات الحسية

(كالكاميرا او جهاز التسجيل) ولكننا نجد ان العقل البشري يضيف ويحذف وينظم ويفسر ويؤول . ولهذا يمكن القول ان نشاط الحواس ليس هو النشاط الوحيد في عملية الإدراك فهناك النشاط العقلي المنظم والمفسر والمؤدي الى الفهم ، فسبحان الله خالق الانسان بهذا التكوين المعجز .

العوامل الذاتية في الادراك (العوامل المتعلقة بالشخصية) :

سبق ان أوضحنا أن عملية الإدراك عملية لها جانبان ، جانب ذاتي وجانب موضوعي ، فهو في جوهره استجابة نفسية لمجموعة مركبة من المنبهات الحسية التي تصدر عن العالم الخارجي ، وهي استجابة تصدر عن كائن بشري وهبه الله سبحانه وتعالى نعمة الاحساس والتعقل والارادة ، اي عن انسان له شخصية لها تفردها بخبراتها واطارها الاجتماعي وذكرياتها واتجاهاتها النفسية ومعتقداتها وقيمها . . . المختلفة . واذا كان العالم الخارجي يحتوي آلاف المنبهات الحسية فاني ادرك منبهات حسية معينة دون غيرها ، واذا كنت اشترك مع غيري في ادراك نفس المنبهات ، الا اننا نختلف في تأويلها وتفسيرها ، فانا انظر الى الجبال حولي على انها تدل على عظمة الله سبحانه وتعالى الذي جعل الجبال اوتادا ، في حين ينظر اليها غيري من زاوية التركيب الجيولوجي ، وينظر اليها ثالث من المتطور الجغرافي أي من حيث اثرها على المناخ . . . الخ . هذا الاختلاف في انتقاء المدركات ـ وهي انتقاء شعوري ولا شعوري ـ وفي تأويل وتفسير هذه المدركات الحسية ، اقول ان هذا الاختلاف يرجع في المحل الأول الى عوامل ذاتيه متعددة ، سبق ان أوضحنا الخبرة والتعلم والوسط الاجتماعي وسوف نوضح فيما يلي اهم العوامل الذاتية الاخرى :

١) **الحالة الجسمية للفرد** : كشفت التجارب عن ان الادراك يتأثر بشكل واضح بالحالة الجسمية للفرد ، فإدراك السليم غير إدراك المريض ، وإدراك الجائع غير إدراك غير الجائع .

٢) **الحالة المزاجية** : كذلك فان الحالة المزاجية ـ الرضا ـ السخط ـ الغضب . . . الخ . يؤثر بشكل واضح في عملية اختيار وتأويل المدركات . ولهذا قال الشاعر :ـ كن جميلا ترى الوجود جميلا . والواقع ان انفعال القوى يشوه الإدراك ، فالزوج الغيور جداً يؤول كل تصرفات زوجته بطريقة غير سليمة .

٣) **العواطف والرغبات والميول الشخصية** : قيل قديماً ان حبك الشيء يعمي ويصم ، فالانسان لا يرى في صديقه الذي يحبه أو في زوجته تلك العيوب التي يراها الآخرون المحايدون ، كذلك فان الانسان الذي يكره آخر يرى فيه من العيوب ما لا يراه الآخرون . اما عن الاهتمام والميول الشخصية فيبدو في انتقاء موضوعات من مجلة واحدة للقراءة ، فكل شخص يدرك فورا الموضوع الذي يتفق مع اهتماماته وميوله الشخصية ويركز عليه .

٤) **أثر المعتقدات والقيم** : تبدو أثر المعتقدات الدينية ظاهرة جلية في الإدراك من حيث الانتقاء والتفسير ، فالمؤمن المسلم لا ينظر الى المحرمات ، كما أنه لا يأكل المحرمات ، ويدرك الدم والميتة ولحم الخنزير بشكل مخالف تماما عن ادراك غير المسلم ، فهو يرى أن هذه الاشياء محرم اكلها تشمئز منها نفسه ، في حين يرى فيها ابناء بعض الشعوب مثل قبائل جنوب السودان (الدم) وأوربا (الخنزير) أشياء ثمينة وموضوعات للأكل الشهي . والمسلم ينظر الى من يوقع الاذى بالآخرين معتدياً آثماً ، في حين ينظر اليهودي الى من يوقع الاذى في غير اليهودي على انه رجل فاضل ينفذ تعليمات الدين . . . الخ .

٥) **التوقع والتهيؤ النفسي** : يتضح اثر التهيؤ النفسي في العديد من الوقائع اليومية ، فالام تكون حساسة جدا لصراخ ابنها حيث تستيقظ لصراخ ابنها الهادىء ، في حين لا يوقظها صوت جرس المنبه المزعج . والشخص الذي يريد ان يستيقظ مبكرا ، عادة ما يستيقظ قبل دق جرس المنبه . والطالب الذي يتوقع سماع محاضرة في علم النفس او الفقه ، يكون مهيئا لقبولها وفهمها من اي مادة اخرى .

٦) **الاضطرابات النفسية والعقد** : تكشف بحوث علم النفس ان الاضطرابات النفسية كالعقد النفسية والكبت المسرف ، تشوه الادراك ، فالشخص غير الواثق في نفسه او الذي يعاني من الشعور العميق والمزمن بالنقص يتهم زوجته واصدقاءه بالخيانة . . . الخ .

* * * * * * * * *

خاتمة

وبوجه عام نستطيع القول بان الفرد لا يستجيب للبيئة كما هي عليه بطريقة موضوعية ، وانما يستجيب للبيئة كما يدركها ، حسب معتقداته وقيمه وميوله

واتجاهاته النفسية وحالته الجسمية والمزاجية . . . الخ . فالاطفال يخافون من اشياء لا يخافها الكبار ، ونحن نخاف من اسد فار من القفص ولا نخاف من الاسد المطلوق في ساحة السرك والمسلم المؤمن لا يخاف الموت لانه يعتقد انه الحق ، في حين يسبب انزعاجا لغير المسلم ، كذلك فان المسلم يحب الجهاد والاستشهاد في سبيل الله لانه يوقن أن مأواه الجنة . وهذا يعني ان نوعية الادراك سواء على مستوى الانتقاء او التفسير ، يوجه السلوك ويحدد نوعيته .



الفصل الثامن

العمليات العقلية جـ ـ التعلم

١ ـ مقدمة حول مفهوم التعلم
٢ ـ أهمية موضوع التعلم في مجال التربية والدعوة الاسلامية
٣ ـ أنواع التعلم واهدافه
٤ ـ التعلم ودوره في النمو النفسي والاجتماعي للفرد
٥ ـ علاقة التعلم ببقية العمليات العقلية ـ الادراك ـ التفكير ـ التذكر ـ الاسترجاع ـ التعرف ـ النسيان .

مقدمة حول مفهوم التعلم

وهب الله للانسان نعمة العقل اي القدرة على التفكير الحسي والمجرد ، والقدرة على اختزان المعلومات التي ينقلها اليه السابقون والاضافة اليها ونقلها للاجيال القادمة . وهذا هو معنى التراث او هكذا تتكون ما نطلق عليه الثقافة . فالانسان هو الكائن الوحيد الذي ميزه الله وكرمه على باقي مخلوقاته ، وكان هذا التكريم والتمييز بالعقل والارادة والقدرة غير المحدودة على التعلم . واذا كانت الحيوانات لديها قدرة على التعلم ، فانها قدرة محدودة للغاية ، والتعلم الحيواني يتم بالاسلوب الشرطي ونوعية التعلم الحيواني تختلف جوهرياً عن التعلم الانساني ، هذا الى جانب ان الحيوانات عاجزة عن الاحتفاظ بما تتعلمه ونقله الى الاجيال التالية . واذا كان هناك نوع من التنظيم الملحوظ في المجتمعات تحت البشرية (كالنحل والنمل) والحيوانية (كالقردة والحيوانات في الغابات) ، فان هذا التنظيم يرجع الى الغريزة وليس الى التعلم والاكتساب اي لا يرجع الى الثقافة ، بعكس الحال بالنسبة للتنظيم الاجتماعي داخل المجتمعات البشرية ، فانه يقوم اساساً على المكتسبات الثقافية وما يتعلمه الفرد من السابقين (التراث) وما يضيفه كل جيل من اكتشافات واختراعات بفضل نعمة العقل والتفكير والقدرات الأخرى التي كرم الله سبحانه بها الانسان على سائر خلقه .

واذا نظرنا الى السلوك الانساني نجد بوضوح اثر التعلم واضحاً في كل مظاهره واساليبه وممارساته ، فالتعلم هو الذي يهذب السلوك الغريزي ، وهو الذي ينظم علاقاتنا مع الآخرين ، بل انه هو الذي ينظم مختلف جوانب حياتنا فكراً وسلوكاً وعلاقات ، فالانسان المسلم يتعلم الآداب الاسلامية والعقيدة واساليب التعامل والعبادات وما يجب عليه فعله وما يجب عليه تركه وما هو محرم وما هو محلل . . . كل ذلك يتعلمه من كتاب الله وسنة نبيه الكريم ومن شريعة الاسلام وآداب المجتمع الاسلامي الذي يعيش داخله . وقل نفس الشيء بالنسبة

للمجتمعات الوثنية فانها تعلم ابناءها الانحلال والمجون والعبث . . . الخ . ويؤيدنا في هذا قول رسولنا الكريم انه ما من مولود الا ويولد على الفطرة ثم ابواه ينصرّانه او يهودانه او يمجسانه ، وهذا الاخير هو في جوهره هو عملية التعليم او الاكتساب .

ويرتبط التعلم والتعليم ارتباطاً واضحاً بالثقافة بمعناها الواسع في العلوم الاجتماعية ، فنحن لا نقصر التعليم والتعلم على ما يتلقاه التلميذ في المدارس ، ولكنه يشمل كل ما يكتسبه الانسان باعتباره عضو داخل المجتمع ، من معلومات ومهارات وقدرات وآداب ومعتقدات وقيم ومعاملات واتجاهات وعواطف ومخاوف . . . الخ . وهو على هذا يستغرق حياة الانسان من المهد الى اللحد .

وقد ظهر عدة تعريفات للتعلم أهمها أنه اكتساب المهارات أو معلومات أو معتقدات . . . جديدة ، أو هو تغيير في تفكير الفرد أو في سلوكه أو في شعوره ، وهو تغير ثابت نسبياً لأنه يؤثر في سلوك الفرد وتفكيره ومشاعره بصورة مستمرة ومنتظمة ، غير ان هذا الاستمرار والانتظام ليس مطلقاً ، لانه يمكن للفرد ان ينسى ما تعلمه او تعديله بتعلم لاحق . والتعلم - كما سنوضح - جهد ذاتي يبذله المتعلم للحصول على (الافكار او القيم والمعتقدات) . . . الجديدة . ولهذا فان التعلم يتم باستمرار من خلال المواقف الاجتماعية المختلفة التي يواجهها الفرد . وهو يختلف عن النضج الطبيعي الذي تحدده العوامل الوراثية لانه كما سبق القول اكتساب يخالف الوراثة . وعلى هذا يمكن تعريف التعلم بأنه « تغير ثابت نسبياً في السلوك او الخبرة ينجم عن النشاط الذاتي للفرد وليس نتيجة للنضج الطبيعي او للظروف العارضة » .

أهمية موضوع التعلم للمربين والدعاة:

واذا كان موضوع التعلم يحاول الاجابة على عدة تساؤلات ، أهمها كيف يتعلم الانسان ، وما هي انواع التعلم ، وكيفية اكتساب وتغيير الخبرات، وما هو اثر التعلم في حياة الفرد ، وما هي العلاقة بين التعلم والنضج ، وما هي شروط التعلم . . . الخ ، فان هذا الموضوع يحتل اهمية كبرى لدى رجال التربية والتعليم ورجال الدعوة الاسلامية ، اما عن اهميتها لدى رجال التربية والتعليم فواضحة من خلال الموقف التربوي داخل المدارس ، الذي يقوم في اساسه على اكساب الطبلة معلومات ومهارات وسلوك مخطط من قبل المربين . اما اهمية

الموضوع لرجال الدعوة الاسلامية فهو ان هذه الدعوة سواء مورست داخل البلاد الاسلامية بقصد ترشيد سلوك المسلمين وتصحيح معتقداتهم وسلوكهم حتى يتفق مع المنهج الاسلامي السليم ، او مورست داخل بلاد غير اسلامية بقصد تغيير عقائد ابناء تلك البلاد من الشرك والفساد الى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فان هذه العملية (عملية الدعوة) هي في جوهرها عملية تعلم أو عملية تربوية بالمعنى الواسع للكلمة . ويجب ان يؤهل الداعية - الى جانب التأهيل العلمي دراسة العلوم الشرعية - تأهيلا تربوياً وشخصياً حتى يصدر دعوته عن تفهم لعملية التعلم وللتربية بأبعادها المختلفة ، وعن تفهم لظروف المجتمعات والجماعات التي سوف يمارس داخلها الدعوة ، من حيث معتقدات ابنائها وقيمهم ومستواهم التعليمي واتجاهاتهم وموقفهم من الدعوة . . . الخ . كذلك عليه ان يتعلم اساليب تقييم الدعوة اي معرفة آثار دعوته - هل يستجيب لها الجمهور ام لا وما هي مدى هذه الاستجابة ، حتى يصحح من أساليب دعوته وصولاً الى هدفه الاسمى ؟

أنواع التعلم وأهدافه :

قد يظن البعض أن التعلم قاصر على اكتساب المعلومات ، ولكنه في الحقيقة يمتد ليشمل تعلم المعلومات والمهارات والعادات الذهنية والوجدانية . . . الخ . وهذا يعني أن عملية التعليم مرادفة في الحقيقة لعملية الصياغة الثقافية للفرد او لعملية اكتساب الثقافة . ويمكن تصنيف انواع التعلم من حيث الهدف فيما يلي :

١ - **تعلم معرفي** : ويستهدف اكساب الفرد مجموعة من المعلومات ، فعندما اعرف ان لندن عاصمة بريطانيا ، او أن الذي يحكم العلاقة بين الكواكب هو قانون الجاذبية . فهذه معلومات مكتسبة تدخل ضمن التعلم المعرفي .

٢ - **تعلم لفظي** : ويستهدف اكساب الانسان المهارات اللفظية مثل تعلم النطق الصحيح للغة العربية ، او الالقاء الصحيح للشعر ، او تعلم اللغات الاجنبية او تعلم اصول علم التجويد . . .

٣ - **تعلم حركي** : ويستهدف اكساب الفرد مجموعة من المهارات الحركية المعنية ومثال هذا تعلم السباحة ، او قيادة سيارة ، او الكتابة على الآلة الكاتبة ، او تعلم ميكانيكا السيارة عملياً (حل اجزائها وتركيبها) .

٤ ـ **تعلم اجتماعي** : ويستهدف اكساب الفرد مجموعة من المهارات الاجتماعية في تعامله مع الآخرين ، ومثال هذا تعليم الشخص اساسيات السلوك الاسلامي من امانة ووفاء وحفاظ على المواعيد واحترام الكبار والعطف على الصغار والتسامح الا فيما يتعلق بحد من حدود الله .

٥ ـ **تعلم عقلي** : ويستهدف اكساب الفرد عادات عقلية مثل عادة التفكير المنطقي السليم ، ورؤية عظمة الله سبحانه في كل ما خلق وفي التنظيم المعجز سواء داخل جسم الانسان ، او داخل الكون بأكمله .

٦ ـ **تعلم وجداني** : ويستهدف اكساب الأفراد العادات الانفعالية والاتجاهات والقيم والعواطف والقدرة على ضبط النفس عند الغضب ، وقد اوضح لنا عليه الصلاة والسلام ، ليس القوي بالصرعة وانما القوي هو من يملك نفسه عند الغضب .

هذا من حيث الهدف ، ويمكن تصنيف التعلم من حيث البساطة والتعقيد الى نوعين ، تعلم بسيط يتم بطريقة آلية غير شعورية او غير مقصودة مثل تعلم احترام الكبار وتعلم لغة المجتمع ، وتعلم قيم المجتمع ومعتقدات الاسرة ، وهناك التعلم المعقد المقصود الذي يتطلب قدر من التركيز والفهم والقصد مثل تعلم دروس الفقه والتفسير والحديث والتشريح ، او تعلم قيادة سيارة او تعلم الرماية . . . الخ .

التعلم ودوره في النحو النفسي والاجتماعي للفرد :

يلعب التعلم الدور الأكبر في الحفاظ على فطرة الانسان السليمة ، أو في تشويهها وتزيفها ، كما يلعب دوراً هاماً في كافة الوان النمو الجسمي والعقلي والانفعالي والاجتماعي واللغوي عند الفرد . وهو الذي يكسب الانسان الطابع الاجتماعي لمواطن وكأب وكابن وكطالب وكتاجر . . . الخ . ويلعب التعلم دوراً أساسياً في تشريد ممارسة الانسان لدوافعه الفطرية كالجوع والعطش والجنس والأمومة والعدوان . . . ويرتبط التعلم على هذا الأساس بالشخصية ، فهو الذي يكسب الانسان عاداته الانفعالية والعقلية والاجتماعية والحركية ، الأمر الذي يثير مسألة الصحة والمرض النفسي . وقد اثبتت بحوث علم النفس كيف أن بذور الصحة والمرض النفسي توضع في عهد الطفولة من خلال عملية التربية

ومضمونها . والواقع أن عملية التعلم عملية مستمرة مع الانسان من المهد الى اللحد .

علاقة التعلم بالعمليات العقلية الأخرى :

يمكن النظر الى التعلم والاكتساب على أنه حجر الزاوية الذي تقوم عليه كافة العمليات العقلية الأخرى من ادراك وتفكير ووعي ونسيان وتعرف واسترجاع . . . الخ . وقد سبق أن أوضحنا أن الادراك الحسي يتم على مرحلتين ، مرحلة التقاط الصور الحسية ، ثم مرحلة تأويل هذه الصور . ويتم هذا التأويل اعتماداً على الخبرات السابقة التي سبق أن تعلمها الفرد ، وهنا تبرز العلاقة واضحة بين التعلم والادراك . أما عن علاقة التعلم بالتفكير ، فاننا نفكر بما تعلمناه ووقع في خبرتنا من قبل ، كذلك فاننا عن طريق التفكير نتعلم الجديد من المعلومات والمهارات . . . فلا تفكير بغير تعلم ، ولا تعلم بغير تفكير .

واذا ما انتقلنا الى التذكر فاننا نجد أن التذكر هو استرجاع ما سبق أو وقع في خبرة الشخص ، أو ما سبق أن تعلمه وهناك شكلان أساسيان للتذكر هما الاسترجاع ، والتعرف . ويتمثل الاسترجاع في استحضار الماضي في صورة ألفاظ أو معاني أو حركات أو صور ذهنية ، وهذا يفترض أن هذه الصور والمعاني سبق أن تعلمها الشخص . أما التعرف فانه يتمثل في شعور الفرد أن ما يدركه الآن هو جزء من خبرته السابقة ، سبق أن تعلمه .

هذا عن التذكر بشقيه الاسترجاع والتعرف ، أما عن النسيان فهو سقوط بعض ما تعلمناه من ذاكرتنا ، وهذا يعني اننا لا ننسى الا شيئاً نكون سبق أن تعلمناه .

شروط التعلم :

لنا أن نتساءل : هل يتم التعلم في أي وقت وتحت أي ظروف ولدى أي شخص ، أم أن هناك شروطاً لا بد من توفرها حتى تتم عملية التعلم ؟ يمكن الاجابة على هذا السؤال بايجاز بالمصطلحين : الدافعية والنضج ، فلا تعلم دون توافر الدافع الكافي لدى الشخص على تحصيل ما يتعلمه ، كذلك لا يمكن التعلم

الا اذا بلغ الانسان درجة من النضج الداخلي بفعل قدرة الله سبحانه وتعـالى ـ تمكنه من تحصيل المعلومات والمهارات ويمكن ايجاز شروط التعلم فيما يلي :

أولا : وجود الفرد أمام موقف مشكل كأن يكون الموقف جديداً او ان يحتوي على مشكلة تتطلب المواجهة ، مثل المشكلات المالية او مشكلة تعليمية او مشكلة عاطفية .

ثانياً : وجود دافع قوي لدى الشخص لمواجهة المشكلة

ثالثاً : بلوغ الفرد درجة من النضج الطبيعي تتيح له تحصيل المعلومات اللازمة لمواجهـة المشكلـة . فاذا عرضنـا مشكلـة رياضية ـ مسألـة في الـرياضيات العليا ـ على طفل في المدرسة الابتدائية ، استحال عليه حلها لعدم وصوله الى درجة من النضج العقلي يتيح له مواجهة هذه المشكلة .

والفرق بين النضج والتعلم ، هو الفرق بين الموروث والمكتسب ، فالنضج امر يتعلق بالوراثة والنمو الجسمي الداخلي ـ بفعل قدرة الله سبحانه ـ فهو لا يحتاج الى تمرين او الى تعلم . فالطفل يمشي عندما تنمو عضلاته وعظامه في سن معين ، ويتكلم في سن معين ، ولعل هذا هو ما جعل المربين يحددون سن دخول المدارس بست سنوات حتى يصل الى درجة من النضج العصبي والعقلي تتيح للطفل تعلم القراءة والكتابة والجلوس في الفصل . . . الخ . ويراعي المخططون للمناهج الدراسية ضرورة تدرج المناهج بمـا يتفـق مع النمو الجسمي والعضلي والعصبي والعقلي للطالب .

وهكذا تظهر العلاقة الوثيقة بين التعلم والنضج ، فلا تعلم بدون نضـج . فلا يمكن تعليم طفل عمره سنتان القراءة والكتابة ، ولا يمكن تعليم طفل عمره ست سنوات قيادة سيارة ، ولا يمكن اجبار طفل اقل من سنه على المشي والكلام . . . الخ . والنضج عملية تلقائية تحددها الاستعدادات الوراثية ، اما التعلم فهو عملية مكتسبة تحددها وتوجهها المشكلات والمواقف المختلفة التـي يواجههـا الفـرد طوال حياتـه ، في البيت ، المدرسـة ، الحـي ، العمل . . . الخ . واذا كان النضج كعملية وراثية عام بين افراد النـوع ، فان التعلم كعملية اكتساب اجتماعي تحدث فروقاً واضحة بين الافـراد من حيث كم التعلم وكيفه .

كيف تحدث عملية التعلم :

حاول العلماء تفسير ظاهرة التعلم وكيف يحدث والوصول الى قوانين عامة بصدده . ويمكن تصنيف نظريات التعلم المطروحة الى قسمين أساسيين هما :

أولا : النظريات الترابطية ، وهي التي تؤكد أن عملية التعلم تتمثل في عقد أو تقوية روابط بين مثيرات واستجابات . ويندرج تحت هذا القسم نظريات التعلم الشرطي (بافلوف)، ونظرية المحاولة والخطأ (ثورنديك) .

ثانياً : نظرية الصيغ (الجشتلط) وهي التي تؤكد ان عملية التعلم تتمثل في فهم عناصر الموقف واعادة تنظيمها ذهنياً ، اي انها تأتي نتيجة للاستبصار .

وحاول العلماء اجراء التجارب على الحيوانات ، من اجل محاولة فهم هذه العملية (التعلم) في ابسط صورها الأمر الذي يسهم في فهم العملية المعقدة لدى الانسان .

نظرية التعلم الشرطي :

قام العالم الروسي « بافلوف » سنة **١٩٠٠** باجراء تجارب على الكلاب . وقد لاحظ ان الكلب يسيل لعابه عند وضع الطعام في فمه وهذا فعل منعكس طبيعي ، ولاحظ كذلك ان اللعاب لا يقتصر على الطعام فقط ولكن يمتد الى مصاحباته ، فالكلب يسيل لعابه لمجرد رؤية الطعام ، او رؤية الشخص الذي يقدم له الطعام او سماع جرس يقترن بتقديم الطعام . . . الخ . وقد اطلق على هذا الافراز ـ الافراز لنفسه او الفعل المنعكس الشرطي . ونجد العديد من الامثلة على هذا التعلم في عالم الانسان فالطفل الذي اعطى له الطبيب حقنة يخاف من ذكر الطبيب ، والطفل الذي لسع من النار يخاف من التهديد بها . . . الخ . هذا النوع من التعلم هو الذي يطلق عليه التعلم الشرطي وموجزه انه اذا ما ارتبط مثير طبيعي بمثير صناعي ـ غير طبيعي ـ فان المثير الصناعي يأخذ خصائص المثير الطبيعي في استثارة نفس الاستجابات وهنا يجب ان نلاحظ امران هما :

أ ـ ليس من اللازم وجود علاقة منطقية بين المثير الصناعي (المثير الشرطي) والاستجابة . فالانسان قد يخاف من الطبيب لانه اقترن بعملية جراحية

مؤلمة ، في حين ان الطبيب كانسان لا يخيف .

ب ـ الاستجابة الشرطية لا تصدر عن تذكر وتفكير ، ذلك انها تصدر بشكل لا شعوري .

هذا وقد خرج بافلوف من تجاربه هذه بمجموعة من القوانين الخاصة بالتعلم نوجزها فيما يلي :

أولاً ـ قانون المرة الواحدة :

كشفت التجارب الأولى لبافلوف عن ضرورة ربط المثير الشرطي بالمثير الطبيعي عدة مرات حتى يكتسب الأول نفس خصائص الثاني في استثارة نفس الاستجابة ، غير انه اتضح ان الاستجابة الشرطية قد تتكون من فعل المثير الشرطي مرة واحدة فقط كما يحدث في المواقف الانفعالية الشديدة ، فالطفل الذي تلسعه النار مرة واحدة قد يخاف منها طوال حياته ، وكذلك الشخص الذي يعضه كلب مرة يظل يخاف الكلاب طوال حياته .

ثانياً ـ قانون التدعيم :

كلما اقترن المثير الشرطي الطبيعي مرات اكثر كلما اكتسب نفس الخصائص فالاستجابة الشرطية لا تبقى ولا تثبت ـ في الحالات العادية ـ الا اذا اقترن المثير الطبيعي بالمثير الشرطي او تبعه مباشرة عدة مرات متتالية .

ثالثاً ـ قانون الانطفاء :

الانطفاء عكس التدعيم ، اي فقط المثير الشرطي القدرة على استحداث الاستجابة التي يستثيرها المثير الطبيعي . وهذا يحدث اذا لم يتبع المثير الشرطي المثير الطبيعي مدة طويلة . فالكلب الذي نظل ندق له الجرس دون تقديم الطعام مدة كبيرة يفقد الجرس قدرته كمثير شرطي ، كذلك الطفل الذي نهدده بالعقاب ، او نعده بالثواب ، ولا ننفذ وعدنا يفقد التهديد والوعد القدرة على تحريك سلوك الطفل في الاتجاه المطلوب . وقد استغل المعالجون النفسيون هذه الظاهرة في استئصال بعض المخاوف الشاذة من اشياء عادية من نفس المرضى ، وهو ما يطلق عليه الاستئصال الشرطي . فالشخص الذي يخاف بشدة من القطط ، يمكن استئصال هذا الخوف اذا ما قدمنا له قططاً في ظروف عادية لا

يعقبها أي اذى له . كذلك فان ظاهرة الانطفاء تفسر لنا الشفاء التلقائي من الكثير من المخاوف الشاذة (الفوبيا) .

رابعاً ــ قانون تعميم المثيرات :

يشير هذا القانون الى انتقال اثر المثير او الموقف الى مثيرات او مواقف أخرى تشبهه او ترمز اليه ، فالشخص الذي عضه كلب من نوع معين ، يخاف جميع الكلاب ، وقيل قديماً ان من يلدغه الثعبان يخاف الحبل .

خامساً ــ قانون التمييز :

التمييز عكس التعميم ، أي انه التغلب على التعميم وذلك بالتفرقة بين المثير الاصلي والمثيرات الاخرى التي تشبهه نتيجة تدعيم المثير الاصلي وعدم تدعيم المثيرات الاخرى الشبيهة به . فالطفل مثلاً في البداية يطلق على كل رجل - بابا - ثم ما يلبث ان يخصص ويميز بابا الاصلي بسبب ما يلقاه من تدعيم للوالد وعدم تدعيم للآخرين داخل بيئته الاجتماعية . كذلك الأمر بالنسبة للألفاظ فقد يطلق تفاح على كل الوان الفاكهة ، ثم يميز بعد ذلك .

سادساً ــ قانون الاستتباع :

كشفت التجارب عن أنه اذا ما اقترن المثير الشرطي بمثير شرطي آخر يمكن لهذا الاخير استحداث الاستجابة الشرطية .

نظرية المحاولة والخطأ

يعد ثورنديك (**١٨٧٤ - ١٩٤٩**) الباحث الامريكي السلوكي الاتجاه رائد هذه النظرية . وتقوم هذه النظرية في جوهرها على ان التعلم يحدث نتيجة للمحاولات والاخطاء ، حيث يحاول الفرد مواجهة المشكلة التي تقابله بمحاولات عشوائية متنوعة ، ثم تزول او تختفي الاستجابات الفاشلة وتثبت الاستجابات الناجحة ، حتى يقع الفرد على الحل مصادفة واتفاقاً . وقد اجرى « ثورنديك » تجارب عديدة على الحيوانات ، منها انه جاء بقفص وضع بداخله قط جائع ولا يمكنه فتح باب هذا القفص الا بالضغط على لوحة خشبية او جذب حبل ، ثم رفع مزلاج بسيط . وراعى ان يكون القط جائعاً حتى يكون لديه دافع للتحرك والمحاولة ، ووضع امامه باعث على السلوك خارج القفص ، ويتمثل في

قطعة من السمك . ولاحظ الباحث المذكور ان القط صار في حالة هيجان يعض قضبان القفص ويحاول المرور من القضبان بجسده ، وقام بالعديد من الحركات العشوائية الفاشلة الى ان يضرب ـ مصادفة ـ لوحة الخشب أو المزلاج فيفتح الباب فيندفع لالتهام السمكة . وكرر التجربة عدة مرات وكان يسجل في كل مرة الزمن الذي يستغرقه القط للوصول الى الحل الصحيح عشوائياً فوجد ان الزمن يتناقص باستمرار ، وهذا يعني ان القط اكتسب عادة فتح الباب اي انه تعلم . وخرج ثورنديك من تجاربه العديدة بأن الحركات العشوائية الفاشلة التي يقوم بها الحيوان تزول بالتدرج البطيء خلال المحاولات المتكررة كما يتناقص الزمن اللازم للنجاح ، لكنه تناقص غير ثابت او منتظم ، اي ان سلوك الحيوانات لا يتحسن بطريقة مطردة . وهذا يعني ان الحيوان لا يتعلم عن طريقة الملاحظة والتفكير ، بل عن طريق التخبط الحركي الاعمى ، ويتم التعلم من خلال زوال الحركات العشوائية الفاشلة بطريقة آلية ، وثبوت الحركات الناجحة حتى يأتي الحل مصادفة ، وهذا هو سبب تسمية هذه النظرية بنظرية التعلم عن طريق المحاولة والخطأ .

وقد اجرى ثورننديك عدة تجارب على الانسان ، خرج منها بأن هذه النظرية لا تصدق فقط على الحيوانات ولكنها تصدق كذلك على الانسان . فالانسان سيتعلم المهارات الحركية ـ مثل كرة القدم والسباحة وقيادة السيارة . . ليس عن طريق التفكير والاستبصار ، وانما عن طريق استجابات حركية متنوعة تزول منها الحركات الخاطئة تدريجياً ، وتثبت الحركات الناجحة .

وخرج « ثورننديك » من تجاربه العديدة على الانسان والحيوان الى ان التعلم يتم من خلال تكوين روابط في الجهاز العصبي بين الاعصاب الحسية التي تتأثر بالمثيرات ، وبين الاعصاب الحركية التي تحرك العضلات فتؤدي الى الاستجابة الحركية .

ويمكن القول ان هذا النوع من التعلم لا تعرف الحيوانات غيره ، ويلجأ اليه الانسان في مجال التعلم الحركي ، كما انه هو النوع الذي يتعلم من خلاله الاطفال ، وهو اساس اكتساب العادات الحركية واكتساب الحرف اليدوية كاستخدام المطرقة والمخرطة والمنشار . . . الخ .

واذا ما حاولنا توضيح اهم الفروق بين التعليم الذي يتم من خلال المحاولة

والخطأ ، والتعليم الذي يتم من خلال الفهم والتفكير الواعي الناضج القائم على الاستبصار ، فاننا يمكن ايجاز اهمها فيما يلي :

أولا : ينطلق الفرد الى التعلم دون تصميم مسبق لحل المشكلة ، فهو تعلم يبدأ بالعمل لا بالفكر .

ثانياً : يقوم المتعلم بتكرار المحاولات الخطأ لبعض الوقت دون ادراك انها خطأ .

ثالثاً : ان المتعلم يصل الى الحل الصحيح فجأة بطريق الصدفة وليس نتيجة لتأمل مسبق .

رابعاً : لا ينطلق حل المشكلة من خطة مسبقة ، وبالتالي لا يستطيع المتعلم تعميم الحل والانتفاع به في مواقف مختلفة .

ويمكن القول ان التعلم بالمحاولة والخطأ يعتمد على عدة قوانين أهمها :

أ ـ قانون التكرار :

يوضح « ثورنديك » ان التكرار يقوي الروابط العصبية بين المثيرات والاستجابات ويسهل حدوث السلوك ، فالقيام بعمل معين يقوي اداءه ويقلل احتمال الخطأ في المرات التالية . غير ان التجارب التالية اثبتت ان التكرار وحده لا يكفي للتعلم .

ب ـ قانون الأثر :

ويمكن ايجاز هذا القانون في ان الفرد يميل الى تكرار السلوك الذي يجلب له النجاح او الثواب وهو السلوك الناجح ، كما يتجه الفرد الى التخلص من السلوك الذي يصحبه الفشل والعقاب . وهذا يعني ان الثواب والعقاب يقومان بدور جوهري في عملية التعلم .

نظرية التعلم بالاستبصار (مدرسة الجشتلط) :

تقوم هذه النظرية على فكرة ان التعلم لا يتم عن طريق الاقتران الشرطي ، او عن طريق المحاولة والخطأ ، ولكنه يقوم اساساً على فهم عناصر الموقف واعادة تنظيمها ويتوصل الفرد الى الحل الصحيح للمشكلة ـ التعلم ـ بشكل فجائي بعد محاولات فاشلة تطول او تقصر وليس بشكل تدريجي . وهذا الادراك الفجائي للحل يتحقق نتيجة لفهم العلاقات بين مكونات الموقف . ولهذا يشترط انصار

نظرية الجشتلط ان تكون جميع عناصر ومكونات الموقف واضحة امام الكائن الذي يتعلم ، والا لجأ الى التخبط العشوائي وربما لا يستطيع حل المشكلة . ولعل هذا هو ما ادى بهم الى توجيه النقد الى تجارب « ثورنديك » وغيره من انصار المحاولة والخطأ ، ذلك ان عناصر الموقف ـ كالمزلاج والأكر والازرار وغيرها من مفاتيح الاقفاص لم تكن واضحة امام حيوانات التجارب . ولو ان هذه الحيوانات كان لديها القدرة على ملاحظتها لما تخبطوا في العثور على الحل .

ومدرسة الجشتلط مدرسة المانية ، ويعد « كوهلر » في مقدمة زعمائها ، قام باجراء عدة تجارب على القردة العليا ، منها تجربة على « شمبانزي » معين . وتقوم التجربة على وضع القرد داخل قفص له واجهة من قضبان حديدية . ووضع خارج القفص عدة موزات على مسافة لا يستطيع القرد بلوغه بذراعه . وراعى ان يكون داخل القفص ـ وفي مجال ادراك القرد ـ قصبتان احداهما طويلة والاخرى قصيرة ، يمكن تركيبهما معاً للحصول على الموز خارج القفص . وقد صممهما بحيث لا تصلح اي منهما في جذب الموز ، بل لا بد من تركيبهما معاً . ولاحظ كوهلر ان القرد قام بعدة محاولات عشوائية بذراعه وبكل عصا على حدة وفشل ثم اخذ يلعب بالاثنين معاً ، ثم اكتشف انه يمكن تركيبهما معاً ليكونا عصاً طويلة ، ثم توصل فوراً الى العلاقة بين العصا الجديدة وبين الموز خارج القفص . وبالفعل انطلق فوراً واستخدمها في جذب الموز . واثناء هذه المحاولة انفصلت القصبتين (العصيان) فقام القرد بوصلهما فوراً وحصل على الموز . وعندما كرر كوهلر التجربة في اليوم الثاني توصل القرد فوراً الى وصل القصبتين وظفر بالموزة ، ثم استطاع في التجارب التالية تركيب ثلاث قصبات معاً .

وقد خرج انصار هذه النظرية بأن التعلم في جوهره يقوم على الفهم والتنظيم وليس على التخبط الاعمى . وهم لا ينكرون اثر المحاولات والاخطاء في عملية التعلم ، ولا ينكرون عامل الصدفة في الوصول الى الحل ولكنهم يرون ان الحل يقفز الى الذهن فجأة ، فالحل يحدث نتيجة لاعادة تنظيم المجال الادراكي ، اي نتيجة لاعادة تنظيم المشكلة على نحو يسمح بادراك العلاقات الهامة بين عناصرها .

ولا شك ان التعلم بالاستبصار لا يتحقق لدى الحيوانات الدنيا لانه يتطلب قدراً من الذكاء ، وغالباً ما يسبق التعلم بالاستبصار الكثير من المحاولات

والاخطاء ، والحل الذي يصل اليه الفرد بالاستبصار يستفيد به اي يعممه في المواقف الاخرى .

هل يمكن الاستفادة من تجارب الحيوانات في المجال البشري؟

الانسان هو الكائن الفريد الذي خلقه الله سبحانه على صورته وكرمه بنعمة العقل والارادة . وهنا لنا ان نتساءل عن جدوى التجريب في عالم الحيوان . سبق القول انها توضح لنا مبادىء التعلم في ابسط صورها ، غير انه يجب ان نلاحظ ان الانسان يتمتع بمستوى من الذكاء والتفكير يختلف نوعياً عن ذكاء الحيوان وتفكيره ، وهو اقدر على التصور الذهني والتذكر واسرع في تنفيذ المعلومات ، وهو الوحيد القادر على التفكير المجرد وادراك العلاقات المجردة بين عناصر الموقف . هذا الى جانب أن الانسان هو الكائن الوحيد القادر على استخدام الرموز او اللغة ، وعلى ضبط انفعالاته واستنتاج المبادىء العامة وعلى التخطيط لمواجهة المشكلات . يضاف الى هذا ان دوافع الانسان الى التعلم تختلف نوعياً عن دوافع الحيوانات . ولهذا فان التعلم الانساني يختلف بشكل ملحوظ عن التعلم الحيواني بسبب القدرات المتقدمة التي اودعها الله سبحانه وميز بها الانسان عن سائر خلقه .

خاتمة :

على الرغم من التعارض الظاهر بين نظريات الاشتراط . والمحاولة والخطأ والاستبصار ، الا انها نظريات متكاملة ، فهذه الانواع الثلاثة نلجأ اليها في حياتنا ويتم بها اكتساب المعلومات والمهارات المختلفة ، وهي قادرة على تفسير تكوين العادات والمهارات والاتجاهات والمعتقدات وهي متكاملة وليس متعارضة .

الفصل التاسع

العمليات العقلية د ـ التذكر والنسيان

١ ـ مفهوم التذكر وعملياته
٢ ـ الوعي والنسيان
٣ ـ أسباب وعوامل النسيان
٤ ـ الاسترجاع

أ ـ مفهومه
ب ـ العوامل الموضوعية المسهلة للاسترجاع
جـ ـ العوامل الذاتية المسهلة للاسترجاع

٥ ـ التعرف

مفهوم التذكر :

يمكن تعريف التذكر بأنه استرجاع ذهني لما سبق ان تعلمه الفرد واحتفظ به . فكوني اتذكر مدينة معينة او معلومة ما او شخص ماثل امامي او غير موجود امامي الآن . . . ، فان معنى هذا ان هذه الموضوعات سبق لي ان خبرتها وتعلمتها واحتفظت بها في ذهني ، وانا الآن اتذكرها . وهذا يعني ان التذكر يتضمن بالضرورة التعلم والخبرة السابقة ، كما يتضمن الوعي اي الاحتفاظ بالمعلومات والموضوعات المتعلمة في الذهن . وسبق ان سرحنا التعليم وننتقل الآن الى الوعي والنسيان .

أولاً ـ الوعي والنسيان :

من المألوف في حياتنا اليومية اننا نتذكر الاحداث والمعلومات والاشخاص والاشياء . فالطالب يستذكر دروسه ، ثم يتذكرها في موقف الامتحان والطبيب يعتمد على ذاكرته في تشخيص الامراض ووصف العلاج . . . الخ . ويقصد بالوعي احتفاظ الفرد بما مر به من خبرات وما تعلمه من معلومات او مهارات حركية او لفظية او فكرية . . . الخ . والوعي هو القدرة على اختزان الخبرات واستخراجها وقت الحاجة اليها . ويؤكد اغلب علماء النفس ان ما يمر في خبرة الانسان يختزن في الذاكرة ، صحيح اننا ننسى الكثير منها ، ولكن ليس معنى هذا انها اختفت تماما من الذاكرة ولكن معنى هذا ان الخبرة لم تكن منظمة ، او انها اختفت وراء خبرات وأحداث جديدة . وهم يستشهدون على صحة هذا الرأي ، بأنه يمكن مساعدة الانسان على استعادة ذكريات الطفولة المبكرة من خلال عدة أساليب كالتداعي الحسي والتنويم المغناطيسي . . . الخ .

اما النسيان فانه يشير الى فقدان الخبرات السابقة ـ معلومات ـ مهارات ـ احداث . . . الخ . سواء اكان هذا الفقدان جزئيا ام كليا ، مؤقتا ام دائما فهو اذن عجز عن استرجاع هذه الخبرات سواء نهائيا او بشكل جزئي . ويجب في هذا

الصدد التمييز بين النسيان الطبيعي الذي يحدث لنا جميعاً في حياتنا ، كأن نقابل شخصا سبق ان تعرفنا به ولكننا نعجز عن تذكر اسمه او ننسى رقم تلفون ، او ننسى بعض المعلومات التي سبق لنا ان حصلناها . . . الخ . أقول يجب ان نميز بين هذا النوع الطبيعي من النسيان وذلك النوع المرضي حيث يحدث فقد ذاكرة جزئي او كامل عقب اصابة مباشرة في الراس ، او عقب صدمة عاطفية شديدة ، أو بسبب بعض الامراض النفسية والعقلية واصابات الجهاز العصبي .

واذا ما تساءلنا عن اسباب النسيان ، نجد ان هناك الكثير من التفسيرات اهمها ما يلي :

أ ـ الترك وعدم الاستعمال :

فترك المعلومات والمهارات التي سبق ان خبرناها وتعلمناها يضعفها ويعرضها للنسيان .

ب ـ التداخل والتعطيل :

تكشف بحوث علم النفس ان تداخل المعلومات بعضها في بعض وسرعة تعاقبها وتواليها يؤدي الى تداخلها بعضها في بعض فينسى الانسان جزءا منها او بعضها . وقد لوحظ أن النسيان اثناء النهار اسرع منه بالليل .

جـ ـ التعطيل الرجعي :

وهذا يشير الى ان المعلومات او المهارات اللاحقة اذا ما اتت مباشرة بعد معلومات ومهارات سابقة ، أسهمت في نسيانها او نسيان بعض منها . فالطالب الذي يستذكر درساً في الفقه لمدة ساعة ثم شرع بعده مباشرة في استذكار درس في الحديث ، دون اخذ فترة من الراحة ، فإنه يكون معرضاً لنسيان جزء من الدرس الاول ، وهذا هو ما يطلق عليه التعطيل الرجعي أي تداخل الدروس والخبرات بعضها في بعض (وهذا هو ما يطلق عليه الانتقال السلبي لاثر التدريب) .

د ـ التعطيل البعدي :

واذا كان التعلم او الخبرات اللاحقة تسهيم في طمس المعلومات والخبرات السابقة ، فقد يحدث العكس حيث تسهم الخبرات السابقة في تعطيل التعلم اللاحق او تقليل كفاءته ، خاصة اذا ما كانت الخبرات متشابهة ، فتعلم درس في اللغة الالمانية ، قد يسهم في تعطيل تعلم درس لاحق في اللغةالايطالية ، وهذا

نموذج ثان للانتقال السلبي لاثر التدريب .

****

الاسترجاع والتعرف :

هناك شكلان اساسيان للتذكر هما الاسترجاع والتعرف وسوف نحاول اعطاء صورة عن كل منهما في ايجاز :

اولاً ـ الاسترجاع :

يتمثل الاسترجاع في جوهره استرجاع للماضي في صورة ألفاظ أو معان أو حركات أو صور ذهنية . فالطالب المجد الذي وفقه الله في حفظ القرآن الكريم ، ثم يطلب اليه ـ (في أي موقف كالامتحان او مناسبة معينة أو يقوم هو بنفسه عندما يخلو الى نفسه) بتلاوة ما يتيسر من كتاب الله ، فإن هذا يعد استرجاعا وقد يكون الاسترجاع جزئيا عندما لا يستطيع الطالب تسميع قصيدة باكملها سبق حفظها ، وقد يكون كاملا عندما يستطيع تسميع القصيدة كلها .

وهناك عدة صور للاسترجاع منها الاستدعاء ، وهو استحضار صورة كاملة لما سبق تعلمه ـ فعندما أتذكر قصيدة من الشعر أو آية قرآنيةكريمة أو حديث نبوي شريف ـ اتذكر متى حفظته وفي اي مكان ، والاستاذ الذي شرحه . . . فهو تذكر مكاني وزماني وموقفي مكتمل . وهناك الاستكمال ويتمثل في تداعي مجموعة من الذكريات ـ السارة او المؤلمة ـ بمجرد رؤية شيء يرمز اليه .

العوامل الميسرة للاسترجاع :

واذا ما تساءلنا عن العوامل التي تيسر عملية الاسترجاع ، فاننا نجد انها تنقسم الى مجموعتين ، عوامل موضوعية ، تتعلق بالموضوع المتذكر ، وعوامل ذاتية تتعلق بالشخص الذي يقوم بالتذكر .

١ ـ العوامل الموضوعية الميسرة للاسترجاع :

تعرف هذه العوامل بقوانين التداعي الثانوية ، وقوانين التداعي هي تلك التي تحكم ورود الافكار والذكريات في ذهن الانسان وأهمها :

أ ـ التردد والتكرار : فكلما تكررت خبرة الشخص بموضوع ما ـ درس ـ شخص ـ مهارة حركية . . . سهل عليه استرجاعها وتذكرها .

ب ـ **القرب الزماني** : كلما كانت الخبرة حديثة سهل تذكرها .

جـ ـ **الاحداث الاولى** : يسهل على الانسان تذكر الاشياء الاولى والجديدة مثل اول يوم نذهب فيه للجامعة ، أو أول يوم نمارس فيه العمل بعد التخرج . . .

د ـ **الخبرات العنيفة نفسيا** : إذا ما صاحب الخبرة انفعالات قوية ـ حب أو خوف أو غضب . . . سهل على الانسان تذكرها ، مثل اول يوم مارس التدريس امام طلبة ، أو أول مرة دخل امتحان عام .

هـ ـ وجود الانسان في نفس الموقف الذي اكتسب فيه الخبرة يسهل استرجاعها .

٢ ـ العوامل الذاتية الميسرة للاسترجاع :

يقصد بالعوامل الذاتية ، تلك التي ترجع الى الشخص الذي يقوم بالتذكر ، وأهم هذه العوامل :

أ ـ التهيؤ الذهني ، اي الاستعداد المسبق للاسترجاع :
ب ـ الراحة الجسمية والاسترخاء .
جـ ـ الميل للاكتمال وإتمام الاعمال والخبرات ، فالشخص الذي يبدأ عملا او درسا ولم يكمله ، يظل يتذكر الدرس او العمل من اجل اتمامه .

ثانيا ـ التعرف :

يمكن فهم التعرف ، بأنه تذكر مرهون برؤية الشيء او الشخص او موضوع الخبرة المتذكرة . فإذا ما قابلت شخصاً سبق التعرف عليه ، واقوم بتذكره فهذا تعرف ، واذا ما سمعت بيتا من قصيدة سبق حفظها وتعرفت عليها فهذا تعرف . . . الخ . ومن صور التعرف البسيطة معرفة الطريق الى الكلية والى المنزل والى بلدة سبق ان ذهبنا اليها ، ومعرفة الطريق الى جده ومكة المكرمة والمدينة المنورة لأني سبق ان توجهت الى هذه المدن . . . الخ . والتعرف اسهل من الاسترجاع ، لان التعرف مرهون برؤية موضوع الخبرة السابقة ، اما الاسترجاع فهو مسألة ذهنية خالصة ، يضاف الى هذا ان التعرف يتضمن الإدراك الجسي لموضوع الخبرة وليس تذكراً خالصا كما هو الحال في الاسترجاع .

الفصل العاشر

العمليات العقلية هـ ـ التفكير

١ ـ تعريف التفكير وارتباطه بالعمليات العقلية الاخرى
٢ ـ أهمية التفكير وأدواته
أ ـ الصور الذهنية
ب ـ الكلام الداخلي
جـ ـ التصور العقلي المجرد
٣ ـ مستويات التفكير
أ ـ المستوى الحسي
ب ـ المستوى التصوري
جـ ـ المستوى المجرد

تعريف التفكير وارتباطه بالعمليات العقلية الاخرى:

يمكن تعريف التفكير بأنه النشاط العقلي الذي يعتمد على الرموز والرموز هي كل ما ينوب عن الشيء او يشير اليه ويعبر عنه . وهناك صور متعددة للرموز التي نفكر من خلالها منها الارقام والالفاظ والذكريات والحركات والصور الذهنية . ومعنى ان الرمز ينوب عن الموضوع ، إن لفظ محمد ينوب عن شخص معين يمكن ان استحضر صورته في ذهني عندما افكر فيه ، ولفظ تفاح يشير الى صورة ذهنية معينة استحضر من خلالها صورة وطعم ورائحة التفاح . . . الخ . والواقع أن التفكير بهذا المعنى يستغرق جميع العمليات العقلية من تصور وتذكر وتخيل واستدلال . . . الخ . ويرتبط التفكير بشكل واضح بعملية التعلم ، فنحن نفكر في اطار ما سبق ان وقع في مجال خبراتنا السابقة ، الى جانب ان التفكير يضيف الى خبراتنا السابقة ويكسبنا خبرات جديدة . وهناك عدة اشكال للتفكير الراقي المتقدم منها **الاستدلال** ، وهو نشاط عقلي يستخدم الرموز لحل المشكلات ، والابتكار وهو نشاط عقلي يستخدم الرموز لايجاد شيء جديد (مخترعات سواء في الميدان التكنولوجي او الاجتماعي) كل ذلك بفضل التركيب المعجز الذي اودعه الله سبحانه وتعالى في الانسان .

أهمية التفكير وادواته :

الانسان هو الكائن الوحيد الذي جباه الله سبحانه وتعالى بنعمة التفكير بالرموز أو التفكير المجرد، وقد ساعده هذا اللون من التفكير على تفهم التراث الماضي وكل ما حصله الانسان على مر التاريخ الماضي كله . وبفضل هذا التفكير استطاع الانسان ان يكون خليفة عن الله وان يستحق نعمة الاسلام والايمان ويدرك المعاني المجردة عن الحق والواجب والعدل والرحمة ، وتصدر له التكيفات الربانية المقدسة من توحيد وصلاة وزكاة وصوم وحج واقامة لدين الله في الارض . . . الخ . وبفضل التفكير استطاع الانسان ان يتصور غايات اعماله

واهدافها ويختار الوسائل القادرة على تحقيقها وهذا هو معنى التخطيط وقد امرنا عليه الصلاة والسلام ان نعمل لدنيانا كأننا نعيش ابدا ، وان نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً .

وهذا استطاع الانسان بفضل نعمة التفكير توفير الكثير من الوقت والجهد وتجنب الاخطار والمزالق ، فليس على كل جيل ان يبدأ من الصفر ، وانما من الانتفاع بخبرات الجيل والاجيال الماضية ، كذلك فان التفكير مكنه من رسم خطط في ذهنه قبل الاقدام على العمل . على ان استخدام الرموز سهل على الانسان كثيرا فبدلا من جمع ٩ + ٩ + ٩ تسع مرات نقول ٩ × ٩ = ٨١ ولا يخفى ما تعتمد عليه العلوم المتقدمة من الرموز س ، ص . . . في الفهم العلمي للكثير من الظواهر .

ويعتمد التفكير على عدة طرق ، فاذا ما تساءلنا عن كيفية حدوث التفكير وجدنا ان هناك عدة اساليب يتم من خلالها التفكير اهمها :

أ ـ الصور الذهنية :

كثيراً ما تتصور في ذهننا صوراً لمدركات حسية سبق أن خبرناها وتعلمناها . فكثيرا ما افكر في والدي او اخي او الكلية التي اعمل فيها وتمر في ذهني صورة لوالدي او لاخي او للكلية . . . ، كذلك قد استعيد صوت استاذي وهو يلقي المحاضرة . وهذا يعني اننا نفكر من خلال الصور الذهنية التي قد تتخذ شكل صور بصرية او سمعية ـ وهذه هي الصور الحسية ، وقد تتخذ شكل صور لفظية مثل تصور كلمة مكتوبة (لفظية بصرية) او كلمة منطوقة (لفظية سمعية) والصور الذهنية هي استعادة المدركات الحسية السابقة تعلمها في خبراتنا .

ب ـ الكلام الداخلي :

كشفت بحوث علم النفس عن انه قد يفكر الانسان من خلال نشاط حركي دقيق لاعضاء النطق ـ الحنجرة واللسان والشفتان ، والواقع انه غالبا ما يقترن التفكير بهذه الحركات غير الظاهرة .

جـ ـ التصور العقلي المجرد :

وهنا يفكر الانسان لا عن طريق صور ذهنية حسية او لفظية انما من خلال معان مجردة كما في حالة التفكير الرياضي .

وعادة ما يستهدف التفكير حل مشكلة معينة . فأي مشكلة يقابلها الانسان تسبب له توترا نفسيا معينا يحاول الانسان ـ او الكائن حل هذه المشكلة بالاستعانة

بخبراته السابقة ، او بابتكار وسيلة جديدة لمواجهتها . فالتفكير هو العملية التي ينظم بها العقل خبراته بطريقة جديدة لحل مشكلة معينة . والتفكير مظهر من مظاهر الذكاء ويمكن اكتساب عادة التفكير العلمي المنظم من خلال التربية والتعلم .

ويمكن تحليل التفكير سيكولوجيا ومنطقيا . فمن الجانب النفسي نجد ان التفكير هو محاولة التغلب على مشكلة تعوق دوافع الفرد وتطلعاته داخل المجال النفسي الذي يعيشه ، وذلك بالاستعانة بالخبرات الماضية من خلال التذكر بعملياته المختلفة وإدراك العلاقات . . . اما من الجانب المنطقي فان هناك خمس خطوات حددها « جون ديوي » للتفكير المنطقي وهي تدخل في باب المناهج . وهذه الخطوات الخمس هي الشعور بالمشكلة ومحاولة تحليلها الى عناصرها ، وطرح الفروض القادرة على تفسير الموقف وحل المشكلة ، ثم اختبار انسب الحلول ثم طرح الحل واستخدامه .

مستويات التفكير :

هناك عدة مستويات للتفكير نوجزها فيما يلي :

أ ـ المستوى الحسي :

وهو ذلك التفكير الذي يدور حول المدركات الحسية الحالية وليس على اساس افكار عامة . ويلاحظ ان تفكير الاطفال حتى قرب آخر مرحلة الطفولة المتأخرة ـ من هذا النوع . . ويجب على المربين مراعاة هذه الظاهرة عند وضع البرامج التربوية للاطفال .

ب ـ المستوى التصوري

وبعد هذا النوع من التفكير اكثر تقدما بالمقارنة بالمستوى الحسي وهو مستوى التفكير من خلال استخدام الصور الحسية المختلفة والتفكير بالصور الحسية اكثر شيوعا عند الاطفال منه عند الكبار . ويستخدم هذا النوع من التفكير في حل العديد من المسائل الهندسية (مثل لعب المكعبات حيث يطلب الى الاطفال تكوين أشكال معينة من المكعبات المكونة ، وهنا لا بد من الاعتماد على الصور البصرية والتخيل .

جـ ـ المستوى المجرد :

وهذا هو ارقى مستوى من مستويات التفكير ، وهو التفكير المعنوي وهو الذي يعتمد على المعاني والرموز والدلالات وليس على الاشياء ذاتها .

الفصل الحادي عشر

الذكاء ومقاييسه

١ ـ مقدمة حول الفروق الفردية
٢ ـ مفهوم الذكاء ـ تعريفاته ونظرياته
٣ ـ الذكاء والقدرات العقلية بين الوراثة والبيئة
٤ ـ مقاييس الذكاء
٥ ـ نمو العمر العقلي
٦ ـ توزيع الذكاء
٧ ـ ضعف العقل
٨ ـ افراط الذكاء والموهبة

مقدمة حول الفروق الفردية :

ميز الله سبحانه وتعالى الانسان بنعم عديدة لا تحصى وفي مقدمتها نعمة العقل والارادة ، الامر الذي استحق من اجله ان يصبح الانسان خليفة عن الله في الارض ولاحظ الباحثون ، ان الناس يختلفون فيما بينهم اختلافا ملحوظا في الشكل والجسم وبصمة الاصبع والحجم والذكاء والمزاج والخلق والاستعدادات الخاصة وقوة الدوافع والقدرة على التعلم والقدرة على احتمال التعب والشدائد . وهذه الاختلافات يبدو بوضوح في اختلاف قدرة الناس على التكيف بسهولة مع المواقف الجديدة ، من اختلافهم في درجات التحصيل الدراسي ، واختلافهم في القدرة على حل المشكلات التي تعرض لهم في حياتهم . فالفصل الدراسي الواحد يجمع طلبة متفوقون ، وطلبة وسط وطلبة متخلفون دراسياً . واذا ما واجهنا مجموعة عشوائية من الناس لمهنة معينة ، وجدنا البعض يبرز ويتفوق فيها بينما يمارسها البعض بشكل عادي ، في حين يفشل آخرون تماما في ممارستها . . . الخ . اكتشف الناس منذ القدم هذه الظاهرة الواضحة التي يطلق عليها علماء النفس الفروق الفردية في القدرات والذكاء والميول والاستعدادات ، ومعرفتنا بهذه الظاهرة تستوجب ان نستفيد منها بطريقة عملية في مختلف عمليات التوجيه المهني والتوجيه التربوي حتى نستفيد بأقصى قدر ممكن من قدرات الناس واستعداداتهم . ونقصد بالتوجيه المهني ، توجيه الافراد الى امتهان المهن التي تتفق مع ذكائهم وقدراتهم وميولهم ، حتى لا نسيء الى الشخص ونسبب له احباطات متكررة وشعور بالعجز والفشل ، ولا نسيء الى المهنة والانتاج بوضع أناس في غير مكانهم الصحيح ، وهذا هو معنى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

أما التوجيه التربوي فنقصد به توجيه الطلبة الى الميدان الدراسي المؤهلين عقليا ونفسيا واجتماعيا لدراسته حتى لا نعرض الطلبة للفشل الدراسي

ونشجعهم على التفوق . وقد ظهر ان من يتفوق في مهنة الهندسة قد يفشل تماما اذا ما وجه لممارسة التدريس ، وما يصلح في مهنة التدريس قد يفشل كمحام او كمهندس ، ومن ينجح في دراسة اللغات يفشل في دراسة الطب ، ومن يتفوق ويبرز في دراسة الهندسة يصبح طالباً عادياً لو وُجه لدراسة الحقوق والشريعة . فقد يكون الفرد على درجة عالية من الذكاء لكنه ضعيف الارادة أو سيء الخلق أو مصاباً بمرض نفسي ولهذا لا يصلح للأعمال التي تتطلب قوة الارادة كذلك قد يكون انسان ما متمتعاً بقدرة عالية في اللغة (القدرة اللغوية) لكنه لا يصلح لدراسة الرياضيات العليا (تقديره منخفض على القدرة الرياضية) . . . الخ . واعتماداً على الفهم العلمي لظاهرة الفروق الفردية فانه يجب على المربين والمسؤولين مراعاتها عند القيام بعمليات التوجيه التربوي والمهني وتوزيع الطلبة على الأقسام والتخصصات المختلفة ، وذلك من خلال اجراء الاختبارات وتطبيق المقاييس والقيام بالمقابلات الشخصية المقننة .

مفهوم الذكاء وتعريفاته ونظرياته

يختلف السلوك الذكي عن السلوك الغريزي اختلافا بينا : فقد كشف العلماء عن قيام الحيوانات والحشرات بسلوك بالغ الدقة قد لا يستطيعه الانسان ذاته ، غير ان هذا السلوك لم ينجم عن التفكير والتدبير والقصد وتصور الغاية مسبقا ، ولكن سلوك غريزي اي انه يتم دون قصد او تفكير مسبقين . ومن امثلة هذا السلوك المنظم سلوك النحل داخل الخلايا من حيث تقسيم العمل واداء الادوار بدقة بالغة . وهناك نوع من الحشرات اذا اقتربت الانثى على وضع البيض حفرت حفرة في الارض ، وتحضر نوع معين من الديدان ، تلسع كل منها لسعة في منطقة دقيقة لتخديره لا لاماتته ثم تجره الى الحفرة حتى اذا ما فقس البيض وجد لحما طريا طازجا . وامامنا مثال الطيور في بناء عششها وهجراتها وهجرات الاسماك . . . قد يظن البعض ان هذه النماذج السلوكية تعكس نوعا من الذكاء وهذا خطأ ، ذلك ان الله امدها ـ فطريا ـ بهذه القدرة ووجهها ـ سبحانه ـ الى هذا السلوك من اجل البقاء والاستمرار. فهذا سلوك غريزي بحت لا علاقة له بالذكاء الذي يفترض التعليم واعمال العقل ومواجهة المشكلات ؛ ويمكن القول بان السلوك الناجم عن الغريزة يتسم بعدة سمات أهمها انه سلوك جامد متحجر لا يتغير بتغير الموقف الخارجي وحتى وان كان غير ملائم لهذا الموقف ، اي انه سلوك لا يتسم بالمرونة والتكيف . هذا الى جانب انه

سلوك نوعي خاص بمواقف معينة . اي ان نوعية السلوك الذي تمارسه الحشرة او الحيوان في موقف معين لا يمكن تعميمه في المواقف الاخرى . فالنحلة التي تسلك بمهارة بالغة داخل الخلية لا تستطيع ان تخلص نفسها من مشكلة صغيرة كالخروج من فوهة زجاجة تكون قد وقعت فيها . واخيرا فانه الى جانب ان السلوك الغريزي سلوك اعمى متحجر نوعي ، فانه عام في النوع كله .

وعلى العكس من ذلك فان السلوك الذكي هو الذي ينجم عن استبصار وبصيرة ، وعن تصور مسبق للغايات والوسائل القادرة على الوصول اليها . وهناك عدة مظاهر للسلوك الذكي ومن اهم سمات الشخص الذكي انه اشد يقظة من غيره ، واكثر قدرة على التعلم والاستفادة مما تعلمه في مواقف جديدة (تعميم الخبرة) . كذلك فانه اقدر على إدراك العلاقات بين المواقف والاشياء ، واقدر على الاستجابة للمواقف الجديدة استجابات موفقة ناجحة ، وأقدر على الابتكار والتبصر في عواقب الاعمال وغالبا ما ينجح الشخص الذكي في الدراسة والعمل والعلاقات مع غيره إذا لم تكن هناك عقبات معوقة كالأمراض النفسية .

وبعد هذا التوضيح الموجز لنا ان نتساءل عن تعريف الذكاء . والواقع ان التعاريف تمثل مشكلة كبيرة في كافة العلوم لدرجة ان البعض عزف عنها واهتم بالخصائص . وقد اختلف العلماء كثيرا بصدد تعريف الذكاء ، فمنهم من يعرفه من حيث الوظيفة والغاية ومنهم من يعرفه من حيث البناء والخصائص .

ومن علماء القسم الاول الذين يركزون على الوظيفة والغاية بعض علماء النفس الالمان مثل « كوهلر » و « شترن » والامريكان مثل ترمان وكولفن . ومثال هذا ان « كوهلر » رائد مدرسة الصيغ الالمانية يذهب الى ان الذكاء هو القدرة على الاستبصار ، ويذهب « شترن » الى ان الذكاء هو القدرة العامة على التكيف العقلي للمشكلات والمواقف الجديدة . أما « ترمان » فيذهب الى ان الذكاء هو القدرة على التفكير المجرد . ويذهب « كولفن » الى ان الذكاء هو القدرة على التعلم ، ويشير « جودارد » الى ان الذكاء هو القدرة على الاستفادة من الخبرات السابقة في مواجهة المشكلات الحاضرة والتنبؤ بالمشكلات المستقبلة .

أما القسم الثاني من العلماء الذين يفضلون تعريف الذكاء من حيث البناء وما ينطوي عليه من اقسام ففي مقدمتهم « سبيرمان » و « ثورنديك » و«بينيه»- رائد اختبارات الذكاء- وثرستون . ويذهب سبيرمان العالم البيرطاني

الى ان الذكاء يمثل العامل العام أو القدرة الفطرية العامة التي تؤثر في جميع انواع النشاط العقلي الطائفية والخاصة فالذكاء عند **سبيرمان** ليس قدرة عقلية معينة كالاستدلال والتذكر والتعلم ، بل هو قدر مشترك بين جميع العمليات العقلية بنسب متفاوتة تشترك معه عوامل نوعية تختلف باختلاف العملية كالقدرة اللغوية والحسابية . ويذهب « **ثورنديك** » الى ان الذكاء يتألف من عدة قدرات عقلية أولية ، فاختبار الذكاء لا يقيس قدرة عامة واحدة ، ولكنه يقيس في الواقع سبع قدرات او عوامل اولية وهي عند ثورنديك :

١ ـ القدرة على فهم المعاني والالفاظ .
٢ ـ الطلاقة اللفظية ويقصد بها سهولة استرجاع الالفاظ وتأليف كلمات من حروف معينة .
٣ ـ القدرة العددية وهي القدرة على اجراء العمليات الحسابية الاربع الجمع والطرح والضرب والقسمة في سرعة ودقة .
٤ ـ القدرة على التصور البصري المكاني ، وهي القدرة على تصور العلاقات المكانية والاشكال والحكم عليها بدقة . او على تصور حركات الاشياء وأوضاعها المختلفة اثناء هذه الحركة .
٥ ـ سرعة الإدراك وتقاس عن طريق مدى تعرف الشخص على اوجه الاتفاق والاختلاف بين الاشياء .
٦ ـ القدرة على التذكر الاصم اي ـ الاسترجاع او التعرف ـ المباشر لكلمات أو رسوم أو أرقام .
٧ ـ القدرة على الاستقراء ، اي الخروج بالقانون او المبدأ العام بعد استقراء وفحص مجموعة جزئيات .

ويؤكد « ثورنديك ان هذه القدرات المؤلفة للذكاء مستقل بعضها عن بعض استقلالا جزئيا نسبيا وليس كليا . فالذي يتفوق في القدرة اللغوية يتفوق كذلك في القدرة الرياضية بشكل ما . وان هذه القدرات السبع تتفاعل معا في العمليات العقلية المعقدة .

ويذهب العالم الفرنسي « بينيه » الذي كان أول من كان له تصور واضح لاختبارات الذكاء ، فقد ذهب الى ان الذكاء يتألف من اربع قدرات هي : الفهم

والابتكار والنقد والقدرة على توجيه الفكر في اتجاه معين واستبقاؤه فيه (التركيز الذهني) مثل تنفيذ عدة تعليمات متتابعة .

وعلى الرغم من اختلاف العلماء في صياغة تعريف متفق عليه للذكاء الا انهم متفقون على مجموعة من الاختبارات القادرة على قياس الذكاء وسبق أن أشرت الى صعوبة التعريف وأهمية قياس الخصائص . فنحن الى الآن لا نعرف تعريفا محددا جامعا مانعا للكهرباء ، ومع هذا نقيسها ونستفيد منها كطاقة . ونفس الشيء بالنسبة للذكاء فلدينا الآن العديد من اختبارات الذكاء التي نستفيد منها في مختلف عمليات التوجيه الدراسي والتعليمي والمهني وتوزيع العمال على الادارات والاقسام وتوجيه الطلبة الى أقسام الدراسة ، والتي نستطيع من خلالها تمييز الاذكياء عن غير الاذكياء .

ولعل هذا هو ما جعل العلماء يلجأون الى التعريفات الاجرائية اي تعريف الذكاء بشكل يمكن قياسه واختباره ، وتظهر هذه التعريفات بشكل واضح في نظريات « بينيه » و « ترستون » اللذان اوضحا ان الذكاء يتمثل في مجموعة من القدرات العقلية التي يمكن قياسها .

الذكاء والقدرات العقلية بين الوراثه والبيئة :

اختلف الرأي بين العلماء حول اصل الذكاء والقدرات العقلية ، هل ترجع للدراسة ام ترجع للبيئة الاجتماعية على سبيل الاكتساب . ويتعصب بعض العلماء المتطرفين للبيئة ويقولون انه يمكن من خلال التدريب والتعليم تنمية الذكاء عن الشخص الصحيح الجسم لدرجة التفوق والنبوغ . وتوجيهه ليكون فنانا عظيما او عالما او مهندساً . . . كل ذلك عن طريق التعليم . وفي مقابل هذا الرأي المتطرف يذهب انصار الوراثة ان ذكاء الانسان قدر مقدور لا يمكن للبيئة الاجتماعية تغيره .

والواقع ان وضع القضية بهذا الشكل وضع خاطىء . فلا يمكن القول وراثة ام بيئة ، لان الواقع ـ وهو الرأي الذي يميل اليه اغلب العلماء اليوم ـ ان تفكيرنا وسلوكنا هو محصلة للتفاعل الايجابي بين العوامل الوراثية والعوامل المكتسبة ، ويستحيل الفصل القاطع بينهما فهما وجهان لعملية واحده ولكن من اجل الدراسة والفهم العلمي يعتبر العلماء القدرة فطرية اذا ما توافر لها عدة خصائص اهمها :

اولاً : ظهور القدرة او السمة دون حاجة الى تعلم ويمكن وضع الذكاء في هذا القسم فالطفل قادر على التعامل والتفكير ويظهر ذكاؤه دون حاجة الى تعلم .

ثانياً : الثبات النسبي للقدرة ، بمعنى عدم قدرة العوامل البيئية الاجتماعية والجغرافية ان تغير منها الا في حدود ضيقة للغاية ، فالبيئة الاجتماعية مثلا لا تستطيع ان تحدث تغيرات في طول الشخص اولونه اومزاجه او ذكائه الا في أضيق الحدود ، وذلك على العكس من القدرات والسمات المكتسبة كالاتجاهات الاجتماعية والمعتقدات والميول المهنية وعواطفنا نحو الاشياء والقضايا العامة والاشخاص .

ويمكن القول ان الذكاء قدرة معرفية فطرية عامة تدخل في جميع العمليات العقلية الاخرى بنسب متفاوتة ، وكل انسان تحدد له الوراثة اطارا عاما لتلك القدرة ويقتصر دور البيئة على مدى استغلال تلك القدرة ، فقد يكون شخص ما على درجة عالية من الذكاء الفطري ، لكنه لم تتح له امكانيات التعلم والثقافة ومختلف الامكانيات البيئية من مكتبات واساتذة وفرص للاكتشاف والابتكار فصار أمياً يجهل كتابة اسمه ويمارس اعمالا أولية ، في حين ان انسانا آخر قد يقل عنه ذكاء ـ من الناحية الفطرية ـ لكن اتيح له من الامكانيات وفرص التعلم واكتساب الثقافة ما لم يتح للاول فصار عالما مكتشفا في مجال معين . هنا تلعب البيئة دوراً جوهريا في استغلال الطاقات الفطرية سلبا او ايجابا .

وقد اجريت تجارب كثيرة للتأكد من اثر الوراثة والبيئة في ذكاء الانسان ولتقدير اثر البيئة لجأ الباحثون الى دراسة افراد من وراثة واحدة نشئوا في بيئات مختلفة ، ولتقدير اثر الوراثة لجأ العلماء الى دراسة افراد من وراثات مختلفة نشئوا في بيئات واحدة او متشابهة . وقد كشفت التجارب عن تشابه ذكاء التوائم الصنوية (التي تنشأ عن انشطار نفس البويضة المخصبة) على الرغم من تنشئتها في بيئات مختلفة ، مما يؤكد اثر وأهمية الوراثة . ولمعرفة اثر البيئة لجأ العلماء الى دراسة اطفال الملاجىء ، وهم من وراثات مختلفة وفي بيئة واحدة وروعي ان يكونوا قد اودعوا الملجأ في سن مبكرة . وقد كشفت الدراسات عن ان الفروق بين اطفال الملاجىء تقترب كثيرا من الفروق بين الاطفال خارج الملجأ ، مما يؤكد كذلك فطرية الذكاء .

وقد انتهى العلماء من هذه الدراسات وغيرها ان اثر التربية في تغيير الذكاء لا يكاد يذكر ، وان كان لها اثرها الذي لا ينكر في استغلال الذكاء وحسن او سوء توجيهه . غير ان هناك مشكلة كبرى تقابل علماء النفس اليوم وهي كيفية قياس الذكاء الفطري الخالص بعيدا عن الابعاد الثقافية التي تكتسبها من البيئة ، ذلك لان نتائج اختبارات الذكاء تتأثر في الواقع بالخبرة والتعلم .

مقاييس الذكاء :

حاول الباحثون منذ زمن غير قريب بحث قضية ذكاء الانسان وقياسه فحاول البعض الربط بين الذكاء وتضاريس الجمجمة او اتساع الجبهة وحاول البعض الآخر قياسه عن طريق قياس بعض السمات الشخصية مثل درجة الحساسية للالم والقدرة على التمييز الحسي ، ثم ما لبث العلماء ان كشفوا عن خطأ هذه الاعتبارات ، فقد كشف « بيرسون » عن ضعف الارتباط بين القدرة العقلية والمظاهر الجسمية ، وكشف آخرون عن ضعف او انعدام العلاقة بين الذكاء كقدرة فطرية وبين السمات المذكورة .

وفي سنة **١٩٠٤** م طلبت وزارة المعارف الفرنسية الى مجموعة من العلماء الفرنسيين ان يقدم للوزارة وسيلة دقيقة للتمييز بين الاطفال الأسوياء وبين الاطفال شديدي الغباء ممن لا يصلحون للدراسة في المدارس الابتدائية . وكان العالم الفرنسي « بينيه » ضمن اعضاء هذه المجموعة . وقد حاول هذا العالم استحداث مقياس يستطيع قياس مستوى الذكاء العام لاي طفل كما يقيس الترمومتر درجة الحرارة ، وكما يقيس المتر اطوال الاشياء . ولم يهتم « بينيه » بتعريف الذكاء قدر اهتمامه بقياسه والانتفاع العملي بهذه المقاييس تماماً كما يفعل علماء الطبيعة ازاء الكهرباء .

وحاول « بينيه » ان يصنف الذكاء الى اقسامه حتى يستطيع ان يقيس كل قسم ، فوجد ان الذكاء العام يتضح في اربع قدرات عقلية هي :

أ ـ الفهم
ب ـ الابتكار
جـ ـ النقد
د ـ القدرة على تركيز الفكر في مجال معين فترة زمنية .

وبناء على هذا التحديد بدأ يضع مقاييس لكل قدرة من القدرات الاربع السابقة . وقد راعى « بينيه » في مقياس الذكاء الذي وضعه ما يلي :

اولاً : قياس الذكاء الخالص بعيدا عن اثر الخبرة والتعلم .

ثانياً : التنوع اي قياس جميع العمليات الفرعية التي تشكل في مجموعها الذكاء الفطري العام .

ثالثاً : التركيز على قياس العمليات العقلية العليا كالنقد والفهم والتفكير والتخيل ، والابتعاد عن قياس الذكاء من خلال المقاييس الجسمية والحسية .

وفي سنة **١٩١١** ظهر المقياس النهائي الذي وضعه « بينيه » ويتألف من مجموعات من الاختبارات تصلح كل مجموعة منها لقياس ذكاء الافراد في عمر معين ابتداء من الثالثة . ويمكن اعتمادا عليها تحديد العمر العقلي للاطفال ، فاذا ما تمكن طفل في السابعة من العمر من حل اختبارات ذكاء حتى سن السابعة وفشل في حل الاختبارات التالية ، حكمنا بان عمره العقلي = **٧** وبما ان عمره الزمني = **٧** فاننا نستطيع استخراج نسبة الذكاء بقسمة العمر العقلي على العمر الزمني ونضرب الناتج × **١٠٠** لازالة الكسور .

$$\text{نسبة الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الزمني}} \times ١٠٠$$

وفي حالة المثال السابق سوف تكون نسبة ذكاء الطفل **١٠٠** اي انه طفل طبيعي . واذا ما استطاع طفل في سن الرابعة ان يحل اختبارات ذكاء لطفل في السادسة فهو اذكى بكثير من المتوسط .

$\frac{٦}{٤} \times ١٠٠ = ١٥٠$ وهي تشير الى ذكاء مرتفع

وعلى العكس من ذلك لو ان طفلا في الثامنة لم يستطع ان يحل اختبارا في الذكاء اعلى من مستوى اطفال الرابعة نحكم عليه بالتخلف العقلي .

$\frac{٤}{٨} \times ١٠٠ = ٥٠$ وهي نسبة تشير الى التخلف العقلي الواضح .

وقد ترجم هذا الاختبار الى عدة لغات واعيد تقنينه في بلاد كثيرة نظرا لاختلاف الثقافات ، وحاول العلماء اللاحقون تعديله وتنقيحه ، وظلت مبادىء

القياس كما وضعها بينيه كما هي ، ثم ظهر بعد ذلك العديد من مقاييس الذكاء الفردية والجمعية ، اللفظية والادائية . . . . الخ .

نمو العمر العقلي :

تمكن العلماء من خلال استخدام اختبارات الذكاء من الكشف عن نمو مستوى الذكاء ، حيث وجدوا ان الذكاء ينمو بسرعة خلال السنوات الاولى من حياة الفرد ، ثم ينمو بمعدلات اقل حتى سن ١٣ ـ ١٥ ، ثم يبطىء نموه تدريجياً حتى سن ١٨ سنة ، اما بعد هذا السن فلا يمكن تسجيل زيادة في نموه عن طريق المقاييس . وقد وجد ان الذكاء يأخذ في الانحدار التدريجي ببطء شديد في الاعمار المتقدمة . وليس معنى ان المقاييس لا تكشف عن نمو في الذكاء بعد ١٨ سنة انه يتوقف الانتاج العقلي ، فهناك فرق واضح بين المستوى العقلي (الذكاء) والانتاج العقلي (استخدام الذكاء ونمو الخبرات) فاذا كان المستوى العقلي يتوقف فان الانتاج العقلي لا يتوقف ومثل مستوى الذكاء مثل الطول الذي يتوقف عن سن معينة وقد كشفت المقاييس أن نمو مستوى الذكاء يكون أسرع لدى الأطفال الاذكياء ويستمر لمدة اطول منها لدى متوسطي الذكاء كما ان نموه لدى الاغبياء وضعاف العقول يكون ابطأ ولمدة اقصر منها لدى متوسطي الذكاء . فمستوى الذكاء يتوقف نموه لدى الاغبياء قبل سن ١٥ سنة بينما يستمر الى ما بعد ١٨ سنة بقليل لدى الاذكياء .

توزيع الذكاء :

يمكن تصنيف الناس على اختبارات الذكاء ـ بعد تطبيقه على عدد كبير منهم بطريقة عشوائية ـ الى أذكياء جدا ، اذكياء ومتوسطي الذكاء واغبياء وضعاف عقول . وتشير الابحاث الى ان الذكاء موزع بين الناس طبقا للمنحنى الطبيعي ، فالاغلبية العظمى من الناس ذوي ذكاء متوسط ، اما النوابغ وضعاف العقول فقلة ويمكن تصنيف الناس حسب متوسط الذكاء على النحو التالي :

٢٥ فأقل معتوه

٢٥ الى اقل من ٥٠ ابله

٥٠ الى اقل من ٧٠ اهول

٧٠ الى اقل من ٨٠ غبي جدا

٨٠ الى اقل من ٩٠ دون المتوسط

٩٠ الى اقل من ١١٠ متوسط الذكاء
١١٠ الى اقل من ١٢٠ فوق المتوسط
١٢٠ الى اقل من ١٤٠ ذكي جدا
١٤٠ مما فوق موهوبون

ويتضح من الجدول السابق ان من تصل نسبة ذكائهم الى اقل من ٩٠ يصنفون ضمن فئة الضعف العقلي .

ضعف العقل :

ضعفاء العقول هم من تنخفض نسبة ذكائهم عن ٩٠ الأمر الذي يعجزهم عن التعلم في المدارس العادية وقد يصل بهم الأمر الى العجز عن تدبير شؤونهم الخاصة . ويمكن تصنيف الضعف العقلي الى اقسام حسب شدته كما اتضح من الجدول السابق .

فالمعتوه : وهو ادنى درجات الضعف العقلي هو من يعجز تماما عن التعلم ، او حتى عن اطعام نفسه او ضبط أمعائه ويعجز عن الكلام سوى بضع مقاطع مما يعجزه عن الاتصال بغيره .

وهو يعجز عن القيام بأي عمل ارادي ، بل ويعجز عن حماية نفسه من اخطار الطريق . وهو مهما كبر عمره فلن يزيد عمره العقلي عن مستوى العمر العقلي لطفل في الثالثة .

والأبله : وهو مستوى من الضعف العقلي يقل قليلا عن المستوى السابق ، فالابله قادر على حماية نفسه ضد الاخطار ويستطيع الكلام الى حد ما ، لكنه لا يستطيع القراءة والكتابة ، ويعجز عن القيام بالاعمال سوى البسيطة كالكنس والتنظيف . ومهما كبر الابله فلن يزيد عمره العقلي عن السادسة .

أما الأهول : فهو مستوى اقل من الضعف العقلي بالمقارنة بالابله حيث يستطيع الأهول القيام بالاعمال الروتينية البسيطة دون اشراف ـ كالنجارة والحدادة والتجليد . ومشكلة هذه الفئة انه يمكن اغراء الاناث والذكور فيها بممارسة الانحراف ومهما كبر الأهول فلن يزيد عمره العقلي عن ١١ سنة .

ويلاحظ ان الفئتين الاولى والثانية يرجع ضعف العقل لديهم الى اسباب وراثية أو ولادية (مكتسبة اثناء الحمل) ، اما الاهول فلا يعاني من حالات

مرضية واضحة او الى اسباب عضوية ، ولكنه شخص غبي جدا . ويتضح مما سبق ان الضعف العقلي يحول بين الشخص وبين التكيف بمختلف صوره الاجتماعي والتعليمي والمهني . . . الخ .

افراط الذكاء أو الموهبة :

يتراوح ذكاء الموهوبين بين ١٣٠ ـ ٢٠٠ ، وقد اجرى « ترمان » العالم الامريكي دراسة مستفيضة عليهم ووجد انهم يمثلون ٢٪ من اطفال المدارس ، وكشفت الدراسة انهم اسرع واكثر تفوقا من زملائهم خاصة في المواد التي تحتاج الى التفكير المجرد والراقي كالرياضة وهم اكثر رغبة في القراءة ولهم نشاط اجتماعي ملحوظ . وتكشف اختبارات الشخصية ان الموهوبين اقوى ارادة واكثر مثابرة واكثر حرصا على التفوق بالمقارنة بمتوسطي الذكاء ، كما انهم اكثر ميلا للزعامة واكثر ثقة بالنفس واكثر نجاحا في الدراسة وفي الحياة الاجتماعية مما يشير الى العلاقة الايجابية بين الذكاء والنجاح في التعليم والحياة العملية ، وان كانت العلاقة بينهما ليست متلازمة لان النجاح يعتمد على عوامل شخصية اخرى غير الذكاء .

الفصل الثاني عشر

الشخصية وطرق الحكم عليها

١ ـ مقدمة حول مفهوم الشخصية في علم النفس

٢ ـ نظريات الشخصية

أ ـ نظرية الطرز :

ـ الطرز المزاجية

ـ الطرز الجسمية

ـ الطرز الهرمونية

ـ الطرز النفسية

ب ـ نظرية السمات الثابتة

جـ ـ نظرية السمات الموقفية

د ـ نظرية التحليل النفسي

٣ ـ الحكم على الشخصية :

أ ـ دراسة الحالة

ب ـ التداعي المطلق

جـ ـ المقابلة

د ـ موازين التقدير

هـ ـ الاستخبار

و ـ الاختبارات الموقفية

ز ـ الاختبارات الاسقاطية

مقدمة حول مفهوم الشخصية في علم النفس :

يختلف الافراد في ذكائهم وقدراتهم واجسامهم واتجاهاتهم وميولهم العاطفية والانفعالية . . . كل هذه الجوانب وغيرها هي التي تشكل مقومات الشخصية . فكل صفة تميز الشخص عن غيره تكون جانبا من شخصيته ـ كالذكاء والنواحي العقلية الاخرى كالقدرات (القدرة الرياضية اللغوية ، الموسيقية ، الميكانيكية . . . الخ) والنواحي الانفعالية مثل سرعة الاستجابة الانفعالية او بطء الاستجابة ، والنواحي الاجتماعية كالصدق والامانة والالفة والتسامح او التشدد . . . والنواحي الجسمية كالطول والقصر والصحة والمرض . . . . الخ . كل هذه الجوانب متفاعلة مع غيرها ومع بعضها هي التي تؤلف ذلك التنظيم الذي نطلق عليه الشخصية . وكثيرا ما نقول ان فلانا من الناس له شخصية ، وان آخر ليس له شخصية ، ونحن لا نعبر بهذا الشكل عن الشخصية بالمعنى العلمي ، ونقصد في الواقع الحكم على الشخصية . فكل انسان له شخصيته لاننا نقصد بذلك المصطلح جملة الصفات الجسيمة والعقلية والمزاجية والخلقية التي يتفرد بها شخص ما ويتميز بها عن غيره من بقية الناس . وعادة ما نركز على صفة معينة عندما نحكم على انسان معين مثل قوة ذاكرته او مهارته في حرفة او مهنة ما ، او ادائه خدمة للناس ، وعادة ما نركز في حكمنا على الناس على الجانب الاجتماعي الذي يظهر امام الناس من خلال التعامل .

والواقع ان هناك العديد من التعريفات العلمية للشخصية بعضها يركز على الجوانب الاجتماعية ، بينما تركز تعريفات اخرى على الناحية الجسمية والعقلية . ومن اهم هذه التعريفات تعريف مدرسة التحليل النفسي وهو ان الشخصية تنظيم دينامي (حركي) داخلي لعوامل نفسية وفسيولوجية يحقق تكيف الفرد مع بيئته . وهذا التنظيم الحركي يتضمن الخلق والمزاج والذكاء والجسم .

ويقصد بالخلق الشخصية منظورا اليها من زاوية المعايير والقيم الاخلاقية

كالامانة والصدق والعدالة أو العكس . . والخلق بهذا الشكل جانب من الشخصية يتعلق بالسمات التي تمكننا من التصرف بصورة ثابتة نسبيا في المواقف الاجتماعية المختلفة . اما المزاج فهو جملة السمات التي تميز انفعالات انسان عن غيره ، ويتعلق المزاج بالظروف العصبية والغدية او الجسمية للشخص ، كما يتعلق بالخبرات الانفعالية للانسان ، ولهذا فان الحالة المزاجية تتوقف على الوراثة الى حد كبير. وتعد القدرات العقلية- وفي مقدمتها الذكاء- أحد الجوانب الهامة للشخصية ، فمن التعريفات الهامة للذكاء انه القدرة على ادراك العلاقات والمتعلقات ، أو القدرة على التكيف مع المواقف الجديدة . غير ان الذكاء ليس كل شيء في عملية التكيف ، اذ يدخل في القدرة على التكيف عدة عوامل منها ما يتعلق بالجسم ومنها ما يتعلق بالخبرات السابقة .

نظريات الشخصية :

نظريات الشخصية تحاول ان تفسر بناء الشخصية ، وكيفية اختلاف الناس من حيث شخصياتهم وسوف نعرض فيما يلي لاهم النظريات المطروحة :

اولا ـ نظرية الطرز :

وتحاول تصنيف الناس مزاجيا وهرمونيا ونفسيا وجسميا وترجع نظرية الطرز الانفعالية تاريخيا الى هبوقراط وتصنيف الناس الى اربع مجموعات مزاجية يتسم كل قسم بخصائص مزاجية مميزة :

أ ـ **الطراز الدموي** : ويتسم اصحاب هذا الطراز بالتفاؤل والمرح وسهولة الاستثارة وسرعة الاستجابة ، وهم لا يأخذون الامور بجدية وسريعا ما تتقلب عواطفهم (هوائيون) .

ب ـ **الطراز الصفراوي** : ويتسم اصحابه بحدة الطباع وسرعة الغضب والاصرار والعناد والقوة والعنف في التعامل .

جـ ـ **الطراز السوداوي** : ويتسم اصحابه بصعوبة التفاهم مع الناس والتشاؤم وقوة الانفعال وبطء التفكير .

د ـ **الطراز البلغمي** : ويتسم اصحابه بالخمول وبطء الاستجابة والبدانة وانعدام الاهتمام وعدم الانفعال الشديد .

ويذهب انصار هذه النظرية الى ان الشخصية المتكاملة هي القادرة على

تحقيق التوازن بين هذه الجوانب او العناصر الاربعة .

وفي مقابل هذه الطرز المزاجية ظهر تصنيف لشخصيات الناس على حسب الطرز الجسمية ، وظلت هذه الفكرة تظهر بين وقت وآخر حتى ظهر اتجاه في علم الاجرام في ايطاليا تزعمه « لومبروزو » حيث اكدوا وجود خصائص جسمية مميزة للشخصية الاجرامية . ومن اهم انصار الطرز الجسمية في العصر الحديث « كرتشمر وشلدون » . حيث قام « كرتشمر » بالتمييز بين ثلاثة طرز اساسية يمكن من خلالها ـ في نظره ـ تصنيف الناس وهي*

أ ـ الطراز البدين القصير الممتلىء ، ويتسم اصحابه بالمرح والانبساط والصراحة وسهولة بناء علاقات طيبة مع الناس .

ب ـ الطراز النحيف النحيل الطويل ويتسم اصحابه بالاكتئاب والانطواء .

جـ ـ طراز الشخصية الرياضية ويتسم بالحيوية والعنف .

وقد اثبتت الدراسات خطأ هذا التصنيف .

اما تصنيف « شلدون » فقد قام بتصنيف الناس الى ثلاثة طرز هي :

أ ـ الطراز داخلي التركيب

ب ـ الطراز المتوسط التركيب

جـ ـ الطراز خارجي التركيب

وقد ظهرت محاولة قام بها الباحثين مثل « برمان » الباحث الامريكي لتصنيف الناس حسب طبيعة النشاط الهرموني السائد لديهم وقام بتصنيف الناس على النحو التالي :

أ ـ الطراز الدرقي : (نسبة الى الغدة الدرقية) وصاحبه قلق متهور عدواني تسهل استثارته .

ب ـ الطراز الادرينالييني : (نسبة الى هرمون الادرينالين الذي تفرزه الغدة فوق الكلى) ، وصاحبه نشيط قوي مثابر .

جـ ـ الطراز الجنسي : الذي يتسم بوفرة افرازات الغدد الجنسية فيتسم اصحابه بالخجل والتقلب الانفعالي .

---

* لمعرفة المزيد من المعلومات حول هذه القضية ارجع الى كتاب المؤلف بعنوان دراسات في علم الاجتماع ـ الجبلاوي ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٦ .

د ـ **الطراز النخامي** (نسبة الى زيادة افراز الغدة النخامية اسفل المخ) ويتسم افراده بالقدرة على ضبط النفس والتحكم .

هـ ـ **الطراز التيموسي** : (نسبة الى الغدة التيموسية) ويميل اصحابه الى ممارسة اللواط (والعياذ بالله) ويتسم اصحابه بالاستهتار الخلقي .

ومن الواضح ان هذا التصنيف لبرمان خاطىء لانه اعتبر ان الشخصية مرادفة للجهاز الغدي عند الانسان واهمل بقية العوامل الخلقية والاجتماعية والعقلية .

كذلك فقد حاول بعض علماء النفس تقديم نموذج تصنيفي للناس على اساس نفسي ، وفي مقدمة من قام بهذه المحاولة « يونج » الطبيب السويسري ، حيث قام بتصنيف الناس حسب مجالات الاهتمام البارزة لديهم واسلوبهم في تعاملهم مع الآخرين الى طرازين اساسيين هما :

أ ـ **الطراز المنطوي** : ويتسم اصحابه بالخجل وشدة الحساسية وحب العزلة والشك في الناس من حوله والقلق على المستقبل وعلى صحتهم ، وهم يعجزون عن التعبير بسهولة عن عواطفهم .

ب ـ **الطراز المنبسط** : يتسم اصحابه بعكس السمات السابقة حيث يحبون الناس ويألفونهم بسهولة ، وهم لا يهتمون بالنقد متفائلون يمكنهم التعبير بسهولة عما في داخلهم . . . الخ .

هذه هي اهم معالم نظريات الطرز حيث وجدنا ان هناك تصنيفات متعددة صرحت على ساحة البحث العلمي ، منها تصنيف الناس على اساس مزاجي ، او على اساس جسمي ، او على اساس هرموني غدي ، او على اساس نفسي ، والواقع ان كل نظرية ركزت على احد جوانب الشخصية وأهملت بقية الجوانب ، الى جانب انها تحدثت عن نماذج متطرفة من الشخصيات لا عن نماذج واقعية ، ذلك لان الناس غالبا ما يكونون خليطا بين هذه النماذج .

ب ـ نظرية السمات :

يمكن تعريف السمة او الصفة بانها استعداد او دينامي او ميل ثابت نسبيا الى نوع معين من السلوك ، ويبدو اثره في عدد كبير من المواقف المختلفة ، كالسيطرة او الخنوع أو المثابرة . . . . الخ . ويذهب انصار نظرية السمات الى انه لكل فرد

شخصية ثابتة هي محصلة مجموعة ثابتة من السمات تميزه عن غيره من الناس ، وهذه السمات الى جانب ثباتها النسبي فهي عامة تتيح لنا وصف شخص ما بانه مثابر او مجتهد او صادق . وحاول انصار نظرية السمات تفسير الثبات والعمومية في سمات الشخصية من خلال القول بوجود استعدادات ثابتة وعامة وشاملة ومعقدة لدى كل انسان تهيء الفرد للعمل والسلوك بشكل معين . وأهم انصار هذه النظرية « البورت » في كتاب له بعنوان (الشخصية) . ويعرف ألبورت السمات بانها نظام عصبي نفسي عام (خاص بفرد معين) يعمل على جعل المثيرات المتعددة متساوية وظيفيا ، كما يعمل على اصدار وتوجيه اشكال متساوية من السلوك التكيفي والتعبيري وهذا يتضح ان السمة استعداد عام او نزعة تطبع سلوك الفرد بطابع معين فالسيطرة استعداد او ميل الى الظهور والتسلط في اكثر المواقف التي تعرض للمسيطر في اغلبها وليس في جميعها . والمثابرة استعداد للاستمرار في العمل رغم صعوبته وجفافه في مواقف كثيرة يختلف فيها نوع العمل . وتستند نظرية السمات الى فكرتين اساسيتين هما :

أولاً : وجود استعدادات نفسية مستقلة عن الظروف الخارجية الاجتماعية .

ثانياً : ان هذه الاستعدادات لها قدر كبير من العمومية والثبات وعلى هذا فالامين امين في كل موقف وتحت اي ظرف ، اي بغض النظر عن الظروف والمواقف الخارجية ، وقل نفس الشيء عن الجبان والكسول وقوي الارادة والصادق . فالسمات صفات ثابتة لا صفة بالفرد كأنها بصمات اصابعه .

ج – نظرية السمات الموقفية (المثير والاستجابة) :

يعارض انصار هذه النظرية فكرة الثبات والعمومية لسمات الشخصية بغض النظر عن الظروف الخارجية ـ الموقفية ـ فهم يرون ان الشخصية لا تتألف من سمات عامة ثابتة ـ ثباتا مطلقا او نسبيا ـ ولكنها تتألف من مجموعة من السمات او العادات النوعية ، اي على العادات التي تعتمد الى حد كبير على نوع الموقف الخارجي . والواقع ان هذا الرأي هو انصار الاتجاه السلوكي المتطرف الذين يذهبون الى سلوك الفرد لا يتوقف على سمات ثابتة ولكن يتوقف اساسا على نوعية الموقف الخارجي . وعلى هذا يمكن القول بان زيدا من الناس صادق او مثابر او امين . . . الخ . ويعتمد انصار هذا الاتجاه على دراسة قام بها « هارتشورن » و «ماي» على ١٠٠٠ طفل من مختلف طبقات المجتمع الامريكي بهدف قياس

بعض السمات الخلقية لديهم ، فكشفت هذه الدراسة عن عدم ثبات السمات وتغيرها بتغير الموقف ، فالطفل قد يغش في الامتحان ولا يغش في اللعب ، وقد يكذب على المدرس ولا يكذب على زميله ، وقد يسرق في موقف ولا يسرق في آخر . وخرج الباحثان من هذه الدراسة الى انه لا يوجد اطفال امناء واطفال غير امناء ، وانما هناك افعال امينة واخرى غير امينة . وهذا يعني ان الانسان ألعوبة في يد الظروف الخارجية المتغيرة .

ولا شك في خطأ هذه النظرية ، فقد تجاهلت اثر العقيدة او الالتزام الداخلي لدى الانسان ، فلا يمكن القول بان الانسان ألعوبة في يد المواقف الخارجية او معه بهذا الشكل الذي تزعمه السلوكية المتطرفة . فالمؤمن بالله والمسلم حق الاسلام ثابتا في سلوكه بغض النظر عن طبيعة الموقف الخارجي ، ولعل خطأ السلوكيين انهم عمموا حيث لا يجب التعميم ، فقد عمموا النتائج اعتمادا على دراسة سلوك الاطفال وهذا خطأ ولا يمكن الحكم على سلوك الراشد استنادا الى دراسة الاطفال .

د ـ رابعاً : نظرية التحليل النفسي :

اهتمت مدرسة التحليل النفسي بدراسة الشخصية من حيث سماتها ومكوناتها ووظيفتها وتفاعلها مع العالم الخارجي واستوائها وانحرافها . ويذهب « فرويد » الى ان الشخصية تتكون من مكونات ثلاثة هي :

أ ـ الهو او الجانب الغرزي :

ويتمثل في مختلف الجوانب الغريزية العمياء والطاقة الحيوية والحيوانية التي يولد الفرد مزودا بها ، فهي تشمل الدوافع الفطرية ـ الجنسية والعدوانية وغيرهما ، قبل ان تهذب وتحور من خلال الثقافة والمجتمع . وينطلق الهو من مبدأ اللذة ، ويحاول الانسان ارضاء هذه الدوافع سواء في دنيا الواقع او في دنيا الخيال .

ب ـ الأنا :

هو الجانب الواقعي للشخصية الذي يتكون نتيجة لاتصال الطفل بالعالم الاجتماعي الواقعي من خلال جوارحه المختلفة . فالطفل يرى النار تتوهج فيحاول لمسها فيلسع فيعرف انها خطر يجب تجنبه ، لذلك يعرف الاصوات ويميز

بينها ، ومن خلال اتصاله بوالديه يعرف انه لا يمكن ان يحقق كل رغباته دفعة واحدة وقتما شاء وبالاسلوب الذي يريد ، وانما يجب التنازل عن الكثير من الرغبات والا تعرض للاذى والالم . ومن خلال عملية التربية والثواب والعقاب يتعلم الطفل ان هناك سلوكا يحقق له السرور ، وآخر يسبب له الاذى فيسلك الأول ويتجنب الثاني. ويلعب الأنا دوراً هاماً في كبح الهو والحد من تطرفه والانا هو مركز الشعور والإدراك والحكم والتفكير وهو الذي يراقب اعمالنا الادارية والمشرف على الجهاز الحركي الاداري ، فهو الضابط والمتحكم في الدوافع يسمح بتحقيقها او عدم تحقيقها .

ويسير الأنا طبقاً لمبدأ الواقع وليس بحسب مبدأ اللذة ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الشخصية الشعورية أو الارادة ، وعلى حسب قدرة الأنا يتوقف التوازن في الحياة النفسية .

جـ ـ الانا الأعلى :

هو ما نستطيع ان نطلق عليه تجاوزا الضمير او الرقيب النفسي وهو جهاز يتكون من اوامر الوالدين وما يتلقاه الطفل عنهما من نواة وافكار عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، وهو المستشار الخلقي الذي يكافىء الشخص ويعاقبه اذا اخطأ . وهو جهاز لا شعوري يبدأ تكوينه من سن مبكرة . فهو جملة القيم والمعايير والمعتقدات والمبادىء الخلقية التي توجه السلوك والتي يعتمد عليها الفرد في تقييم دوافعه ونياته واعماله ، وهو جانب الشخصية الذي يعمل وفقا للمبادىء المثالية والذي ينقد ويعاقب ويكافىء ويوجه .

والواقع ان وظيفة الانا التوفيق بين الهو والانا الأعلى والواقع فعليه ارضاء دوافع الفرد الفطرية في اطار ما يسمح به الضمير من جهة ، وقواعد المجتمع وقيمه ومبادئه من جهة اخرى ، وبمقدار قوة الانا واتزانه تتكامل الشخصية ، اما اذا ما فشل في ضبط الهو ، او اسرف في المثاليات على حساب الواقع حدث اضطراب الشخصية وظهر ما يعرف بالمرض النفسي .

والواقع ان هذه النظرية التي تفسر النفس بثلاث قوى ، القوى الشهوية ، القوى المثالية ، والقوى الواقعية يمكن اعادة صياغتها في ضوء الفكر الاسلامي المبدع ، فهناك النفس الامارة بالسوء وهناك النفس اللوامة وهناك النفس المطمئنة ، وهذا ما يحتاج الى دراسة مستقلة .

هـ - النظرية المجالية :

يذهب انصار هذه النظرية من العلماء الالمان الى انه لا يمكن لنا فهم الظواهر السلوكية ، اذا ما حاولنا قياس كل جانب على حدة (كالذكاء أو القدرات الشخصية والميول والاتجاهات . . .) ذلك لأن هذا التفتيت يضيع من الانسان ككل . وعلى ذلك فاذا أردنا دراسة الشخصية لا بد من دراستها في ضوء المجال الكلي الواقعي الذي تعيش فيه ، ثم بعد ذلك ننحلل عناصر المجال ، أي نبدأ بالكل أولاً ثم نتدرج لفهم الأجزاء المكونة وليس العكس . وهذا هو سبب تسمية المدرسة التي تناصر هذا الرأي بمدرسة (الجشتلط) أي الكل .

الحكم على الشخصية :

تزخر الخزانة السيكولوجية اليوم بالعديد من اختبارات ومقاييس الشخصية التي تفيدنا في الحكم عليها ، وتفيدنا هذه الاختبارات فوائد عديدة سواء من الناحية العلمية او العملية ، فمن الناحية العلمية تفيدنا في الكشف عن العلاقة بين الشخصية والطبقة الاجتماعية او الوضع الاجتماعي - الاقتصادي للفرد والعلاقة بينها وبين التعليم والمهنة . . . وكيف تتغير الشخصية وهذا امر يفيدنا كثيراً في مجال الدعوة الاسلامية التي تستهدف تغيير شخصية الجمهور في الاتجاه الاسلامي الصحيح . . . الخ ، اما الاهداف العملية فاهمها اننا نستفيد من الحكم على الشخصية في مجالات التوجيه التربوي والمهني ، وتشخيص أسباب سوء التوافق لدى المجرمين والجانحين والمصابين بالاضطرابات النفسية والسلوكية ، ومعرفة مدى التقدم في مجالات العلاج النفسي .

وقد استخدمت في الماضي عدة طرق خاطئة للحكم على الشخصية منها الحكم من خلال تضاريس الرأس أو الجمجمة ، أو ملامح الوجه او طبيعة الجسم ومشكلة ، او من الصور الفوتوغرافية ، أو من خلال الحكم الذاتي . . . الخ . غير ان تقدم علم النفس استحدث اساليب اكثر موضوعية للحكم على الشخصية اهمها :

أ - دراسة الحالة او الملاحظة الكلينيكية :

ويستخدم هذا الاسلوب في العيادات النفسية من اجل تشخيص اسباب

الاضطرابات النفسية لدى من يعانونها وعلاجهم ، وتشمل هذه الاضطرابات ، الجوانب السلوكية والدراسة والاجتماعية والخلقية . ويقوم الدارس ـ طبقا لهذا الاسلوب ـ بجمع كل ما يمكنه من معلومات حول تاريخ المريض وما الم به من ظروف خلال حياته ـ خاصة خلال طفولته المبكرة ـ وظروفه الحالية وما تعرض له من صدمات او ازمات انفعالية او امراض جسمية ، واحيانا يستخدم المعالج الاختبارات النفسية (كاختبارات الذكاء والقدرات والميول المهنية . . . الخ .)

ب ـ التداعي المطلق :

وهي محاولة إكلينيكية (عيادية) يقوم بها الطبيب النفسي حيث يساعد المريض على التحدث وتذكر خبراته الماضية للكشف عما تنطوي عليه من عوامل وعمليات ودوافع لا شعورية تؤثر في سلوكه الراهنة بشكل مرض (بكسر الضاد) وكثيرا ما يعتري المريض اثناء جلسات التحليل النفسي حالات انفعالية شديدة بسبب الاقتراب من موقع العقدة وسبب الاضطراب .

جـ ـ المقابلة :

يمكن تعريف المقابلة بانها حوار هادف موجه يتم بين الاخصائي الاجتماعي او النفسي وبين شخص او اشخاص آخرين ـ مطلوب فحصهم ـ من اجل الحصول عن معلومات محددة تكشف عن شخصية المفحوص او بهدف التأثير في سلوكه وتوجيهه وجهة معينة ـ وهي امر يفيدنا كثيرا في المواقف التعليمية والتربوية داخل المدارس ، كما تفيدنا في مجال الدعوة الاسلامية ، كما تفيدنا في مجال التشخيص والعلاج النفسي . ومن مميزات المقابلة انها تعطينا معلومات لا يمكن العثور عليها من الاسئلة التحريرية ، على انه يجب ان يتخلص الحكام من الاحكام الذاتية ، وذلك من خلال تقنينها اي تحديد وتوحيد ظروف اجرائها ونوع الاسئلة التي تلقى وشكلها وطريقة إلقائها وترتيب القائها ، وتدريب القائمين بالمقابلة .

د ـ موازين التقدير :

وهي اساليب لتقدير السمات الاجتماعية والمزاجية والخلقية وتحديدها بشكل كمي لدى المفحوص . فبدلا من وصف شخص ما بانه تعوزه المثابرة ، نحدد بالضبط الدرجة التي يحصل عليها من هذه السمة ، فاكثر الناس مثابرة يمنح رقم ١٠٠ ، واشدهم تخاذلا يمنح صفرا ، والمتوسط على هذه السمة يمنح (٥٠) درجة . . وفيما يلي مثال لموازين التقدير في مجال سمة المثابرة .

يترك الاعمال الشاقة

مثابر جدا	لا يستسلم بسهولة	لا يترك عملا دون انجاز		انهزامي متخاذل
١٠٠	٧٥	٥٠	٢٥	صفر

وهذا النوع من المقاييس يسهل تطبيقه في المدرسة والمنـزل والمصنـع . . . الخ .

هـ ـ الاستخبار :

يشترك الاستخبار مع الاستبيان مع الاستفتاء في انه عبـارة عن قائمـة من الاسئلة المقننة (المحدد طريقة تطبيقه وطريقة تقدير نتائجه والزمن اللازم لاجرائه واجرى له اختبارات الصدق والثبات والاتساق) التي يطلـب الى المفحوصـين الاجابة عنها بنعم او لا او باجابة موجزة ، ويمكن ان يرسل الاستخبار بالبريد كما يمكن تطبيقه من خلال مقابلـة شخصية ، واذا ما صدقـت الاجابـات عن الاستخبارات فان فائدتها تكون كبيرة . وهناك عدة انواع من الاستخبار منها ما يحاول الكشف عن الاتجاهات والقيم ومنها ما يستخـدم لتـوضيح الميول المهنية والثقافية والتعليمية ومنها ما يستخدم للـكشف عن سمات شخصية كالانطـواء والانبساط او عن المشـكلات الشـخصية . . وعـادة ما يقـوم الباحـث باختبـار الاستخبار حتى يتأكد من صلاحيته .

و ـ الاختبارات الموقفية :

وهي اختبارات عملية تتـم من خلال تصـميم مواقف فعلية يوضـع فيهـا المفحـوص من اجــل الــكشف عن سمات معينــة يراد قياسهــا . وميزة هذه الاختبارات انها تكشف عن حقيقة السمات وتتجنب ما قد تتعرض له الاجابات اللفظية من تزييف . ويشترط الا يكون المفحوص واعياً بالهدف ، ويمـكن من خلال هذه الاختبارات قياس سمات الصدق والأمانة والمثابرة . . . الخ .

ز ـ الاختبارات الاسقاطية :

اذا ما كان المدرك الحسي واضحا بذاته فانه لا يترك مجالا للتأويل الشخصي ،

اما اذا لم يكن واضحا فانه يترك الفرصة للتفسيرات الشخصية ، اي اننا نفسر المدركات الغامضة على ضوء ظروفنا وتجاربنا واحوالنا النفسية الشعورية واللاشعورية . واستغل العلماء هذه الفكرة لبناء اختبارات تكشف لنا عن شخصية المفحوص ـ دوافعه ـ تطلعاته ـ مخاوفه . . . . ـ من خلال عرض مدركات حسية مبهمة ، ثم نطلب اليه تفسير ما يراه او يسمعه . ولما كان المدرك غير واضح ، فان التفسير يعكس شخصية المفحوص . وهناك ـ العديد من الاختبارات الاسقاطية في ميدان دراسة الشخصية اهمها اختبار « الرورشاخ » واختبار تفهم الموضوع (التات) واختبارات اكمال الجمل والاصوات الخافتة . . . الخ .

الفصل الثالث عشر

التنشئة الاجتماعية

١ ـ أهمية التنشئة الاجتماعية في الاسلام
٢ ـ التنشئة الاجتماعية كعملية اجتماعية
٣ ـ الطفولة المبكرة ودور الاسرة خلال مرحلة التنشئة الاجتماعية
٤ ـ المراحل التي يمر بها الطفل خلال عملية التنشئة الاجتماعية المبكرة

أ ـ المرحلة الأولى
ب ـ المرحلة الثانية
جـ ـ المرحلة الثالثة

٥ ـ الذات كنتيجة للتفاعل الاجتماعي
٦ ـ دور المدرسة في عملية التنشئة الاجتماعية
٧ ـ الثقافة والشخصية (الثقافة العامة)
٨ ـ أثر الثقافات الفرعية
٩ ـ أثر كل من عاملي الثقافة والوراثة على مضامين عملية التنشئة الاجتماعية وبناء الشخصية .
١٠ ـ أخطاء عملية التنشئة الاجتماعية وتوجيهات .

الاسلام وقضية التنشئة الاجتماعية :

يهتم الدين الاسلامي الحنيف اهتماماً بالغاً بالعملية التربوية شكلاً ومضموناً من أجل صياغة الشخصية الاسلامية المتكاملة والتي تتمتع بالصحة الجسمانية (الخلو من الامراض) والصحة النفسية (الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) والخلو من الاضطرابات والصراعات النفسية والقدرة على اداء رسالته التي خلق من أجلها وهي العبادة وتعمير الارض والعمل والانتاج والقدرة على تكوين علاقات اجتماعية راضية مرضية مع الآخرين وهذه هي اساس الصحة النفسية الحقة ، وقد استوجب الاسلام على الآباء حسن تربية الابناء ذكوراً واناثاً من أجل اعدادهم كي يكونوا مواطنين صالحين ضماناً لصلاحية الأسرة والمجتمع كله . وقد جاء تأكيد الاسلام على كرامة الانسان وعزته فالله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، في وجه الرذائل التي كانت ترتكب في حق الأبناء في الجاهلية من وأد للبنات او قتل للبنين والبنات معاً ـ تحت تأثير الفقر وتخلصاً من عبء التربية او تحت تأثير معتقدات زائفة مثل الاعتقاد بأن البنت جزء من خلق الشيطان أو من خلق اله غير آلهتهم وان مخلوقاً هذا شأنه يجب التخلص منه تعالى عما يقولون علواً كبيراً وقد استوجب القرآن الكريم تحريم هذه العادات والمعتقدات الزائفة ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ﴾ . « الانعام » وقال تعالى ﴿ ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحورا افأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً انكم لتقولون قولا عظيما ﴾ « الاسراء » ويشير الرسول عليه الصلاة والسلام الى ضرورة الحفاظ على الفطرة الانسانية النقية فقد خلق الله سبحانه وتعالى عباده حنفاء ويجب الحفاظ على الفطرة التي خلق الله الناس عليها يقول تعالى ﴿ واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم . قالوا بلى شهدنا ﴾

« الأعراف » وينطلق الاهتمام الاسلامي بالتربية ادراكاً لأهميتها في تشكيل الشخصية والحفاظ على الفطرة أو تشويهها وضياع أثرها ونستطيع أن ندرك ـ عظمة الاسلام اذا ادركنا أساليب المجتمعات السابقة على الاسلام في التربية فالى جانب رذائل الجاهلية من وأد للبنات وصياغة الشخصية الماجنة المتغطرسة فقد كانت نظم إسبرطة في اليونان القديمة توجب على الآباء إعدام أولادهم الضعاف والمشوهين أو المرضى عقب ولادتهم او تركهم في القفار طعاماً للوحوش . . .

وكان الأب الروماني يملك حق قتل أبنائه وكان العرب في الجاهلية يئدون الاناث ويربون الذكور على العنجهية والكبر والغطرسة . وسارت خلال القرون الوسطى فكرة غريبة ترجع الى التحريف والتزييف الذي أصاب المسيحية ، وهي أن الطفل يولد محملاً بخطيئة آدم (عليه السلام) فهو يولد بداخله شيطان وواجب المربين اخراج هذا الشيطان من جسمه . واذا ما انتقلنا الى مبادىء الاسلام فاننا نجدها تنهى تماماً عن مثل هذه التصورات المريضة يقول تعالى :

﴿ واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ (النحل ٥٨ ـ ٥٩) . وقال تعالى :

﴿ ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيرا ﴾ (الاسراء ٣١) .

وينطلق الاسلام في اهتمامه بالطفل وبحاجاته وبتربيته واعداده ، ليكون مؤمناً ومواطناً صالحاً ، من ايمان الاسلام بكرامة الانسان ، ويصل الامر بالاسلام الى الاهتمام بضرورة التدقيق في اختيار الزوجات اللائي سيكن أمهات قال عليه السلام :

« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » واستوجب الاسلام الانفاق على الحامل ـ ولو طلقت ـ حتى تضع حملها ، فان أرضعت استمر الانفاق عليها حتى ينتهي الرضاع وقد بلغ الاسلام حداً من السماحة لدرجة أن الرسول عليه الاسلام أجل تنفيذ حد الرجم لامرأة اقترفت جريمة الزنا حتى وضعت حملها وانتهت من الرضاع .

ويستوجب الاسلام من الآباء وأولياء الأمور حسن تربية الأبناء والحفاظ على

فطرتهم السليمةلكل مولود - كما يشير صلى الله عليه وسلم - يولد على الفطرة ويقول عليه الصلاة والسلام « من كان له صبي فليتصابى له » حتى ينزل الى مستواه ويتعامل معه على حسب المستوى الادراكي للطفل . ويقول تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ وعن أبي حفص عمر بن أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد ربيب رسول الله عليه الصلاة والسلام قال كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي عليه الصلاة والسلام « يا غلام سم الله تعالى وكل بيمينك وكل مما يليك » وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الامام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته . والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته فكلكم راع ومسؤول عن رعيته » (متفق عليه) .

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع » .

التنشئة الاجتماعية كعملية اجتماعية :

يعيش الانسان منذ آدم عليه السلام حتى الآن داخل جماعات تعدد أسماؤها ويرتبط بعلاقات متعددة مع الآخرين حوله ويدخل معهم في تفاعلات . ويطلق على هذا التفاعل الاجتماعي مصطلح العمليات الاجتماعية وتتعدد اشكال التفاعل وبالتالي تتعد أشكال ونوعية العمليات الاجتماعية . وهناك من العمليات ما يجمع ويطلق عليها العمليات المجمعة « Associative Processes كالتعاون والاخاء والزواج . . . ومنها ما يؤدي الى التشتت والتنافر وهي العمليات المفككة Dissociative Processes وتعتبر التنشئة الاجتماعية Socialization من أهم العمليات الاجتماعية وأخطرها شأناً في حياة الفرد لأنها الدعامة الأولى التي ترتكز عليها مقومات شخصيته ، وتبدأ هذه العملية منذ ولادة الطفل . فهو في بداية وجوده في الحياة لا يعدو أن يكون بناء بيولوجياً يتضمن مجموعة من الدوافع والاستعدادات ، وهنا تقوم الأسرة بدور هام وأساسي في اكسابه خصائص مجتمعة

حيث تعلمه لغة الجماعة وعاداتها وعرفها وتقاليدها وعقيدتها وآدابها وتتعاون الجماعات الأخرى (جماعات المدرسة والمسجد واللعب ومختلف الهيئات التي ينتمي اليها الفرد . . .) مع الأسرة حيث تكمل وظيفتها في التنشئة الاجتماعية .

واذا كان الطفل لا يولد « انساناً اجتماعياً » فانه يجب على المجتمع ـ من خلال مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية ـ صقله وترويضه وتعليمه حتى يمكن الحفاظ على فطرته السليمة وابراز جوانب انسانيته الحقة . ويطلق على هذه العملية التي يتم من خلالها تكيف الفرد خاصة الطفل ـ لبيئته الاجتماعية ـ عملية التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي . وهي في جوهرها عملية تربية وتعليم يقوم بها الآباء والمعلمون وغيرهم ممن يمثلون ثقافة المجتمع . وهي عملية تستهدف تعليم الفرد الامتثال لمطالب المجتمع والاندماج في ثقافته واتباع تقاليده والخضوع لالتزاماته ومجاراة الآخرين بوجه عام . وتعد التربية الاجتماعية والعقائدية والخلقية التي يقوم البيت والمدرسة بأكبر جانب منها ـ هي جوهر هذه العملية .

واذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة من المهد الى اللحد ، فانها تحتل أهمية كبرى في مرحلة الطفولة . ومما يجب أن يتعلمه الطفل :

(١) المشي والفطام وضبط المثانة والامعاء في مرحلة الطفولة المبكرة ، والاستحياء الجنسي وكف العدوان عن الأخوة والأبوين والكبار في الكثير من المجتمعات .

(٢) القدرة على كف دوافعه غير المرغوبة أو الحد منها . ومما يجدر ذكره أن القدر الأكبر من عملية التنشئة الاجتماعية يتمثل أساساً في اقامة حواجز وضوابط في مواجهة الاشباع المباشر للدوافع الفطرية كالدافع الجنسي ودافع المقاتلة والعدوان ، وهي ضوابط لا بد منها لقيام المجتمع السوي وبقائه ، ولهذا فان هذه الضوابط توجد داخل كل المجتمعات حتى أكثرها بدائية .

(٣) تعلم العقيدة والقيم والآداب الاجتماعية والأخلاقية وتكوين الاتجاهات المعترف بها داخل المجتمع نحو الأسرة والمدرسة والدين والسلطة . . . الى جانب التنميط الجنسي « Sex tuping » حيث اعداد الذكور لممارسة أدوار الرجال وتوجيه الاناث لممارسة أدوار الاناث (طهي وغسل وممارسة دور ربة البيت . . .) على حسب قيم المجتمع ومعتقداته .

(٤) القدرة على التوقيت المنظم أو القيام بأعمال معينة في أوقات محددة (كالأكل والنوم والذهاب للمدرسة وأداء الواجبات . . . الخ) .

واذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية تعلم الطفل كيف يمنع عن تحقيق بعض دوافعه الفطرية بشكل فج ، فانها تعينه على تحقيق كثير مما يريد بالأساليب الشرعية التي يرضى عنها الدين والمجتمع . وخلال هذه العملية تمنع الطفل من القيام بأعمال يميل اليها ونوجهه الى ضرورة القيام بأعمال لا يميل اليها بطبعه . فان اراد ان يتجنب عقاب الكبار وأن يظفر برضائهم عنه وما يعدوه له من ثواب ، فعليه الامتثال لأوامرهم . وهكذا يتم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية اقامة سلطة داخلية في نفس الطفل ، وهي ما تعرف باسم الضمير ، ومتى تكون الضمير أصبح الفرد يحمل داخله مقومات الثقافة الاجتماعية والعقائدية والخلقية للمجتمع الذي يعيش فيه .

ولا تقتصر عملية التنشئة الاجتماعية على الأسرة ، وانما تمتد لتمارس في المدرسة وخارج المدرسة في المسجد ودور العبادة والملعب والنادي والجمعيات والمنظمات وأثناء التفاعل الاجتماعي بالآخرين في السوق والشارع والاحتفالات والعمل . . . الخ . غير أن التطبيع الاجتماعي يكون أكثر تركيزاً ووضوحاً وقصداً خلال مرحلة الطفولة المبكرة عنه في أية مرحلة أخرى من مراحل النمو .

الطفولة المبكرة ودور الاسرة خلال مرحلة التنشئة الاجتماعية :

يؤكد علماء النفس والتربية بصفة عامة وانصار مدرسة التحليل النفسي بصفة خاصة ، على أهمية مرحلة الطفولة المبكرة ـ من لحظة الميلاد حتى سن ست سنوات ، من حيث ثبات الخبرات والتجارب التي يعاينها الطفل وظهورها بجلاء على شخصيات الراشدين ، فبذور الصحة أو المرض النفسي توضع في هذه المرحلة . وقد سبق أن نبهنا الرسول عليه الصلاة والسلام الى أهمية التربية في الحفاظ على الفطرة السليمة أو في تشويهها وتزييفها وإضاعها . ويؤكد علماء النفس التحليلي ضرورة اتباع اساليب في التربية تؤدي الى نمو شخصية الطفل نمواً سوياً ، مثل الرضاعة من ثدي الأم ، وعدم الضغط على الرضع بالتسرع في اجباره على ضبط أمعائه ومثانته ، وعدم فرض مواعيد صارمة للطعام . وعلى الرغم من أن ـ بعض العلماء ـ مثل أورلانسكي Orlanski يؤكدون أنه لا يوجد دلائل حاسمة تثبت أن الأطفال الذين يرضعون من ثدي أمهاتهم أحسن توافقاً

مع غيرهم ممن يرضعون من ألبان ـ صناعية ، الا أن الدين الاسلامي الحنيف يؤكد أن الوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وسبحان الله اذ جعل لبن الأم احسن غذاء للطفل يتطور مع نمو الطفل ولا يضارعه أي نوع من الألبان الصناعية . وقد درست احدى العالمات مسألة القماط وأثره على شخصية الطفل وانتهت الى القول أن مثل هذه التفصيلات ليس لها أثر واضح على سمات الشخصية ، وأن الذي يحتل أهمية كبرى في هذا الصدد مجموعة المواقف العادية أو الصدمية التي يتعرض لها الطفل وأسلوب اشباع حاجاته أو اعاقتها . وهذا يعني أن استواء شخصية الراشد أو انحرافها يتوقف على نوع المعاملة التي يلقاها الطفل وسط اسرته أولا ثم خبراته من جماعات الأصدقاء والمدرسة والنادي وأما اذا كان محبوباً يشعر بتقبل الآخرين له أم لا . . . الخ .

وقد كشفت مختلف الدراسات عن أهمية العلاقات الأسرية في تنمية شخصية الراشد ـ خلال مرحلة الطفولة ـ وقد قام « بالدوين Baldwin » بدراسة أثر العلاقات الأسرية على شخصية الأطفال وخرج بأن العلاقات الديموقراطية التي تتيح للطفل حرية التعبير عن رأيه والمناقشة والفهم والاقناع ، الاقتناع تؤدي الى ظهور أطفال يتسمون بالنشاط والقدرة على اقتحام المواقف بشجاعة تظهر لديهم الميول القيادية ويحبون الاستطلاع وذلك على عكس العلاقات الأسرية الدكتاتورية التسلطية التي تؤدي بالاطفال الى الهدوء المفرط ـ الغير السوي والانعزال وعدم القدرة على التفاعل الايجابي مع المواقف والاقسام بالخوف وتشير الدراسات السلوكية ان اغلب مخاوف الاطفال النوعية مكتسبة من الجو الأسري والجماعي الذي يعيش فيه الطفل فالاطفال لا يولدون بمخاوف محددة ، وأن الطفل حديث الولادة لا يظهر الخوف الا من الاصوات المرتفعة وفقدان السند ، فكل ما يخاف منه الأطفال والراشدون يكتسب من البيئة بالتعلم ـ وخاصة التعلم الشرطي خلال مرحلة الطفولة ـ فالطفل الذي يعاني من خبرة مفزعة أو غير سارة من شيء أو شخص او موقف أو حيوان . . . فانه يميل الى تعميم التجربة واستمرار الخوف من هذه الأشياء والأشخاص والمواقف . . . في المستقبل ويمكن التمثيل لهذا بخوف بعض الأشخاص من الكلاب أو من الامتحانات بشكل مرض . ويجب التنبيه هنا من الناحية التربوية ـ الى خطورة تخويف الاطفال

بشكل مفزع من بعض الأشياء والأشخاص ، كما أن مضامين القصص التي تروى للأطفال ، يجب أن تخلو من الخيالات المفرطة أو أساليب الفزع والتخويف ويجب أن تشبع حاجات الأطفال الى القصص بقصص الأنبياء والرواد الأول من المسلمين وبطولات القواد المسلمين . . . الخ . ويجب التدقيق في اختيار مضامين وأساليب قصص الأطفال لما تمارسه من أثر غير عادي على شخصياتهم مستقبلاً . ويجب على المربين والمعلمين أن يوجهوا اهتماماً كبيراً لمساعدة الأطفال على التخلص من مخاوفهم التي يكونون قد اكتسبوها من أسرهم او جماعات الرفاق أو نتيجة لبعض الخبرات غير السارة . ويكون ذلك بأن يقترن الموقف المخيف في نظر الطفل بخبرة سارة مناقضة للخبرات السابقة . فالطفل الذي يخاف بشكل مرضي من الامتحان ، يجب ان يمر بتجربة امتحانات في جو أسري أبوي حتى يعرف أن الامتحان شيء لا يخيف . وقل مثل هذا عن المخاوف الشاذة ـ Phobia ـ من بعض الحيوانات غير المخيفة والكلاب ، وبعض الأشياء غير المخيفة ـ كالماء أو بعض الاطعمة . . . الخ .

وعادة ما يكون الطفل محايداً ازاء الأفكار والمعتقدات فالطفل يولد على الفطرة ولا يكون متعصباً لشيء ما . وهو يكتسب مختلف اتجاهاته ازاء المعتقدات والأفكار والأشياء والأشخاص كما يكتسب قيمة من البيئة الاجتماعية المحيطة به ـ خاصة الوالدين وذلك بطرق مقصودة أو غير مقصودة ، شعورية أو غير شعورية فالطفل الذي ينشأ في وسط اسلامي يكتسب عقيدته الاسلامية من البيئة المحيطة به فهو يصلي كما يصلي والده ، ويكتسب مختلف أركان العقيدة ـ أولا بالتقليد ثم يستدمجها في نفسه وتصبح جزءاً لا يتجزأ من شخصيته . وهكذا تتكون الاتجاهات والقيم والمعتقدات . وقل مثل هذا عن الطفل الذي ينشأ في بيئات منحرفة عقائدياً كالبوذية والهندوسية . . . الخ .

وقد كشفت مختلف البحوث النفسية والاجتماعية أن ضمير الفرد وفكرته عن نفسه واسلوبه الخاص في معاملة الناس وفي مواجهة المشكلات . . . وما يكتسبه الفرد ـ خلال مرحلة الطفولة من اتجاهات دينية وقومية وسلالية . . تظل عالقة بضميره ويصعب تغييرها في الكبر ـ أقول يصعب ولم أقل يستحيل ، ذلك أن الانسان الذي ربي على معتقدات زائفة ـ مثل كل المعتقدات غير الاسلامية ـ ثم عرف الاسلام وكان في متناوله كتاب الله وسنة نبيه ، فعليه أن يترك الشرك

ويعتنق عقيدة التوحيد . غير ان هذه العملية ليست بالسهولة المتصورة فهي محتاجة الى جهود الدعاة المخلصين .

وقد كشفت الدراسات المختلفة ان اتجاهاتنا نحو الناس وصلاتنا العاطفية بهم ، هي اتجاهات وصلات تعلمناها في محيط الأسرة . وترجع اتجاهاتنا نحو الرؤساء والمرؤوسين والاصدقاء والزملاء والزوجة والاولاد والغرباء . . . جميعاً الى طبيعة الاتجاهات والصلات التي خبرناها داخل أسرنا . وتؤكد البحوث الكلينيكية أن الأسر التي تسودها علاقات الود والاحترام والثقة والحب تخرج أطفالا وراشدين أسوياء ، أما الأسر التي يسودها التفكك وانعدام الثقة والصراعات تخرج أطفالاً وراشدين مرضى ومنحرفين . فمن يحرم من الحب والثقة والعطف في الطفولة ، يرفض تقبل العطف والحب من الآخرين ، كما يعجز عن منح أطفاله الحب والعطف والأمن . . . ، ومن يشب على الهروب من المشكلات يشب على الخنوع والخوف وعدم القدرة على مواجهة المشكلات . . .
وقد كشفت الدراسات الانثروبولوجية عن العلاقة الوثيقة بين عمليات ومضامين التنشئة الاجتماعية خلال مرحلة الطفولة المبكرة ، وبين خصائص شخصية الراشدين فالذكور في قبيلة « أرابشر » ينشأون على الوداعة والمسالمة والتعاون والصداقة ونبذ السيطرة والعدوان والغرور ، نتيجة ما تمنحه الأم للطفل من رعاية ومودة وعطف واضح واطالة مدة الرضاعة ، وما يمنحه المحيطون بالطفل له من عناية بالغة . ونجد نموذجاً مناقضاً لهذا تماماً بين اعضاء قبيلة « موندوجومر» المجاورة للقبيلة السابقة . فمضمون عملية التنشئة الاجتماعية في تلك القبيلة تؤدي الى تشكيل الشخصية العدوانية المرتابة دائماً التي تفقد الثقة بالنفس والآخرين .

المراحل التي يمر بها الطفل خلال عملية التنشئة الاجتماعية :

على الرغم من أن التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة من لحظة الميلاد حتى نهاية الأجل المحتوم الا أن مرحلة الطفولة المبكرة تحتل أهمية بالغة في هذا الصدد ـ كما سبق أن أشرت ـ لدرجة أن بعض الباحثين يؤكدون أن بذور الصحة النفسية أو المرض النفسي والانحرافات المختلفة توضع بذورها خلال هذه المرحلة . ويمكننا ان نصنف هذه المرحلة الى ثلاثة مراحل من منظور عملية التنشئة الاجتماعية .

أ ـ المرحلة الأولى :

ويتعلم الطفل خلالها كيف يتكيف مع مطالب جسمه وحاجاته البيولوجية وظروف البيئة المحيطة به . وهو مضطر في هذه المرحلة الى قبول المعاني التي حددها الراشدون من حوله للمواقف التي يمر بها كما يظهر ذلك في معاملتهم له .

ومعنى هذا أن الطفل يكيف نفسه لسلوك الكبار وعلى الرغم من أن مقاومة وفاعلية الطفل عادة ما تكون ضعيفة جداً خلال هذه المرحلة فان هذا لا يعني أنه يقف موقفاً سلبياً تماماً . فالطفل يستجيب للمواقف المختلفة بكل حواسه وتتحدد بالتدريج بعض أنماطه السلوكية نتيجة لما يترتب على استجاباته من نتائج أو نتيجة لسلوك الكبار ازاء استجاباته للمواقف ، فيتعلم بالتدريج ان يستبعد بعض الأنماط السلوكية التي تسبب له الأذى أو التي تفشل في اشباع حاجاته البيولوجية المحدودة . وهو يتعود بالتدريج ان يركز نشاطه على جوانب محورية « Pivotal aspects » في المواقف التي يتفاعل معها ويتحدد سلوكه ويتركز نحوها . وبذا يمر سلوكه بعملية تمايز « Differenciation » مستمرة .

ويحدث هذا نتيجة عملية سلوك ادراكي نحو الجوانب المحورية في المواقف التي يمر بها ، وتصبح هذه الجوانب تمثل اشارات أو دلالات « Signs » يستجيب لها الطفل في الموقف الكلي ويكرر استجابته لها بتكرار ظهورها . وهو بهذا الشكل يكون اتجاهاته نحو الأشياء المحيطة به ، وبهذا الشكل يبدأ عملية الاستيعاب والاستدماج وتشكيل القيم وتبدأ شخصية الطفل في التكوين والتشكيل وتتحدد ملامحها الأساسية .

ونستطيع القول ان استجابة الطفل للعلامات او لارشادات « Signs » هي في جوهرها استجابات للمعاني التي حددها الكبار لها سلفاً (فثدي الام يعني الرضاعة واشباع حاجة بيولوجية ومد الام يدها نحو الطفل معناه رفعه وحمله ، و . . . الخ) وهكذا يكتسب الطفل المعاني الاجتماعية التي حددتها له الجماعة . غير أن موقف الطفل ازاء هذه الأمور ليس سلبياً تماماً ، ذلك لأن حساسيته البالغة للمثيرات الداخلية والخارجية تؤدي الى ظهور استجابات متباينة تساعده على التكيف مع بيئته والتأثير في هذه البيئة من أجل اشباع حاجاته البيولوجية ، فهو مثلاً يحاول استدرار عطف أمه واستقدامها عن طريق الصراخ أو البكاء أو الحركة المستمرة . . . الخ . والأمهات يعرفن كيف أن سلوكهن يتعدل بدرجات متفاوتة

بحسب سلوك الطفل أو بحسب ما يفهمونه من دلالات معينة يضفونها على هذا السلوك غير أن المثيرات (العلامات) والاستجابات (رفعن الطفل ازاء هذه العلامات سلوكياً) لا تسير باستمرار في اتساق كامل ، الأمر الذي يؤدي بالطفل الى محاولة تغيير سلوكه وتغيير توقعاته . ومثال هذا ان اقتراب الام من الطفل يعني رفعه وارضاعه ، غير أن هذا لا يحدث فيصاب الطفل بالاحباط وقد يكون رد فعله هو الصراخ والبكاء وقد يفلح بهذه الطريقة في اجبار أمه على حمله وارضاعه ، وقد لا ينجح . وهذا يعني أن سلوك الطفل يتعدل بتعديل توقعاته بالنسبة للعلامات التي يستجيب لها .

ويمكن القول أنه اذا ما استقرت عادات الطفل بتكرار الاستجابة للعلامات أو المثيرات بشكل ثابت على مدى فترة زمنية طويلة ، فان التغيير المفاجيء يحدث أثراً بالغ السوء في نفس الطفل ومثال هذا الفطام المفاجيء بأساليب مؤذية مثل وضع مادة لاذعة او مرة على ثدي الام فبعد أن كان الثدي مصدر اشباع حاجة بيولوجية ، ومصدر أمن وراحة للطفل ، يصير مصدر فزع واحباط حرمان ولهذا فان خبراء التربية وعلم الاجتماع والنفس ينصحون الأمهات بضرورة مراعاة الأسلوب التدريجي في الفطام وتعليم الطفل ضبط الأمعاء والمثانة . . . الخ .

وتشير دراسات علم النفس العيادي (الاكلينيكي) الى خطورة الصراعات النفسية الحادة التي يعانيها الأطفال نتيجة الخبرات الصدمية وتغير التوقعات والاحباطات التي يعانون منها خلال مرحلة الطفولة المبكرة ، ونتيجة لتذبذب الكبار في معاملتهم ، وأن هذه الصراعات والخبرات الصدمية هي التي تضع بذور الانحرافات النفسية والأمراض العصابية . ومما يزيد من حدة وخطورة هذه المسألة القصور اللغوي للطفل فالطفل في هذه المرحلة لا يكون قد تعلم بشكل كاف كيف يعبر عن نفسه لغوياً ، ولا كيفية التعبير عن اعتراضاته والتفاهم مع مجتمع الراشدين ، كذلك فانه لا يعرف كيف يفكر التفكير الذي يحل له مشكلاته لعدم نمو قدراته القليلة بشكل كاف ولعدم تمكنه من اللغة التي هي أداة التفكير .

بـ المرحلة الثانية :

وتعد هذه المرحلة امتداداً للمرحلة الأولى وتبدأ بتعلم الطفل الانتقال في المكان من خلال تعلم الحبو والمشي بتعثر ثم المشي بحرية ثم الجري . وهذه القدرة على الحركة تمنح الطفل قدراً اكبر من الحرية في التعامل مع الأشياء بعيداً

عن رقابة مجتمع الكبار . ولعل المشكلة هنا هي أن الطفل ينقل خبراته في المرحلة الأولى الى هذه المرحلة ، فيلقى استجابات مختلفة من الكبار نتيجة الأختلاف المواقف مما لا يفهمه الطفل ، الأمر الذي يعرضه لصراعات وتجبره على تغير توقعاته واستجاباته بأنماط سلوكية جديدة حتى يتوافق مع مجتمع الكبار . ومثال هذا الكبار يقدمون للطفل في المرحلة الأولى أشياء يضعها في فمه (يأكلها) أو يلعب بها فتحدث صوتاً مرتفعاً وفي كلا الأمرين يستجيب لها الكبار (في حالة الأكل أو اللعب) بالفرح والرضا . ومن الطبيعي ألا يقدم الكبار للطفل شيئاً يضره . وعندما يتعلم الطفل الحركة في المكان يمسك بأشياء يضعها في فمه (قد تكون ضارة له) ويمسك بأشياء ثمينة يكسرها ، وهنا يتوقع ـ كما كان الحال في المرحلة الأولى ـ أن يفرح الكبار ويرضوا عنه ، الا أنه يصاب بصراع عندما يلقى من الكبار الزجر والنهي والسخط والضرب أحياناً خوفاً على الطفل ، ولكنه لا يعلم ذلك . ومعنى هذا أن الكثير من عادات وأفعال الطفل التلقائية في هذه المرحلة تجد مقاومة من الكبار الذين يتدخلون لمنعه الأمر الذي يحدث صراعاً بين الطفل والكبار من منظور الطفل نفسه . وقد يتحول هذا الصراع في نفسية الطفل نتيجة للتناقض الذي يحدث حول معاني الأشياء المستمدة من خبراته السابقة . وهذه الاستجابات الجديدة من قبل الكبار تؤدي الى ضرورة تعديل سلوك الطفل بحسب قيم الكبار وعاداتهم والمعاني التي صوروها للمواقف المختلفة التي يواجهها الطفل في حياته ـ فبعد أن كان تناول أي شيء يقدم للطفل ـ في المرحلة الأولى ـ يسبب فرحاً للكبار ويسبب رضاهم عنه ، فان تناول أي شيء يقع في يد الطفل ـ خلال المرحلة الثانية ـ قد يقابل بضرب وعنف وسخط الكبار لأنه يسبب الأذى للطفل ـ ويمكن للطفل هنا أن يعدل توقعاته وسلوكه بمساعدة الكبار ، غير أنه اذا ما ازداد الآباء عنفاً على الأبناء نتيجة لعدم الوعي أو بسبب سوء العلاقات بين الأبوين أو بسبب أمراض نفسية (عصابة) يعاني منها الآباء ، فان هذا يزيد من حدة الصراعات النفسية للأطفال بسبب التذبذب في التعامل فيعجز الطفل عن تحديد ما يسبب رضاء الآباء أو سخطهم ، فالسلوك الواحد قد يثاب عليه حيناً ، ويعاقب عليه حيناً آخر . وقد أوضحت الدراسات الاكلينيكية عن أن هذه المشكلة قد تسبب انحرافات سلوكية واضحة في حياة الطفل المستقبلة خاصة وان النمو اللغوي للطفل ما يزال قاصراً في هذه المرحلة كذلك .

المرحلة الثالثة :

يؤكد « جورج ميد » أن مفتاح هذه المرحلة هو نمو القدرة اللغوية عند الطفل فالكلمات رموزاً وعلامات تشير الى أشياء في مواقف معينة وتشير الى دلالات محددة . ونمو اللغة عند الطفل يعني نمو قدرته على التفكير الذي يتم من خلال اللغة . وفي هذه المرحلة يكتسب الطفل اتجاهات الكبار نحو المواقف الهامة في حياة الطفل . فحتى يسلك الطفل ـ السلوك الذي يرضي الكبار لا بد ان يستدمج اتجاهاتهم وقيمهم ومفاهيمهم ازاء المواقف الحياتية التي يتعرض لها وهذا ما يحدث خلال هذه المرحلة . واساس هذا النمو هو نمو الطفل عقلياً ولغوياً . وعن طريق اللغة يتمكن الانسان من تحديد سلوكه سلفاً بالنسبة لمواقف مستقبلة وهذا هو أساس عملية التفكير . فاللغة سلوك لفظي يرتبط بمواقف واقعية يواجهها الطفل في حياته اليومية ويسلك نحوها سلوكاً معيناً . ويمكن من خلال اللغة نقل ما تحمله الألفاظ من معاني من موقف الى آخر ، أن يمكن تعميم الخبرة وتعميم سلوك الطفل نحو المواقف المتشابهة . فكلمة « احسنت » عندما تقال للطفل بمناسبة سلوكه سلوكياً حسناً يرضى عنه الآباء ، تنسحب في ذهن الطفل على كل سلوك يرضي الآباء وقل نفس الشيء عن كلمة « أسأت » . ويصبح استدعاء اللغة المرتبطة بالموقف عاملاً يساعد الطفل على استدعاء الجوانب المختلفة للموقف كما يمكن أن يستدعي الموقف اللغة التي ارتبطت به . ومثال هذا أن الطفل يميل الى اللعب بأي شيء يقع في مجاله الحسي أو يضعه في فمه فاذا ما شاهد كأساً زجاجية فانه يقذف بها على الارض فتكسر فيفرح الطفل لما احدثه الكأس من صوت . غير أن الام تقابل الطفل بعلامات الاستياء وتقول له أسأت . ومع تكرار هذا الموقف يتعدل سلوك الطفل فعندما يشاهد كأساً أو شيء زجاجياً يستدعي كلمة (سأت) التي سمعها من أمه فيدرك على أن الكأس شيء للشرب فيه وليس للالقاء على الأرض . . . الخ . وتصبح الكلمة المستخدمة هنا قادرة على استرجاع الخبرة **ومعنى هذا ان اكتساب الكلمة واسترجاعها يقوم مقام الام في توجيه أو ضبط سلوك الطفل** . وهذا هو الأساس الاول في تكوين الضمير الأخلاقي للطفل الذي يتكون من مجموعة الأوامر والنواهي والتعليمات والقدوة الحسنة للآباء أمام الأطفال أو العكس ، وهذا هو أساس نمو القدوة على الضبط الذاتي للطفل . وكلما زادت الحصيلة اللغوية للطفل بزيادة خبراته ، نما ضميره وتقدم في قدرته على ضبط نفسه واستيعاب اتجاهات الآخرين ومعتقداتهم

ومفاهيمهم وقيمهم . . . الخ . ومن خلال اللغة نستطيع نقل خبرات متعددة الى الطفل واختصار خبرات الآخرين له وبالتالي توفير الكثير من الوقت والجهد ، وبهذا الشكل يستطيع الكبار - باستخدام ألفاظ لها دلالات أو معاني خاصة من خبرات سابقة أن يغرسوا في نفس الطفل اتجاهات سلوكية خاصة بالنسبة لمواقف لم يخبرها الطفل فعلاً . مثل حب الله ورسوله وحب الصحابة وحب عقيدة التوحيد وحب الصلاة والصيام والزكاة والتشوق لزيارة الأماكن المقدسة . . . الخ . وذلك من خلال اللغة التي من خلالها يتلى القرآن الكريم وتتم الصلاة وعن طريق القصص الديني المشوق وقصص البطولات الاسلامية . . . الخ . وبهذه الأساليب يتعلم الطفل معتقدات آبائه وقيم الاسرة واتجاهاتها ومعاييرها الخلقية . . . ومن خلال أساليب الاستحسان والاستهجان والمدح والذم والثواب والعقاب يمكن للآباء تحديد الميول الاجتماعية والمهنية لأبنائهم مستقبلاً .

وتعلم الطفل اللغة تساعده على تصوره لذاته . فاللغة هي الأداة التي تساعد الطفل على اكتساب اتجاهات الغير . ويصبح الطفل واعياً بذاته عن طريق تبينه لاتجاهات الغير نحوه وعن طريق تكوين مجموعة من الاستجابات المنظمة نحو اتجاهات الغير . ويمكننا أن نتبين هذه الأمور بشكل واضح في لعب الأطفال . فالطفل قد يتخيل شيئاً ما - على أنه طفل صغير يحادثه - بالاستحسان والاستياء وهو في هذا يتقمص دور أبيه أو أمه ، فيستحسن منه ما يستحسنه الأبوان ، ويعبر عن استيائه وينهره عن الأشياء والافعال التي ينال هو عليها استياء أبويه . كذلك قد يحمل الطفل صندوقاً ويتخيل نفسه بائعاً متمثلاً والديه في عملية الأخذ والعطاء مع البائع وهكذا .

ويمكن القول ان الاتجاهات التي يتبناها الطفل في البداية تكون ممثلة للأشخاص الذين أخذها عنهم ، وتكون ذاته في مثل هذه المواقف مرتبطة بالشخص الذي يقوم بدوره ، وهذا يعني أن الطفل في البداية يكون له ذوات تتعدد بتعدد المواقف والاشخاص الذين يتقمص أدوارهم .

غير أن الامر فيما يتعلق بنمو تصور الطفل لذاته « Self Concept » وتكوين هذه الذات « Self Formation » لا يتوقف على تبني اتجاهات منفصلة لشخصيات يتقمصها تتغير بتغير الشخصيات والمواقف ، ذلك لأن الطفل يتعامل مع جماعات متكاملة - جماعة الاسرة ، جماعة اللعب . وهو يتفاعل مع هذه الجماعات - أخذاً وعطاء يكتسب خبرات جديدة ذلك لأن أعضاء هذه الجماعات

ترتبط أدوارهم الاجتماعية معاً ولا بد لكل فرد أن يدرك دوره ودور الآخرين وما يتوقعه هو من الآخرين وما يتوقعه الآخرون منه ، ولا بد أن تتوحد اتجاهاتهم نحو العمل أو النشاط التعاوني الذي يسهمون فيه سوياً . ولعل أوضح موقف يمثل هذه العملية - كما يشير جورج ميد - هو التعاون في فريق اللعب المنظم ، حيث يجب على كل عضو أن يتوقع سلوك بقية افراد الفريق بالنسبة لبعضهم البعض وبالنسبة له شخصياً ، ولا بد أن يدرك الهدف العام الذي يسعى الفريق لتحقيقه . ونفس الموقف يتكرر داخل الاطار الاسري ، ولكن بدرجة أقل من الوضوح في ذهن الطفل ، ومع هذا فهو يتمكن خلال التفاعل من ادراك الأدوار - الحقوق والواجبات - المناطة بكل عضو وموقعه هو منها ، ويستطيع ايضاً أن يوحد الاتجاهات الأساسية لاتجاهات أعضاء الاسرة في كل متكامل وان يكون اتجاهاته ويعدل أنماط سلوكه على أساس هذا الاطار العام . ومعنى هذا أن الذوات المتعددة التي تتكون لدى الطفل نتيجة ارتباطه بأفراد آخرين مختلفين تتكامل معاً فيما يمكن أن نطلق عليه « الآخر المعمم Generalized other » وبعد أن يستدمج الطفل هذه الاتجاهات والقيم - الواردة اليه اصلاً من الآخرين - ينسى الطفل هذه الحقيقة وتصبح جزءاً لا يتجزء من شخصيته توجه سلوكه وتشكل أحكامه بشكل تلقائي وبهذا الشكل يكون الطفل الذات المستقلة . غير ان كثيراً ما يعرض للطفل مواقف جديدة - وهو ما قد يعرض أيضاً للراشد وهو في هذه الحالة يحاول ان يفهم اتجاهات الآخرين وتوقعاتهم منه وتحديد معنى الموقف (في ضوء خبراته الماضية) قبل ان يقوم بدور ويتخذ قرار في هذا الموقف الجديد .

الذات كنتيجة للتفاعل الاجتماعي :

وهكذا يمكن القول أن عملية التنشئة الاجتماعية - خلال مرحلة الطفولة المبكرة - تسهم في تكوين ذات الطفل وان يكون صورة معينة لذاته تتضمن مجموعة من المعتقدات والقيم والاتجاهات التي تحدد مواقفه وتوجه سلوكه تجاه نفسه وتجاه الآخرين .

فالذات والشخصية بهذا الشكل تعد نتاجاً للتفاعل الاجتماعي مع الآخرين ونتيجة لاستدماج قيم واتجاهات ومفاهيم هؤلاء الآخرين (الآباء الأخوة والاقارب في المحل الاول) وقد كشفت الدراسات التي عالجت نحو الالفاظ المعبرة عن الذات (أنا - لي . .) والتي تشير الى وعي الطفل بذاته ، عن صدق

تلك النظرية الذاهبة الى أن سلوك الافراد المحيطين بالطفل وتفاعلهم معـه هو الذي يحدد اتجاهات تكوين ذات الطفل ويشكل شخصيته ، وأن وعي الطفـل بالافراد المحيطين به واستخدامهم لأسمائهم يأتي قبل ادراكه لاسمه واستخدامه له ، كذلك كشفت هذه الدراسات أن الطفل يتعلم استخدام كلمة « أنا » التي تعبر عن الذات نتيجة لتفاعله مع غيره ، وان الكلمات التي تشير الى الذات وتعبر عنها لا تأخذ معناها الا من المجال الاجتماعي الذي يتفاعل معه الطفل . ولا يمكن تصور كلمة « أنا » في حالة العزلة لأنها عادة توجه للغير وبالتـالي تكتسب من التفاعل مع هذا الغير .

دور المدرسة في عملية التنشئة الاجتماعية :

تبدأ مرحلة المدرسة بعد مرحلة الطفولة المبكرة ، ومع بداية مرحلة الطفوله المتأخرة ويمثل انتقال الطفل من مجتمعه الصغير (الأسرة) أو مجتمع القرابة الى مجتمع المدرسة نقله وتحولاً كبيراً في حياتـه النفسية والاجتماعية فالمدرسـة مجتمـع الغرباء ، مجتمع اوسع يمثل بيئة جديدة بعلاقـات وصـلات وأسس جديدة لهـا قوانينها ويطالب الطفل فيها بواجبات لـم يألفها في المنزل ، مما يضطر معه الطفل الى التضحية بالكثير من المميزات التي كانت له في الجو الأسري .

فبينما كان في البيت الطفل يحتل مركزاً متميزاً ، يصبح في المدرسة مجرد طفل عادي معرض للثواب والعقاب على أساس القواعد العامة وعلى أساس الأخـذ والعطاء وليس الأخذ فقط كما كان الحال داخل الأسرة وقبل هذا كله فان المدرسة تعني الانفصال ـ لأول مـرة عن الوالدين ـ خاصـة الأم . وبعـد الانتقـال من البيت الى المدرسة حدثاً كبيراً في حياة الطفل النفسية له آثاره الكبيرة على شخصيته وخلقه وسلوكه الاجتماعي . فهو يضطر لأول مرة لأن يخضع لنظام عام ولسلطة تختلف عن سلطة الوالدين ، وأن يتخلى عن المركز المتميز الـذي كان يحظى به داخل الأسرة ، وعليه أن يتعلم النظام وآداب الحديث وعدم مقاطعة غيره ، وأداء ما يكلف به من واجبات ، والتعاون مع غـيره ، والتعامـل بأصـول مرعية مع الآخرين . . . فالمدرسة هي نموذج للمجتمع الواسع الذي سيتعامل معه الطفل فيما بعد .

ويذهب « بياجيه » الى أن أبرز أثر للمدرسـة الابتـدائية في مجـال التنشئـة الاجتماعية للطفل القضاء على ما يتسم به الطفل من تمركز حول الـذات «Self

concentration » نتيجة للعلاقات الاسرية . فالطفل حتى السابعة يكون شديد الخضوع لحاجاته ودوافعه وحاجاته ، غير قادر على تأجيل رغباتـه ، يعجـز عن الاهتمام بمشاعر الغير وحاجاتهم . غير أن دخوله للمدرسة يضطـره الى اختفـاء ظاهرة التمركز حول الذات ، والاهتمام بالآخرين والتعامل مع زملائه على أساس مبدأ النـدية والى الاهتمام بالمدرسـين وبالتقـاليد المدرسية وبالنظـام لأول مرة في حياته .

وتحتل المدرسة أهمية كبرى من الناحية التربوية لأنها قادرة على التأثير بشكل ايجابي على شخصية الطفل ان قامت بأداء رسالتها على خير ما يرام . فالمدرسة يمكن من الناحية التربوية أداء الوظائف والمهام الآتية :

(أ) ـ تستطيع أن تدعم كثيراً من المعتقدات والاتجاهات والقيم الحميدة التـي تكونت في البيت ، وفي مقدمتها عقيدة التـوحيد والقيم والنماذج السلـوكية الاسلامية .

(ب) ـ يمكن للمدرسة أن تمحي اثر بعض العادات والقيم غير السليمة التـي اكتسبها الطفل من البيت ، فما زال الطفل في المدرسة الابتدائية في مرحلة الطفولة المرنة قبل أن تتحجر وتتصلب القيم والاتجاهات الخاطئة .

(ج) ـ تستطيع المدرسة تعليم الطفل طرق التفاعل الايجابي مع الغير وتكوين علاقات اجتماعية سوية مع الآخرين .

(د) ـ يمكن للمدرسة ـ ومن خلال الأنشطة التربوية الهادفة ـ أن تزيل بعض ما يعلق بنفس الطفل من صراعات نتيجـة للصراعـات المنـزلية التي عاناهـا الطفل .

(هـ) ـ يمكن للمدرسة أن تدرب الطفل على ممارسة العلاقات الانسانية القائمة على اسس اسلامية ، بطريقة منظمة مخططة .

واذا ما انتقلنا من المدرسة الابتدائية الى المدرسة الثانوية ، فاننا نقابل ظاهرة المراهقة التي تبدأ بسن البلوغ « Puberity » وهي القـدرة على التناسـل وهـذه المرحلة تتطلب معاملة خاصة لاشباع الحاجات النفسية والاجتماعية والانفعـالية للمراهق . وتشير مختلف الدراسات التطبيقية الى ضرورة قيام المدارس ـ المتوسطة والثانوية ـ باشباع حاجات المراهق من حيث هو انسان ، يريد أن يقلد سلـوك

الرجال ـ ان كان ذكراً ـ وتقلد سلوك الحريم ـ ان كانت انثى ـ وان يكون له شخصية مستقلة ومحترمة من مجتمع الكبار ، كذلك يجب على المدارس فوق الابتدائية أن تتيح الفرصة للمراهق لاكتساب المهارات والاتجاهات والقيم الاسلامية السليمة واتاحة الفرصة لهم للتغيير عن ذواتهم والاستماع اليهم لتنمية شخصياتهم ، مع استمرار الصلة بين المدرسة والبيت لوقاية الطالب من الصراع نتيجة كما قد يحدث من تعارض للقيم بين المدرسة والبيت .

والواقع ان دور المدرسة في عملية التنشئة الاجتماعية دور خطير فالمدرسة احدى المؤسسات المسؤولة عن بناء الشخصية التي تؤمن بالله ورسوله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره والتي تخلو من الصراعات الداخلية والقادرة على الأخذ والعطاء وتكوين علاقات اجتماعية سوية مع الآخرين أي قادر على الحب والعمل والانتاج ، وهذا هو المؤمن الحق الذي يتسم بحسن الخلق والذي يألف الناس ويألفه الناس والذي يعمل وينتج ولا يسأل الناس احساناً . وتقوم المدرسة بمحاولة تحقيق اهداف وقائية واخرى انشائية بالنسبة للنشىء .

فالأهداف الوقائية هي التي تقي النشىء من كل ما يعوق نموه السليم جسمياً وعقلياً واجتماعياً وانفعالياً ، أما الأهداف الانشائية فتتمثل في تزويده بالخبرات اللفظية والحركية والعقلية والاجتماعية والمهنية مما يعينه على القيام بدوره المستقبل بكفاءة وينبهنا الرسول عليه الصلاة والسلام الى أهمية تزويد النشء بمهارات وخبرات ومعلومات في مقدمتها تعلم كتاب الله وسنة نبيه الكريم فخيركم من تعلم القرآن وعلمه « والسلوك الاسلامي القويم والسباحة والرماية وركوب الخيل» . . .الخ . ويجب أن توفر المدرسة مجموعة من الشروط حتى تتمكن من تحقيق هذه الأهداف الوقائية والانشائية ، بل والعلاجية (محو أثر القيم والعادات السيئة التي يكون الطفل قد تعلمها في الأسرة قبل الذهاب للمدرسة) أوجزها فيما يلي :

أولا : عدم التركيز على تلقين المعلومات فحسب ، وانما يجب التركيز على تنمية التلميذ تنمية شاملة جسمياً وعقلياً وانفعالياً واجتماعياً من خلال مختلف الانشطة التربوية الثقافية والرياضية والاجتماعية وتنمية العلاقات الانسانية بين التلاميذ القائمة على الأخذ والعطاء والايثار والتسامح في غير ذلة والمودة والرحمة .

ثانياً : التركيز على التلميذ وليس المنهج ، أن الاهتمام بالاحياء قبل الأشياء . فالتلميذ هو الذي يجب أن يكون محور العملية التعليمية ، وذلك باشباع حاجاته ودوافعه، ومن دوافعه وحاجاته تبدأ عملية التعليم على أساس نشاطه الذاتي ويجب غرس العقيدة السليمة في نفس الطفل ومراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ .

ثالثاً : مراعاة أن يكون الجو الاجتماعي السائد في المدرسة هو الجو الأسري القائم على التفاهم بين المدير وأعضاء هيئة التدريس من جهة وبينهم وبين الطلبة من جهة أخرى ، والقيام بأداء الشعائر الدينية (كالصلاة) في مواعيدها واحترام رأي الجماعة ومنح التلاميذ حرية المناقشة وابداء الرأي والمشاركة في الادارة المدرسية والابتعاد عن المنافسة غير المتكافئة .

رابعاً : الاهتمام باعداد المدرسين ، فالمدرسة تقوم أساساً على المدرس الناجح المدرب القادر على العطاء التربوي المثمر . ولا توجد مهنة اذا امتهنها شخص معقد الشخصية جلب أبشع الاضرار على غيره وعلى نفسه كالتعليم . فالمدرس العصابي ينشر الفزع والقلق بين تلاميذه بالعدوى تماماً كالمصاب بالامراض الجسمية المعدية وهناك مجموعة من المهارات يجب اكسابها للمدرس الصحيح نفسياً ، أهمها القدرة على الفهم والعطف والاستبصار الوجداني في نفوس طلابه ومعرفة الطرق الصحيحة في التدريس ومعرفة البناء النفسي لطلابه ومراحل النمو وخصائص كل مرحلة والفروق الفردية بين الطلبة ، الى جانب أسس العلوم الاجتماعية التي تساعده على فهم تلاميذه مثل علوم النفس والاجتماع والتربية .

خامساً : ويجب اعداد بطاقة لكل تلميذ منذ السنة الأولى الابتدائية وتسير معه حيثما انتقل يسجل فيها مستواه العقلي وقدراته الخاصة واستعداداته وميوله وأسلوب تفاعله الاجتماعي مع غيره ومستوى تحصيله الدراسي واتجاهه الخلقي العام وأبرز سماته الشخصية . . . مثل هذه البطاقة تعين مستقبلاً على توجيهه تربوياً وتعليمياً وصحياً ومهنياً على اسس علمية سليمة .

سادساً : يجب أن يلحق بكل مدرسة اخصائي اجتماعي نفسي مدرب قادراً على

اكتشاف الحالات الانحرافية بين الطلبة مبكراً (كالتخلف الدراسي) أو الانطواء ، او سوء العلاقات مع الغير أو العدوان أو الانحرافات الجنسية . . . الخ . ومحاولة علاجها مبكراً والاستعانة بالمعالجين النفسيين اذا اقتضى الأمر .

الثقافة والشخصية :

يجدر بنا أولا أن نحدد مفهومي الثقافة والشخصية ، فالثقافة تشير في العلوم الاجتماعية الى كل ما يكتسبه الانسان من مجتمعه من معتقدات وقيم وأفكار وانماط سلوكية ولغة وعلم وفن . . . الخ . والثقافة تراكمية معقدة فهي ليست محصلة جيل واحد ولكنها محصلة أجيال متعددة ولها أبعادها التاريخية والعقائدية . . أهم ما يميزها أنها مكتسبة وان كانت تقوم على أسس فطرية تتمثل في طبيعة التكوين المتميز للانسان كما أراده له الله سبحانه وتعالى من أجل حمل الرسالة الكبرى وهي الخلافة عن الله والعبادة وتعمير الكون والتعارف بين القبائل والشعوب . والواقع أن ثقافة المجتمع وحده متكاملة من المعلومات والأفكار والمعتقدات والمواضعات الاجتماعية وطرق التفكير والتعبير والترويج وطرق كسب الرزق والصنائع اليدوية وغيرها من الظواهر السائدة بين افراد المجتمع والتي تنتقل من جيل الى جيل ويكتسبها الأفراد من خلال الاتصال والتفاعل الاجتماعي لا عن طريق الوراثة البيولوجية . ولكل ثقافة جانبان جانب مادي وهو المحصلة المادية للتفاعل الاجتماعي كالاجهزة والسيارات والادوية والمباني والملابس . . . الخ . وجانب معنوي يتألف من المعتقدات والقيم والمعارف والمفاهيم . . . الخ . وتضم الثقافات العامة داخل المجتمعات المعقدة ثقافات فرعية مثل ثقافات الريف والحضر والبدو وتختلف الثقافات باختلاف المهنة والتعليم والطبقة الاجتماعية . . . الخ . وهذه الاختلافات فرعية في اطار الثقافة العامة للمجتمع كله .

أما الشخصية فهي جملة الصفات الجسمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية التي تميز الشخص عن غيره تمييزاً واضحاً ، وهذه الصفات تتفاعل مع بعضها لتؤلف تنظيماً معيناً ومن هذه الصفات ما يبرز أثره ويثقل وزنه حين نحكم على شخصية انسان ما ، وأهم هذه الصفات في المجال الاجتماعي القدرة على التعامل مع الناس ، والقدرة على ضبط النفس والاتزان الانفعالي ومسايرة المعايير

الاجتماعية والخلقية داخل البيئة الاجتماعية . وهذه الجوانب الاجتماعية المتعلمة خلال عملية التنشئة الاجتماعية قد تغطي على العديد من الجوانب الموروثة للفرد . فالدنيا تزخر بالكثير من ذوي العاهات الخلقية الذين تفوقوا في ميدان أو آخر ، كما تزخر بالعديد من الأذكياء الفاشلين والذين تضاءلت شخصياتهم في أعين الناس نتيجة سوء علاقاتهم بالناس . ولهذا يمكن القول أن مظهر الشخصية البارز هو المظهر الاجتماعي لدرجة أن الشخصية تعرف أحياناً أنها مجموع صفات الشخص كما تبدو في علاقاته مع الناس ، أو أنها مركب من صفات مختلفة تميز الشخص عن غيره خاصة من ناحية التكيف للمواقف الاجتماعية .

من هذا العرض لمفهومي الثقافة والشخصية يتضح الأثر الحاسم للتنشئة الاجتماعية على صياغة شخصية الطفل ـ انسان المستقبل الراشد ، كما تتضح أهمية الاسرة التي كانت ـ وما تزال ـ أقوى سلاح يستخدمه المجتمع في عملية التنشئة الاجتماعية لأبنائه الجدد ، وهذه العملية الاخيرة هي في جوهرها عملية الصياغة الثقافية للفرد أن نقل التراث الاجتماعي والثقافي من جيل الى جيل . وتؤكد كافة الدراسات التتبعية والأكلينيكية والانثروبولوجية ما للتربية داخل الأسرة من أثر عميق وخطير على تكوين شخصية الراشدين ، يتضاءل دونه أثر أية منظمة اجتماعية اخرى . والأسرة هي الوسط الأول الذي ينقل الى الطفل ثقافة مجتمعه حسب تصور الأسرة لها (معتقدات ، قيم ، عادات سلوكية ، تطلعات وطموح وآداب . . . الخ) .

والواقع ان اختلاف ثقافات المجتمعات تؤثر بشكل واضح على اختلاف شخصيات أبناء هذه المجتمعات ، وهذا هو أثر الثقافة على الشخصية . فلو كنا نشأنا في مجتمع سيبريا أو صقيع الاسكيمو لكانت لنا عادات وتقاليد ومثل تختلف اختلافاً جوهرياً عما نحن عليه الآن ، بل ولاختلفت نظرتنا الى الكون ومكانتنا منه . . . والواقع أن ثقافة المجتمع تؤثر بشكل واضح في طرق تفكيرنا وتعبيرنا عن انفعالاتنا وأساليب ارضائنا لدوافعنا وفيما نتعلمه من معايير المباح والمحظور والعدل والظلم والحق والباطل ، كذلك تؤثر على شكل ومضمون ما نكتسبه من معلومات ومهارات وعواطف وأذواق . كل أولئك يحدده نوع الثقافة ، أهي ثقافة تحررية ام غير تحررية ، تعاونية ام تزاحمية ، مادية خالصة ام روحية خالصة ام وسط بين المادية والروحية ، مسالمة أم عدوانية ، مستنيرة أم غير مستنيرة . يضاف

الى هذا أن الثقافة وان كانت تنتقل أسسها العامة الى الأبناء عن طريق الأسرة ، فان الثقافة هي التي تحدد الاساليب والطرق التي يتبعها الوالدان في تنشئة الأطفال ، هل تقوم هذه التنشئة على التسامح أم التشدد؟ على التزمت أم على التراخي ؟ هل تسير على نمط سريع فتفرض على الطفل تكاليف الرجولة من عهد مبكر ، أم تسير على وتيرة تدريجية متئدة ؟ ، هل يقوم الوالدان بتربية اطفالهما ، أم يتركان هذا الامر لمربين مأجورين أو غير مأجورين ؟ وعلى هذا نستطيع القول ان ثقافة المجتمع تعيش داخلنا كما نعيش فيها ، او أننا مرآة تنعكس عليها صورة هذه الثقافة . وهذا وان كان حقاً الا انه لا يمثل كل الحق أولا لأن الشخصية ليست شيئاً سلبياً تماماً ازاء ثقافة مجتمعها حيث يمكن أن تكون ايجابية ومؤثرة ، وثانياً لأن الشخصية متأثرة بعوامل أخرى غير ثقافية وهي مجموعة العوامل الوراثية .

واذا كانت الأسرة هي التنظيم الاجتماعي الأول الذي ينقل أهم ملامح الثقافة العامة للمجتمع الى الطفل ، فان الواقع انها ـ الاسرة ـ لا تستطيع أن تنقل الى الطفل كل ملامح ثقافة المجتمع ، فالطفل لا يتعرض الا لعوامل وجوانب منتقاة من ثقافة المجتمع كما تمثلها أسرته . ويترتب على هذا أن الدعائم الأولى لشخصية الطفل تتأثر بحياته في الأسرة ، أي بثقافة وبالخبرات الخاصة التي يمر بها هو وحده مما يجعل شخصية كل انسان تختلف في بعض التفاصيل عن شخصية أي فرد آخر فلكل شخص شخصية فريدة ومتميزة . غير أن هذا التمايز والفروق الفردية لا يحول دون وجود وحدة في الثقافة العامة التي تحقق التكامل الاجتماعي العام بين أبناء المجتمع . فالأسرة العادية داخل أي مجتمع تكسب أبناءها قدراً من الخصائص تتيح لهم القدرة على التوافق الاجتماعي مع ثقافة المجتمع الكلية . وهذه القضية تثير مسألة اقسام الثقافة . ففي كل مجتمع ثقافة عامة تحقق التكامل الاجتماعي داخل المجتمع وهي مجموعة المعتقدات والقيم والمفاهيم والاتجاهات والجوانب التي يشترك في اعتناقها جميع أبناء المجتمع وتحقق الوحدة في المجتمع ، وهناك الثقافات الفرعية «Sub culture» التي تميز بعض المجموعات داخل المجتمع الواحد ، وذلك في اطار الثقافة العامة أو الكلية . ففي كل مجتمع نجد اختلافات واضحة بين الجماعات الممثلة للمجتمع بسبب الاختلاف في البيئة الجغرافية والايكولوجية ـ مجتمعات محلية ريفية أو حضرية أو ساحلية أو بدوية . . . الخ . وبسبب الاختلافات المهنية أو التعليمية أو العرقية (في بعض

الدول) . . . الخ .

أثر الثقافات الفرعية :

سبق أن اوضحنا مفهوم الثقافات الفرعية والثقافة العامة ، فاذا كانت عملية التنشئة الاجتماعية داخل اي اسرة من أسر المجتمع تعني اكساب الطفل أساسيات ثقافية مجتمعه العامة ، فانها تكسبه في نفس الوقت الثقافة الفرعية التي تنتمي اليها الاسرة ـ ثقافة ريفية أو حضرية ، ثقافة المتعلمين أو غير المتعلمين ، أو الثقافة المهنية المحددة . . . الخ .

وليس معنى ضرورة وجود ثقافة عامة داخل أي مجتمع ان شخصيات جميع الاعضاء تتشابه تشابهاً مطلقاً في العموميات وفي أدق التفاصيل ، ففي ظل الثقافة العامة الواحدة مثل ثقافة المجتمع الانجليزي أو المجتمع المصري تختلف مضامين التنشئة الاجتماعية وبالتالي تختلف الشخصيات على أساس منطقة التنشئة (البعد الايكولوجي) ريف أو حضر أو صحراء منطقة زراعية أو صناعية أو ساحلية ، وحسب نوعية التربية (تمت التربية في الاسرة الطبيعية أو اسرة بديلة ، في ظل وجود الوالدين معاً وعلاقاتهما الطيبة أو في ظل علاقات مفككة أو انفصال الوالدين . . . الخ . (البعد الاسري) وهل تمت التنشئة في جو أسرة مثقفة أم غير مثقفة (البعد عن التعليم) محافظة أو مجددة ، حانية أم جافية ، مكتظة أم محدودة العدد . . . يضاف الى هذا البعد المهني ويتضمن طبيعة المهنة التي يتمهنها الأب ، والبعد الاقتصادي ـ أسرة غنية أم فقيرة . كذلك تختلف مضامين التنشئة الاجتماعية وبالتالي شخصيات الأفراد حسب عوامل خارج الأسرة مثل نوعية القيم والمعاملة التي يتلقاها الطفل في المدرسة ، ونوعية الأصدقاء والرفاق ، من حيث أعمارهم واخلاقهم ومعتقداتهم وقيمهم ، وهل للطفل أصدقاء كثيرون وهل يؤثر الاجتماع بالآخرين أم العزلة . . . الخ . هذه العوامل وغيرها تمثل الثقافات النوعية التي تؤدي الى اختلاف شخصيات أفراد المجتمع الواحد . ولكننا نؤكد أن هذه الاختلافات النوعية تتم في ظل الوحدة الكلية التي تكفلها الثقافة العامة ، التي تحقق وحدة المجتمع العام كله .

أثر كل من عاملي الثقافة والوراثة على مضمون التنشئة الاجتماعية :

أدت الدراسات الانثروبولوجية (علم الانسان) الحديثة الى تغيير كثير من

الأفكار القديمة التي كانت تسود دراسات علم النفس والعلوم الاجتماعية . فقد سادت فكرة أن الانسان عدواني بطبعه ، وان الرجل مخلوق عدواني مسيطر والمرأة انسان ضعيف خاضع يستسلم للرجل ، وأن القتال والعنف غريزة في الانسان . . . الخ . غير أن الابحاث الانثروبولوجية كشفت عن ان عمليات التنشئة الاجتماعية في بعض قبائل الميلانيزيا في جنوب شرق آسيا تؤدي الى طراز من الشخصيات لا تعرف العدوان اليدوي ويعبرون عن مظاهر العدوان باقامة ولائم يطلق عليها البوتلاتش (Potlach) . وقد كشفت دراسة « مارجريت ميد » ، M. Mead » أن المثل الأعلى للرجل في قبيلة « أرابش » في غينيا الجديدة الوداعة والمسالمة والرقة كالنساء تماماً ، بعكس الحال في قبيلة « موندوجومر » حيث أن المثل الأعلى للرجولة هو الخشونة والفظاظة والعدوانية . أما في قبيلة « تشامبولي » وهي قبيلة مجاورة فالرجل يمثل الوداعة ويقوم بالاعمال اللينة كالنقش والحفر والرقص ، في حين تقوم المرأة بالأعمال الخشنة مثل صيد السمك ونسج الشباك ، والمرأة ـ على الرغم من أن المجتمع أبوي ـ هي العنصر المسيطر الآمر والناهي عدا في مسألة الزواج . ويشير « بريتشارد » الى أن تصور علماء النفس لمرحلة المراهقة تغيرت بعد دراسة « ميد » لمجتمع ساموا . فقد اقترنت مرحلة المراهقة في الحضارة الاوربية والامريكية بالنقلة الفجائية للشخصية والعدوان والمشكلات للمراهقين وأولياء الامور . أما في مجتمع « ساموا » فقد وجد أن مرحلة المراهقة تسير هناك دون صراعات أو عقبات أو تمرد أو عدوان ودون أمراض واضطرابات نفسية . وهكذا اقتنع الباحثون الى ان الاضطرابات النفسية والصراع والتأزم ليس خاصية مصاحبة لمرحلة المراهقة على الاطلاق ، لكنها ترتبط بطبيعة الثقافة والتنشئة الاجتماعية . ولا يمر المراهق في ظل ثقافة الأسرة الاسلامية بأية اضطرابات أو صراعات نتيجة للايمان بالقيم الاسلامية الأصيلة التي تقي الانسان والجماعة والمجتمع كله ضد حدوث الاضطراب أصلاً ، لانها ثقافة مصدرها التشريع الاسلامي الإلهيّ المنشأ .

اخطاء عملية التنشئة الاجتماعية :

تستهدف عملية التنشئة الاجتماعية السليمة افراز أناس أسوياء قادرين على التعامل السوي مع مجتمعهم يؤمنون بالمعتقدات الاسلامية الصحيحة قادرين على ترجمتها سلوكياً في كل مناحي واقعهم الاجتماعي ويقول آخر فان التنشئة الاجتماعية

السليمة هي التي تؤدي الى مجتمع من الراشدين الذين لا يعانون الصراعات النفسية والقادرين على التوافق السوي مع المجتمع المسلم . وهنا نطرح سؤالا عن معيار السواء والانحراف ، والواقع أن هناك عدة معايير منها **المعيار المثالي** حسبما يضعه علماء النفس والفلاسفة من معايير -وهي مختلفة من عالم لآخر ومن مجتمع لآخر ، وهناك **المعيار الاحصائي** الذي يذهب الى أن الشخص السوي هو الذي يتفق سلوكه واتجاهاته مع سلوك واتجاهات غالبية أبناء المجتمع ، وهناك المعيار الطبي النفسي الذي يركز على الخلو من الصراعات والأزمات النفسية اللاشعورية . . . الخ .

ويمكن القول بفساد هذه المعايير جميعها . فالاستواء لا يتمثل في التطابق مع مثاليات وضعية من صنع البشر لأنها تختلف باختلاف البشر وباختلاف المجتمعات ، كذلك فان الاستواء لا يتمثل في مطابقة سلوك ومعتقدات وقيم الأغلبية ، فقد تكون الأغلبية منحرفة عن الصواب أي منحرفة عن العقيدة الاسلامية وهي وحدها العقيدة السليمة ، كذلك قد يخلو الانسان من الصراعات لكن يشرب الخمر ويأتي الفواحش . . . والمعيار الوحيد المقبول للاستواء هو المعيار الاسلامي ، فما يتفق مع مبادىء الشريعة الاسلامية يعد سوياً وما يخالفه يعد منحرفاً والتربية الاسلامية داخل المجتمع المسلم تحقق للانسان الخلو من الصراعات الشعورية واللاشعورية ، كما يحقق للانسان القدرة الايجابية على المشاركة والتوافق السوي مع نفسه واسرته ومجتمعه ومهنته . . . الخ .

وقد تقع الاسر في بعض الاخطاء تؤدي الى معاناة الأبناء في الكبر من مشكلات نفسية وسلوكية . منها اهمال الأم للاطفال ويذهب بعض العلماء مثل « بولبي Bolby » الى أن حب الأم للطفل ورعايتها المعتدلة في مرحلتي الرضاعة والطفولة له من الأهمية في ارساء قواعد الصحة النفسية للطفل ما للفيتامينات من أهمية للصحة الجسمية .

ومن الاخطاء التي يقع فيها الآباء والمربون معاملة الطفل على انه راشد متجاهلين أو جاهلين خصائص وحاجات مرحلة الطفولة . ولهذا يجب على الآباء والمربين معرفة الطفولة وخصائصها وهذه المعرفة تتضمن ما يلي :

أولاً : معرفة دوافع الطفل وحاجاته الأساسية وما يترتب على احباطها من مشكلات وازمات نفسية .

ثانياً : معرفة المنطق الخاص بالطفل وطريقة تفكيره ونظرته الخاصة الينا والى العالم المحيط به .

ثالثاً : ادراك اهمية مرحلة الطفولة وضرورة توافر الجو الأسري الحاني على الطفل . وأهم الحاجات النفسية للطفل التي يجب الحرص على اشباعها هي الحاجة الى التوحيد (الحفاظ على الفطرة) واشباع الحاجات العضوية ، والحاجة الى الأمن والحاجة الى التقدير الاجتماعي ، والحاجة الى توكيد الذات والتعبير عنها والحاجة الى الحرية والاستقلال ، والحاجة الى الاستطلاع واكتساب الخبرات ، والحاجة الى اللعب . . .

ويمكننا هنا التنبيه الى أهم جوانب الخطأ التي قد يقع فيها الآباء والمربون خلال عملية التنشئة الاجتماعية هي :

أولاً : القسوة والنبذ : وتؤدي التربية المتعنتة القاسية الى كراهية الآباء والسلطة الابوية وكل ما يمثلها مستقبلاً والصرامة في التربية تؤدي الى خلق ضمير صارم قاس يشعر الانسان دائماً بالذنب للصغيرة والكبيرة بشكل يؤرق حياته وطاعة الاطفال ورضوخهم للتربية القاسية ليس معناه الأدب لكن الرضوخ ويكون رد الفعل هو الانتقام المفرط أو الخنوع الشديد مستقبلاً وكلاهما رذيلة . وخطر نبذ الطفل واهماله أو التنكر له وتهديده باستمرار والسخرية منه ، هو توليد الرغبة في الانتقام في نفس الطفل وحقده على الأسرة والمجتمع وقد لوحظ أن نبذ الطفل عامل مشترك في كل حالات جنوح الاحداث .

ثانياً ـ التراخي والاسراف في التدليل . ومن صور التدليل عدم تدريب الطفل على الالتزام بقواعد وقيم معينة وعدم تحمله أي مسؤولية والتسيب المطلق في السلوك ، في معاملته لأفراد الاسرة ، مواعيد الطعام ، استذكار الدروس . . . وتلبية كل طلبات الطفل وحاجاته ، والمشكلة هنا أن الأب والام المتسيبة نموذج سيء وقدوة فاسدة أمام الطفل ، الى جانب أن مثل هذه التربية تعود الطفل على الاخذ دون العطاء وهو مخالف لما سيواجهه الطفل مستقبلاً ، وهذا يؤدي الى شعور الطفل بالنقص والفشل عندما يبدأ في الخروج خارج معاملات الأسرة ويواجه بواجبات لم يألف مثلها من قبل والتدليل يؤدي الى شخصية رخوة تضيق بأهون

المشكلات لا تطيق مواجهة الصعاب وصدق رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام عندما يوجهنا الى الخشونة « اخشوشنوا فان النعمة لا تدوم » والطفل المدلل يتوقع من رؤسائه التغاضي عن اخطائه ، فان حاسبوه عليها شعر بالاضطهاد والظلم . وهنا تجدر الاشارة أن التربية الصحيحة هي التي لا تجيب كل حاجات الطفل ، وتعلمه الأخذ والعطاء وضرورة التعلم كيف يتنازل عن بعض رغباته ، وترتيب هذه الرغبات في شكل أولويات وتحقيقها حسب الامكانيات المتاحة .

ثالثاً ـ التذبذب في معاملة الاطفال : يؤدي التذبذب في معاملة الاطفال (مدحه على شيء ـ سلوك ـ اليوم نعاقبه عليه الغد والعكس) الى اختلال معايير الاستواء والانحراف في نفس الطفل ، فلا يعرف الطفل هل هذا السلوك صحيح ام خطأ لانه مرة يكافأ عليه ومرة أخرى يعاقب عليه هذا الى جانب انه يفقد الثقة في والديه وهما القدوة امامه ، بالاضافة الى اهتزاز قيمة العدالة في نظره وهذا لا يعنيه على تكوين فكرة ثابتة عن ذاته وسلوكه وخلقه ، ويجعله دائماً في حالة قلق وحيرة .

رابعاً ـ الصراع المستمر بين الوالدين : هذا الصراع يجعل الطفل يعيش في جو من القلق وانعدام الامن ، الى جانب فقد الثقة في الوالدين ، وفي ممثلي الوالدين أو السلطة الابوية مستقبلاً بل وفي الناس جميعاً ويجعل الطفل حائراً بين أبيه وأمه وهذا النزاع يعطي الطفل فكرة سيئة عن الأسرة والحياة الزوجية مما ينعكس على حياته الاسرية ومعاملته لزوجته وأبنائه مستقبلاً . وينصح خبراء علم النفس أن الطلاق في هذه الحالة أفضل بالنسبة للصحة النفسية للأولاد .

خامساً ـ التلهف والقلق المفرط على الأطفال : وهذه اللهفة والقلق يؤديان الى معاملة الطفل بافراط وحساسية وتقيد حركته بشكل يشل حركته ـ خوفاً من أن يصاب ، فيحرم من اللعب مع رفاقه او من الخروج من المنزل ، أو مقابلة الغرباء ، والاكثار من ملابسه حتى لا يصاب ببرد . . . الأمر الذي يسهم في ايجاد شخصية قلقة منطوية غير اجتماعية بل وسقيمة لعدم ترك الطفل على الطبيعة يؤثر ويتأثر ويكتسب المناعة الطبيعية ضد الامراض الجسمية والاجتماعية والنفسية .

سادساً ـ عدم مراعاة التنميط الجنسي : «Sex typing » اثناء التنشئة الاجتماعية ويقصد بهذا التنميط تربية الابناء الذكور على ممارسة السلوك المقبول من الذكور ومعاملتهم على هذا الأساس ونفس الأمر بالنسبة للاناث . وكثيراً ما يحدث أن يعامل الآباء الأبناء الذكور معاملة الاناث ويلبسونه ملابس الانثوية .

نتيجة لبعض المعتقدات الخاطئة ـ كما قد يجد الطفل نفسه وسط مجموعة من الأطفال والافراد كلهم من الجنس الآخر فيتعود استخدام الكلمات التي تعبر عن الجنس الآخر عندما يتكلم عن نفسه ومن أجل بناء شخصيات اسلامية صحيحة نفسياً وجسمياً يجب توجيه الآباء والامهات الى أسس التربية وممارسة العمل التربوي الاسلامي المستنير في المدارس وكافة مؤسسات التنشئة الاجتماعية الاخرى ، الى جانب الاهتمام بعلاج الحالات الانحرافية مبكراً .

الفهرس

صفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

العمليات العقلية : الانتباه

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الثالث عشر